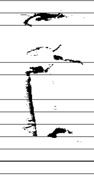
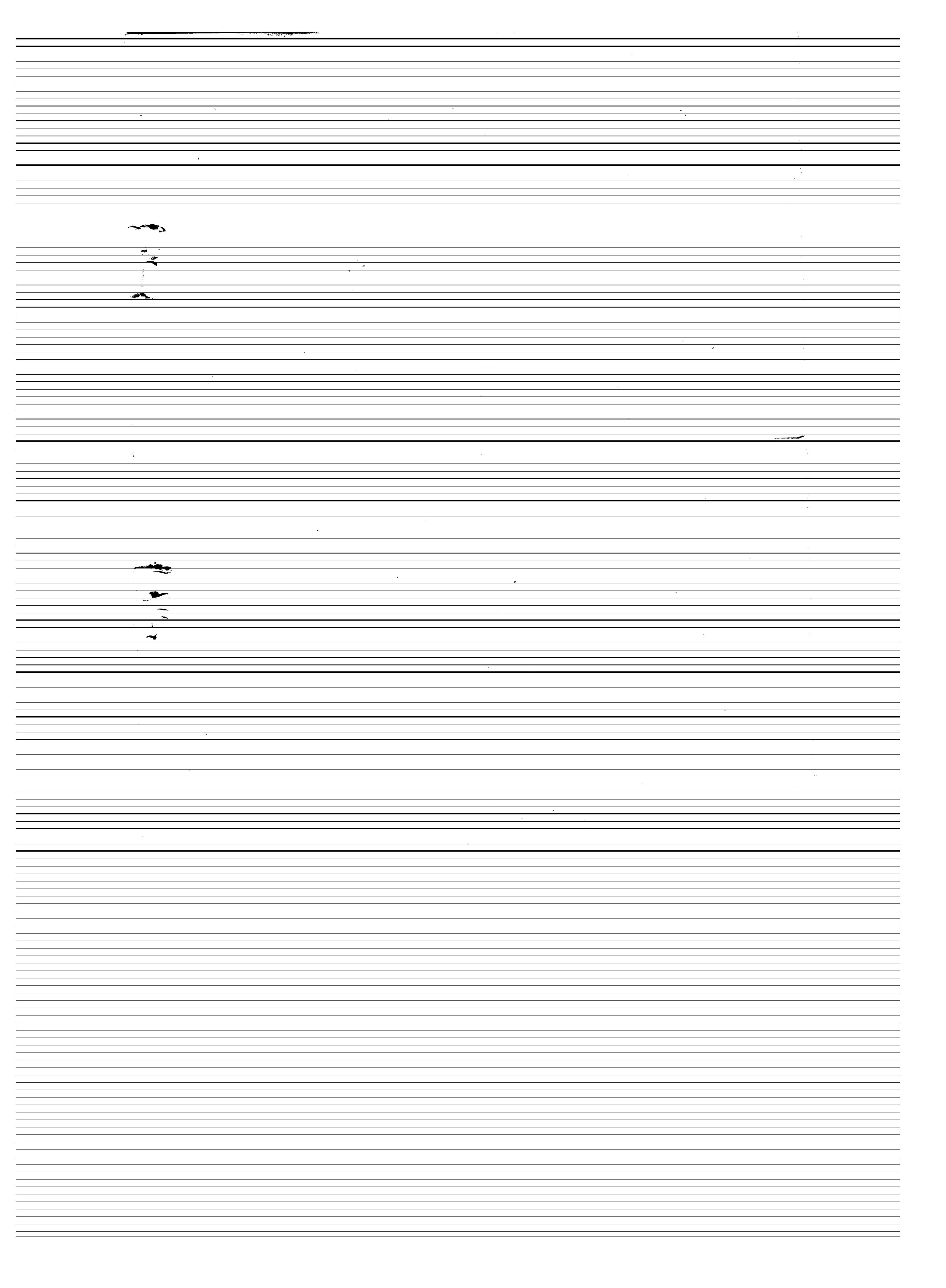
دراسات في علم الكلام

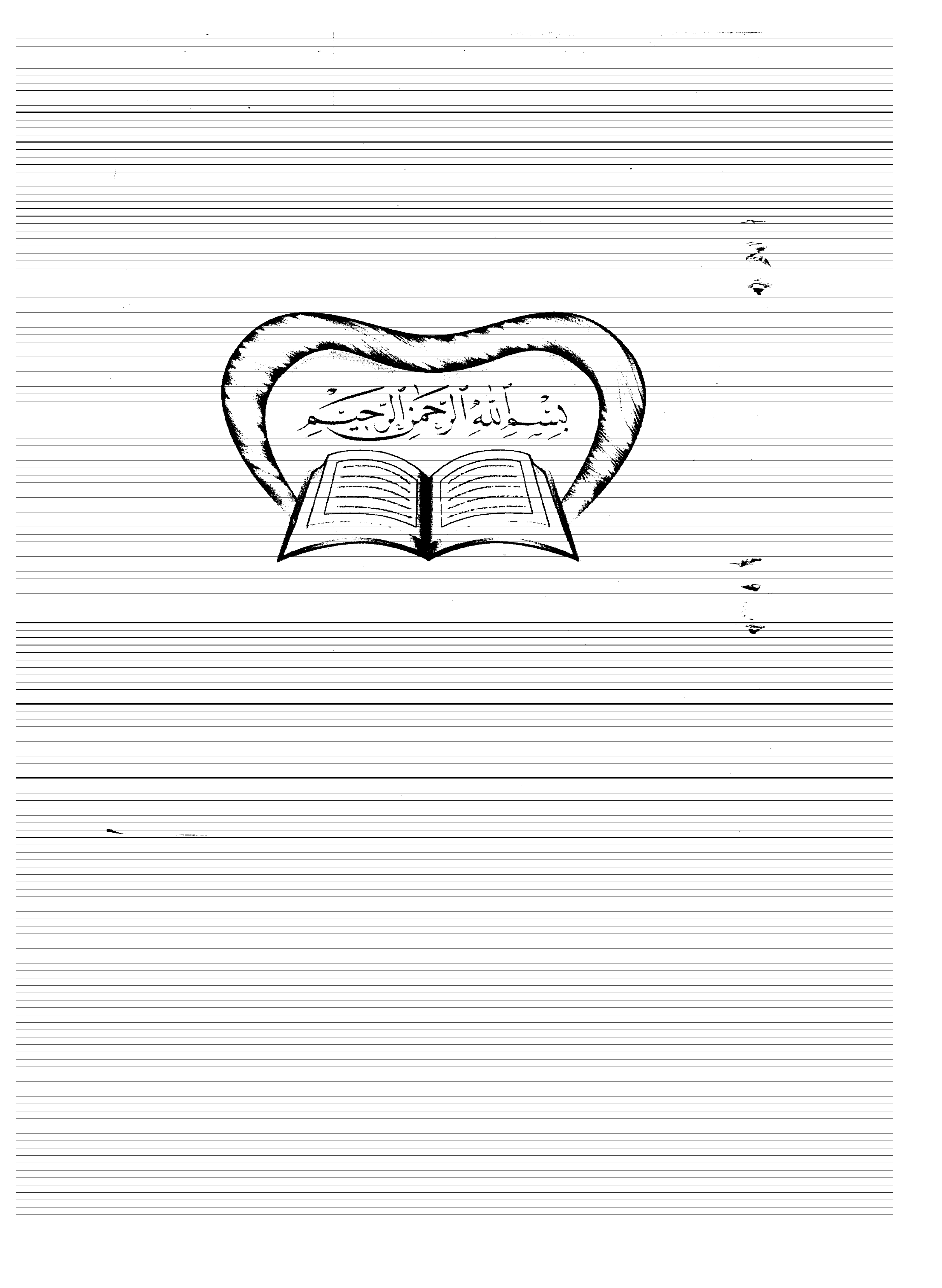


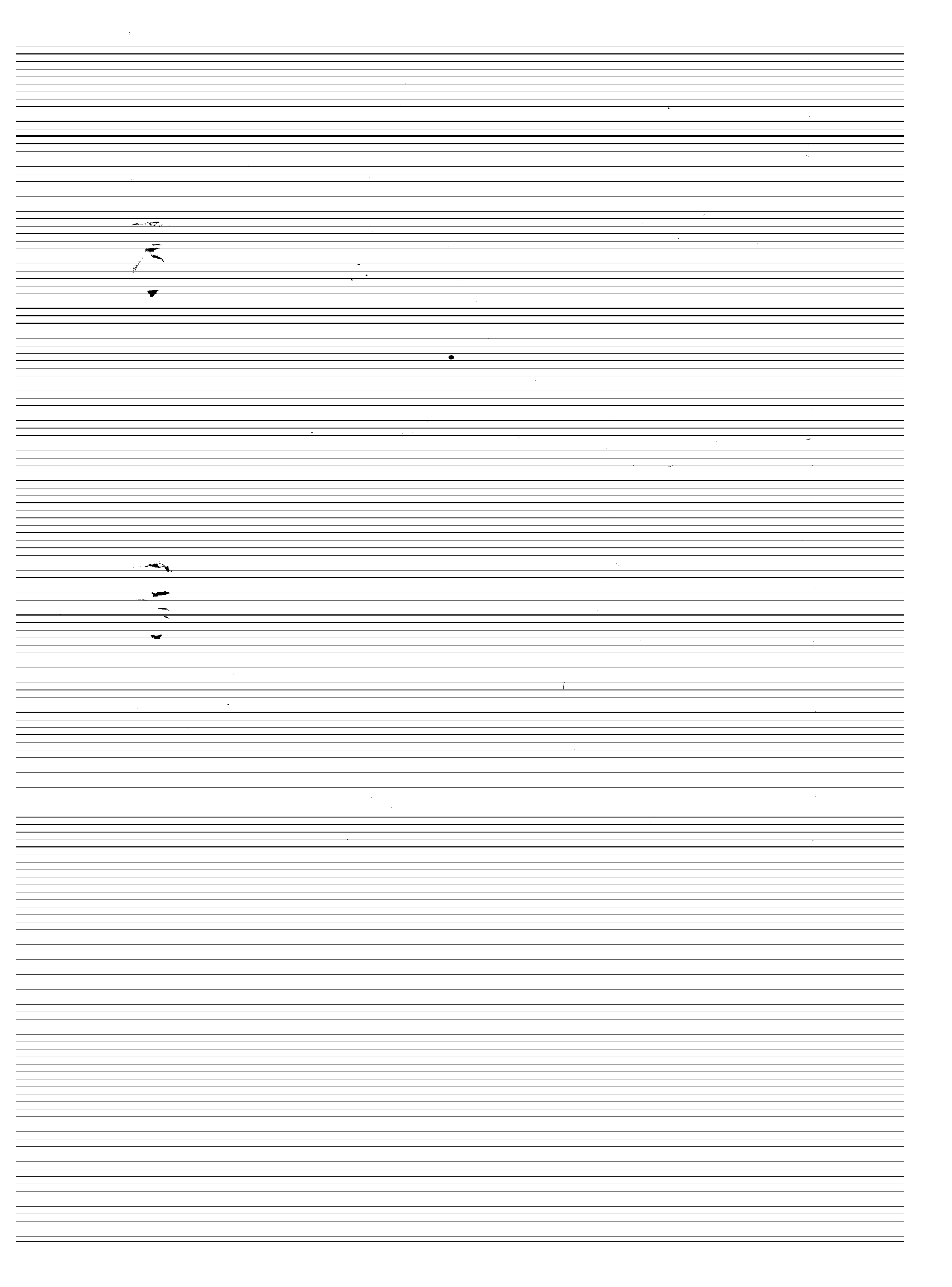
أ.د / محمد مصطفى الشناوي
أستاذ العقيدة والفلسفة

أ.د / عبد الحميد عبد اللاه عبد الرحمن
أستاذ م العقيدة والفلسفة

د / نظير محمد عياد
مدرس العقيدة والفلسفة




بسم الله الرحمن الرحيم



الفصل الأول

مقدمات في علم الكلام

المبحث الأول : تعريف علم العقيدة

(١) معنى العقيدة فى اللغة :-

العقيدة من عقد بمعنى معقود من عقد الحبل والبيـع والعهد يعقده شده ، والعقد العهد . (١)

فكأن العقيدة هى العهد المشدود والعروة الوثقى وذلك لرسـوخها واستقرارها فى القلب .

والاعتقاد مصدر اعتقد كذا إذا اتخذه عقيدة لـه بمعنى عقد عليه لا ضمير والقبي ودان الله به ، وأصله من عقد الحبل ، ثم استعمل فى التصميـم والاعتقاد الجازم . (٢)

والعقيدة هى الأمر تصدق به النفس ويطمئن إليه القلب ويكون يقينًا عند صاحبه لا يمازجه شك ولا يخالطه ريب ، يقول الله تعالى " لا يؤاخذكم الله باللغو فى إيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقد تم الأيمان ." (٣)

قال الواحدى : " يقال عقد فلان اليمين والعهد والحبل عقدا إذا وكده وأحكمه ومثل ذلك أيضا عقد بالتشديد إذا وكد، ومثله أيضا عاقد بالألف ." (٤)

وقيل هى الإيمان بحقيقة معينة إيمانا قطعيًا لا يقبل الشك ، وقيل عقيدة الإنسان مذهبه أى ما يؤمن به ويراه عن اقتناع قلبى أكيد ، وقيل العقيدة

١- القاموس المحيط جـ١٠صـ١٥ .
٢ - شرح العقيدة الواسطية صـ١٣ لشيخ الاسم ابن تيمية ١ تحقيق د ؟ هراس .
٣ - سورة المائدة آية ٨٩ .
٤ - التفسير الكبير للرازى جـ١١ م٦ صـ١٢١ الناشر دار الغد العربى .



مرادفة للإيمان ، وقد تكون عقيدة دينية معتقدها بأفكار معينة تتصل بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، وقد تكون عقيدة سياسية أو اقتصادية .

والعقيدة هي الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده وفي الدين ما يقصده به الاعتقاد دون العمل ، كعقيدة وجود الله وبعثة الرسل . (1)

(٢) العقيدة في الاصطلاح :-

والعقيدة وفي الاصطلاح : هي مجموعة من قضايا الحق البرهية المسلمة بالعقل والسمع والفطرة ، يعقد عليها الإنسان قلبه ، ويثني عليها صدره جازما بصحتها ، قاطعا بوجودها وثبوتها ، لا يرى خلافها أنه يصح أن يكون أبدا . وذلك كاعتقاد الإنسان بوجود خالقه وعلمه به ، وقدرته عليه ولقائه به ، بعد موته ونهاية حياته ، ومجازاته إياه على كسبه الاختياري وكاعتقاده بوجوب طاعته فيما بلغه من أوامره ونواهيه من طريق كتبه ورسله طاعة تزكو بها نفسه وتتهذب بها مشاعره وتكمل بها أخلاقه وتنظم بها علاقته بين الخلق والحياة .

وكاعتقاده يغنى ربه تعالى عنه وافتقاره هو إليه ، وفي كل شأنه حتى في أنفاسه التي يرددها فبالله تعالى حياته ، وعليه وحده توكله واعتماده ، إذ هو محط رجائه إذا طمع، ومأمن خوفه إذا خاف بحبه يحب وببغضه يبغض . هو مولاه الذي لا مولى له غيره ، ومعبوده الذي لا معبود له سواه لا يرى ربوبية غيره ، ولا يعتقد ألوهية سواه . (2)

١-المعجم الوسيط جـ٢ صـ٦١٤ .
٢- عقيدة المؤمن صـ٢٣ ، أبو بكر جابر الجزائري دار الفكر العربي .

أسماء علم العقيدة

١- علم التوحيد :-

سمى علم العقيدة بأسماء متعددة سمى علم التوحيد : لأن التوحيد أشهر مباحثه وأنبل مقاصده ، وهو الأساس الذى بنى عليه دين الإسلام ، بل هو الأساس المشترك لجميع الرسالات السماوية والأديان الصحيحة الحقة التى أرسل الله تعالى بها رسله إلى جميع خلقه . قال تعالى لرسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه " وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا اجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون " (١)

ويقول تعالى " وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ." (٢)

فالتعريف بالله وتنزيهه عن النقص ، ومعرفة الطريق إليه ووصفه بالكمال المطلق من أفضل ما ينبغى أن يتعلمه الإنسان بل هو أول ما ينبغى أن يتعلمه .

ونظرا لأهمية هذا الموضوع وهو التوحيد أطلق على هذا العلم هذه التسمية ولهذا يميل كثير من العلماء فقد صنف الشيخ محمد عبده كتابا فى هذا العلم أسماه " رسالة التوحيد " ، وألف الشيخ جمال الدين القاسى كتابا فى هذا العلم تحت عنوان " دلائل التوحيد " .

ويرى عبد الحكيم السيالكونى أن تسمية هذا العلم بعلم التوحيد والصفات أولى من تسمية بعلم الكلام . (٣)

---

١ - سورة الزخرف آية ٤٥ .
٢ - سورة الأنبياء آية ٢٥ .
٣ - حاشية السيالكونى على الخيالى صـ٢١ دار معادلات .

ويقول التفتازانى فى شرح العقائد النسفية " العلم المتعلق بالأحكام الاعتقادية هو علم التوحيد والصفات ، لما أن ذلك أشهر مباحثه وأشرف مقاصده ." (١)

وقال الشيخ محمد عبده " أصل التوحيد اعتقاد أن الله واحد لا شريك له وسمى هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه ، وهو إثبات الوحدة لله فى الذات والفعل فى خلق الأكوان وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد ، وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبى صلى الله عليه وسلم . " (٢)

٢- علم الكلام :-

وقد سمى هذا العلم أيضا بعلم الكلام : وقد اختلف العلماء فى علة هذه التسمية : يذكر صاحب المواقف أن هذا العلم سمى بعلم الكلام لأن أبوابه عنونت أولا بالكلام فى كذا . أو لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه حتى كثر فيه التناحر والسفك فغلب عليه، أو لأنه يورث القدرة على الكلام فى الشرعيات . ومع الخصم . (٣) .

وفى شرح المواقف لأن أبوابه عنونت أولا فى كتب المتقدمين بالكلام فى كذا فبعد تغير العنوان بقى ذلك الاسم بحاله . (٤)

وقد أشار التفتازانى إلى ذلك فى كتابه شرح المقاصد ، فذكر أن الأكثرين من أرباب النظر والاستدلال قد خصوا الاعتقادات بعلم الكلام لأن مباحثه كانت مصدره بقولهم الكلام فى كذا وكذا . ولأن أشهر الاختلافات فيه كانت مسألة كلام الله تعالى أنه قديم أو حادث ، ولأنه يورث قدرة على الكلام فى تحقيق الشرعيات كالمنطق فى الفلسفيات ولأنه كثر فيه من الكلام مع

١- شرح العقائد لنفسية صـ١٠ مكتبة الكليات الأزهرية . تحقيق د. أحمد السقا .
٢ - رسالة التوحيد صـ٤ .
٣ - المواقف صـ٩ مكتبة المتنبى بالقاهرة .
٤ - شرح المواقف جـ١ صـ٦٠ .

المخالفين والرد عليهم ما لم يكثر في غيره ولأنه لقوه أدلته صار كأنه هو الكلام دون ما عداه كما يقال للأقوى من الكلامين هذا هو الكلام ، واعتبروا في أدلتها اليقين لأنه لا عبرة بالظن في الاعتقادات . بل في العمليات . [١]

معنى ذلك أن المتكلمين أرادوا مقابلة علم الكلام بالمنطق فكما أن الأخير يمكن الفيلسوف من الاستدلال يورث من يمارسه قدرة على الكلام ولذا خصه المتكلمون بهذا الاسم ، ويذكر لفظ " كلم" كثيرا بمعنى جادل أو ناظر . [٢]

ويذكر صاحب المواقف أن هذا العلم إنما سمى كلاما لأنه بازاء المنطق للفلاسفة . [٣]

ويعنى بذلك أن للفلاسفة علما نافعا في علومهم سموه بالمنطق ، ويقول " ولنا أيضا علم نافع في علومنا سميناه في مقابلته بالكلام ، إلا أن نفع المنطق في علومهم بطريق الآلية والخدمة ، ومن ثم يسمى خادم العلوم وآلتها وربما يسمى رئيسها نظرا إلى تحكمه فيها . أما نفع الكلام في علومنا بطريق الإحسان والمرحمة فلا يسمى حينئذ إلا رئيسا لها . " [٤]

وقد أشار الإمام محمد عبده إلى هذا فذكر أن من أسباب تسمية بعلم الكلام أنه في بيان طرق الاستدلال على أصول الدين بالمنطق في تنبيه مسالك الحجة في علوم أهل النظر وأبدل المنطق بالكلام للتفرقة بينهما . [٥]

ويبين لشيخ مصطفى عبد الرازق أن البحث في أمور العقائد كان يسمى كلامًا قبل تدوين هذا العلم وكان أهل هذا البحث يسمون متكلمين فلما دونت الدواوين وألفت الكتب في هذه المسائل أطلق على هذا العلم المدون ما

---

١ - شرح المقاصد جـ١ صـ٥ للامام سعد الدين التفتازاني .
٢ - في علم الكلام جـ١ للدكتور أحمد صبحي صـ٥ الطبعة الرابعة مؤسسة الثقافة الجامعية ١٩٨٢ .
٣- المواقف جـ١ صـ٨ .
٤- شرح المواقف جـ١ صـ .
٥- رسالة التوحيد صـ٥ .

كان لقبا لهذه الأبحاث قبل تدوينها وعلما على المعترضين لها . وإنما سمى البحث فى الشئون الاعتقادية كلاما وسمى أهله متكلمين لأحد وجهين :-

الوجه الأول : الكلام ضد السكوت ، والمتكلمون كانوا يقولون حيث ينبغى الصمت اقتداء بالصحابة والتابعين الذين سكتوا عن المسائل الاعتقادية لا يخوضون فيها ويؤخذ هذا مما رواه الهروى عن الإمام مالك قال إياكم والبدع قيل يا عبد الله وما البدع ؟ قال أهل البدع الذين يتكلمون فى أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان . (١)

الوجه الثانى : الكلام مقابل الفعل : كما يقال فلان قوال لا فعال والمتكلمون قوم يقولون فى أمور ليس تحتها عمل ، فكلامهم نظرى لفظى لا يتعلق به فعل بخلاف الفقهاء لباحثين فى الأحكام الشرعية العملية ، وعلم الكلام يبحث فيما يتصل بالعقائد التى هى شئون غير عملية وود تسمية هذا العلم بالكلام إلى أحد هذين الوجهين . (٢)

وقد أخذت هذه التسمية شهرة دون غيرها وبصفة خاصة فى القرن الثانى الهجرى ، وقد ذكر الشهرستانى أن مصطلح " الكلام" أصبح مصطلحا فينا فى عهد المأمون الذى تولى الخلافة فى سنة ١٩٨هـ يقول الشهرستانى " ثم طالع شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حيث نشرت أيام المأمون فخلطت مناهجها بمناهج الكلام وأفردتها فنا من فنون العلم وسمتها باسم الكلام ." (٣)

ويرى بعض الباحثين أن السبب فى تسمية هذا العلم بعلم الكلام أنه يتألف من براهين علم العقائد الدينية وهذا كلام نظرى بحت وجهد عقلى لا يتعلق به فعل على خلاف الفقه الذى يبحث فى أحكام عملية كالعبادات

١- تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية صـ٢٦٥-٢٦٦ .
٢ - المصدر السابق صـ٢٦٨ .
٣ - الملل والنحل للشهرستانى جـ١ صـ٣٦ تحقيق د/ بدران .

والمعاملات وغيرها مما يتعلق بأفعال مكلفين ومن هنا فالمتكلمون يبحثوا في أمور ليس تحتها عمل . وقيل إن المتكلمين في هذا العلم تكلموا في مسائل سكت عنها المتقدمون من الصحابة في تأويل المتشابه والكلام في صفاته تعالى والكلام في القدر والاستواء وغير ذلك مما وردت الآثار المروية عن النبى صلى الله عليه وسلم بالنهى عنه . (١)

٣- علم الفقه الأكبر :-

كان أول من أطلق اصطلاح الفقه الأكبر على هذا العلم هو الإمام أبو حنيفة النعمان تمييزا له عن الفقه الذى يبحث في فروع الشريعة ، يقول الإمام أبو حنيفة " اعلم أن الفقه فى أصول الدين أفضل من الفقه فى فروع الأحكام والفقه هو معرفة النفس ما يصح لها من الاعتقادات والعمليات وما يجب عليه منهما وما يتعلق منها بالاعتقادات هو الفقه الأكبر ." (٢)

ويذكر سعد الدين التفتازانى أن الأحكام المنسوبة إلى الشرع منها ما يتعلق بالعمل وتسمى فرعيه وعملية ، ومنها ما يتعلق بالاعتقاد وتسمى أصلية واعتقاديه ، وكانت الأوائل من العلماء ببركة صحبة النبى صلى الله عليه وسلم وقرب العهد بزمانه وسماع الأخبار منه ومشاهدة الآثار مع قلة الوقائع والاختلافات وسهولة المراجعة إلى الثقات ، مستغنين عن تدوين الأحكام وترتيبها أبوابا وفصولا إلى أن ظهر اختلاف الآراء والميل إلى البدع والأهواء ، وكثرت الفتاوى والواقعات ، ومست الحاجة فيها إلى زيادة نظر والتفات ، فأخذ أرباب النظر والاستدلال فى استنباط الأحكام وبذلوا جهدهم فى تحقيق عقائد الإسلام وأقبلوا على تمهيد أصولها وقوانينها وتلخيص

---

١ تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية صـ٢٦٨ للشيخ مصطفى عبد الرازق .
٢ - اشارات المرام من عبادات الامام للعلاقة كمال الدين أحمد البياضى صـ٢٨-٣٠ .

حججها وبراهينها وتدوين المسائل بأدلتها والشبه بأجوبتها وسموا العلم بها فقها وخصوا الاعتقادات باسم الفقه الأكبر . (١)

معنى ذلك أن تسمية علم العقيدة بالفقه الأكبر يرجع إلى تمييز مباحثه عن مباحث الفقه العملية والتى تسمى بالفقه الأصغر فكلاهما علم أصول إلا أن علم الكلام يؤسس النظر ، بينما الفقه يؤسس العمل ومعنى الفقه هو العلم وعلم الكلام هو العلم الأكبر لأنه يكون الإيمان وهو أصل العمل والطاعة فيكون الفقه إذن فرعا لهذا الأصل فيسمى بالفقه الأصغر . (٢)

٤- علم أصول الدين :-

وهذه التسمية راجعة أساسًا إلى أن الدين فيه أصول وفروع فالأصول هى الأحكام الاعتقادية كالإيمان بالله ورسله والكتب السماوية والملائكة واليوم الآخر وهذه الأصول هى وحى من الله تعالى إلى جميع أنبيائه وهى لا تتبدل بالنسخ ولا بإرسال الرسل أما الفروع فهى الشرائع العملية المترتبة على هذه الأصول ، وهذه الشرائع متفاوتة بين الأنبياء ، ولما كان علم الكلام خاصًا بدراسة الجانب العقائدى سمى علم أصول الدين وقد استخدم هذا الأمام أبو الحسن الأشعرى فى كتابه المشهور " **الإبانة عن أصول الديانة** " والبدوي فى كتابه "أصول الدين " وفخر الدين الرازى فى كتابه"الأربعين فى أصول الدين " وابن المطهر الحلى فى كتابه"مناهج اليقين فى أول الدين." (٣)

معنى ذلك أن دور علم الكلام يتمثل فى الاستدلال على هذه الأصول وهى العقائد الإيمانية بالاستدلالات العقلية.

١- المقاصد جـ١ صـ٥ .
٢- شرح الفقه الأكبر صـ١٦ دار الكتب العلمية .
٣-مدخل إلى علم الكلام صـ١٠ د/ محمد الأنور .

وقد جاء فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى عن بعض المتكلمين قولهم " الأصول معرفة البارى تعالى بوحدانيته وصفاته ومعرفة الرسل بآياتهم وبيناتهم .

بالجملة كل مسألة يتعين الحق فيها بين المتخاصمين فهى من الأصول ومن المعلوم أن الدين إذا كان منقسما إلى معرفة وطاعة والمعرفة أصل والطاعة فرع فمن تكلم فى المعرفة والتوحيد كان أصوليا ومن تكلم فى الطاعة والشريعة كان فروعيا فالأصول : هى موضوع علم الكلام والفروع هى موضوع علم الفقه .

وقال بعض العقلاء كل ما هو معقول ويتوصل إليه بالنظر والاستدلال فهو من الأصول وكل ما هو مظنون ويتوصل إليه بالقياس والاجتهاد فهو من الفروع ." (١)

٥- علم النظر والاستدلال :-

يبين الدكتور محمد يوسف موسى فى تعليقه على مادة التوحيد فى دائرة المعارف الإسلامية أن هذا العلم قد سمى بأسماء متعددة منها أصول الدين ، والفقه الأكبر ، وعلم النظر والاستدلال .

وقد أشار إلى ذلك التفتازانى حيث قال " مست الحاجة فيها إلى زيادة نظر والتفتات فأخذ أرباب النظر والاستدلال فى استنباط الأحكام وبذلوا جهودهم فى تحقيق عقائد الإسلام ." (٢)

والنظر هو الفكر فى الأشياء أى ترتيب المعلومات السابقة فى الذهن للتوصل منها إلى المطالب المجهولة .

وقد أشار التفتازانى إلى ذلك أيضا عندما قال فى شرح المقاصد عن المقصد الأول " رتبه على ثلاثة فصول لأن المبادئ منها ما رأوا تصدير كل

١- الملل والنحل جـ١ صـ٤٧ تحقيق د/ محمد بن فتح الله بدران
٢ - شرح المقاصد جـ١ صـ٥

علم بها كمعرفة حده وموضوعه وغايته ونحو ذلك فسماها بالمقدمات وجعلها في فصل ومنها ما صدروا بها علم الكلام خاصة كمباحث العلم والنظر لأن تحصيل العقائد بطريق النظر والاستدلال والرد على منكري حصول العلم أصلاً واستفادته من النظر مطلقا أو في الإلهيات خاصة يتوقف على ذلك وليس في العلوم الإسلامية ما هو أليق ببيانه فجعلها في فصلين ." (١)

٦- علم العقيدة :-

وأحيانا يسمى هذا العلم بعلم العقيدة لأنه يبحث في العقيدة الدينية سواء منها ما يتصل بالألوهية أو بالرسل والرسالة والمعجزة وإمكانها أو باليوم الآخر . هذا وتصل أسماؤه إلى قرابة العشرة اكتفينا منها بهذا القدر بغية التيسير .

وعل السر في تعدد الأسماء هو شرف كل مسألة من مسائله على حده ، وكأن كل واحدة منها تصلح علما بذاتها على هذا العلم أو لأن أصحابه وأربابه أرادوا لفت الأنظار إليه فاستخدموا كثيرا من الأسماء من باب العناية والاهتمام وإثارة الرغبة في دراسته والتحمس له خاصة وأن النظرة الأولى من القارئ تحمل إليه إكبار لهذا الفن لما له من صلة وثيقة بأساس التدين وهو العقيدة . (٢)

علاقة علم الكلام بالفلسفة

موضوع علم الكلام يتعلق بذات الله تعالى وذات رسله من حيث ما يجب وما يستحيل وما يجوز والسمعيات من حيث اعتقادها . فحواه إفراد

---

١ - شرح المقاصد جـ١ صـ٤ .
٢- الألوهية في الفكر الاسلامي د/ عبد الله الشاذلي صـ٨ .

المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته والتصديق بها ذاتا وصفات وأفعالا وذلك بالبراهين القطعية . [١]

وهو علم يقتدر به الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التى صرح بها واضع الملة . [٢]

ويشير ابن خلدون إلى وظيفة علم الكلام فيقول " هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد [٣]

ومن هنا تأخذ الفلسفة اتجاها يبعد عن اتجاه علم الكلام . إذ أن الفلسفة تبحث فى أمور العقل وعلم الكلام يدرس المسائل العقدية .

وقد نقد ابن مسائل علم الكلام هى عقائد متلقاة من الشريعة ومنقولة عن السلف دون رجوع إلى العقل لإثبات سلطانها فالعقل معزول عن الشرع ثم يبين ابن خلدون جوانب استدلال المتكلم والفيلسوف فيقول : " ان المتكلمين يستدلون بالكائنات على وجود البارى وصفاته .

والفيلسوف ينظر إلى الجسم الطبيعي من حيث أنه يتحرك ويسكن والمتكلم ينظر فيه من حيث أنه يدل على الفاعل ، والفيلسوف ينظر فى الإلهيات من ناحية الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته والمتكلم ينظر فى الوجود من حيث أنه يدل على الموجود ." [٤]

وعلى ذلك فيمكن القول بأن ما يذكره المتكلم من إقامة الحجج فليس بحثا عن الحقيقة فيها لأن التعليل بالدليل هو شأن الفلسفة وعمل المتكلم هو

١- شرح جوهرة التوحيد صـ٢٠ .
٢ - احصاء العلوم للفارابى تحقيق د / عثمان أمين صـ١٠٧
٣ - مقدمة ابن خلدون صـ٤٢٣ ..
٤ - المصدر السابق صـ٤٣٠ .

محاولة التماس حجة عقلية تقصد عقائد الإيمان ومذاهب السلف فيها وتدفع شبه أهل البدع وذلك بعد فرض صحتها بالأدلة النقلية .

وشتان بين الاتجاهين : فعلم التوحيد يعضد عقائد السلف بالحجة العقلية بعد ثبوت صحتها بالدليل النقلى . والفلسفة تثبت تعليل الدليل بعد أن لم يكن معلوما والبون شاتع بين النظرتين .

وفوق ذلك فإن ابن خلدون يرى أن " مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الأنظار العقلية فهى فوقها ومحيطة بها لاستمدادها من الأنوار الإلهية فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف . . . فإذا هدانا الشارع إلى مدارك فينبغى أن تقدمه ولو عارضه بل نعتمد ما أمرنا به اعتقادا وعلما ونسكت عما لم نفهمهم من ذلك ونفوضه إلى الشارع .

المبحث الثانى : تعريف علم التوحيد

التوحيد فى اللغة : هو العلم بأن الشيء واحد . [1]

وجاء فى المعجم الوسيط " وحد يحد حدة ، ووحد ، ووحده انفرد بنفسه ، ووحد الله سبحانه أقر وآمن بأنه واحد ، وتوحد الله بربوبيته وجلاله وعظمته تفرد بها . والأحد يكون مرادفا لواحد فى موضعين أحدهما : وصف اسم البارى تعالى ، فيقال هو الواحد ، وهو الأحد لاختصاصه بالأحدية فلا يشاركه فيها غيره ، ولهذا لا ينعت به غير الله تعالى ، فلا يقال رجل أحد ولا درهم أحد ، والموضع الثانى : أسماء العدد للغلبة وكثرة الاستعمال ، فيقال : أحد وعشرون ، وواحد وعشرون ، وفى غير هذين الموضعين يقع الفرق بينهما فى الاستعمال[2] .

وعلى هذا نرى أن مادة " وحد " تدور حول انفراد الشيء بذاته أو بصفاته أو بأفعاله ، وعدم وجود نظير له فيما هو واحد فيه .

وإذا عدى بالتضعيف فقيل وحد الشيء توحيدا كان معناه إما جعله واحدا أو اعتقده واحدا ، قال تعالى حكاية عن المشركين " أجعل الآلهة إلها واحدا " [3]

فتوحيد الله معناه اعتقاد عدم الشريك فى الألوهية وخواصها ونفى المثيل والنظير عنه والتوجه إليه وحده بالعبادة . وإذا قيل الله واحد أو أحد كان معنى ذلك انفراده بما له من ذات وصفات وعدم مشاركة غيره له ، فهو واحد

---

١ - شرح البيجورى على الجوهرة صـ١٩ لشيخ الإسلام ابراهيم البيجورى طبعة المعاهد الأزهرية ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م .
٢- المعجم الوسيط جـ٢ صـ١٠١٦ .
٣ - سورة ص آيه رقم : ٥

فى ألهيته فلا إله غيره وواحد فى ربوبيته فلا رب سواه وواحد فى كل ما ثبت له من صفات الكمال التى لا تنبغى إلا له . (١)

التوحيد فى الاصطلاح :-

والتوحيد فى اصطلاح علمائه وعلى ألسنة مؤلفيه الذين يقصدون الفن المدون عندهم والمودع بطون كتبهم هو"علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية المكتسب من أدلتها اليقينية ". (٢)

وعرفه صاحب المقاصد بقوله " إنه العلم بالقواعد الشرعية الاعتقادية المكتسب من أدلتها اليقينية " . (٣)

ثم فصل القول فى شرح العقائد النسفية فقال " اعلم أن الأحكام الشرعية منها ما يتعلق بكيفية العمل وتسمى فرعية وعملية ، ومنها ما يتعلق بالاعتقاد وتسمى أصلية واعتقادية ، والعلم المتعلق بالأولى يسمى علم الشرائع والأحكام ولا يسبق الفهم عند إطلاق الأحكام إلا إليها ، وبالثانية علم التوحيد والصفات ... " (٤)

وعرف الإيجى علم الكلام بأنه " علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل ، وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد صلى الله عليه وسلم فإن الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام " . (٥)

وقد شرح صاحب المقاصد تعريف الإيجى بقوله " ومعنى إثبات العقائد هو تحصيلها واكتسابها بحيث يحصل الترقى من التقليد إلى التحقيق أو

---

١ - د/ محمد خليل هراس دعوة التوحيد صـ٨ نشر مكتبه الصحابة .
٢ - شرح البيجورى على جوهرة التوحيد صـ١٩ .
٣- شرح المقاصد جـ١ صـ٥ .
٤- شرح العقائد النسفية صـ١٠ تحقيق د/ أحمد حجازى السقا الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م .
٥ - شرح المواقف جـ١ صـ٣٤ وما بعدها . مطبعة السعادة بمصر ٥ ، ١٣ هـ .

إيراد إثباتها على الغير بحيث يتمكن من إلزام المعاندين وإتقانها وإحكامها بحيث لا تزلزلها شبه المبطلين . وعدل عن يقتدر به إلى يقتدر معه مبالغة فى نفى الأسباب وإسناد الكل إلى خلق الله تعالى ابتداء على ما هو المذهب ، والمراد أنه يحصل معه الاقتدار البتة بطريق جرى العادة أى يلزمه حصول الاقتدار لزوما عاديا ولو قال يقتدر به وأراد الإستعقاب العادى كما فى إثبات العقائد بإيراد الحجج على ما هو المذهب فى حصول النتيجة عقيب النظر لم يحتج إلى شئ من ذلك " . (١)

وفى مقدمة ابن خلدون " هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة . وسرهذه العقائد الإيمانية هو التوحيد" . (٢)

ويعرف الإمام محمد عبده علم التوحيد بأنه " علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفات ، وما يجوز أن يوصف به ، وما يجب أن ينفى عنه ، وعن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه . وما يجوز أن ينسب إليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم " (٣)

ويقول الشيخ مصطفى عبد الرازق (ت ١٩٤٧م) عن علم التوحيد " وجملة القول أن المتكلمين متفقون على أن علم الكلام يعتمد على النظر العقلى فى أمر العقائد الدينية ثم هم يختلفون فى أن الكلام يثبت العقائد الدينية ثم هم يختلفون فى أن الكلام يثبت العقائد الدينية بالبراهين العقلية كما يدافع عنها أو هو إنما يدفع الشبه عن العقائد الإيمانية الثابتة بالكتاب والسنة . وهذا الخلاف يرجع إلى الخلاف فى أن العقائد الإيمانية ثابتة بالشرع ، وإنما يفهمها العقل

---

١ - شرح المقاصد جـ١ صـ٥ ، ٦ .
٢ - مقدمة ابن خلدون صـ٣ ، ٤ .
٣-رسالة التوحيد للامام محمد عبده صـ٤ الطبعة السابعة عشره دار المنار سنة ١٣٨٦هـ

عن الشرع ويلتمس بعد ذلك البراهين النظرية أو هى ثابتة بالعقل على معنى أن النصوص الدينية قررت العقائد الدينية بأدلتها العقلية . " (١)

وقد أشار الإمام الرازى إلى ذلك قائلا " إن الآيات الواردة فى الأحكام الشرعية أقل من ستمائة آية وأما البواقى ففى بيان التوحيد والنبوة والرد على عبدة الأوثان وأصناف المشركين " . (٢)

وبنظرة تأملية فى التعريفات السابقة نرى بينها قدرا مشتركا وهو إثبات العقائد الدينية بالأدلة اليقينية . ويبرز تعريف الإيجى وابن خلدون مهمة أخرى لعلم الكلام وهى دفع الآراء المنحرفة عن مذاهب السلف وأهل السنة ورد شبههم وتزييف أقاويلهم المخالفة لما جاء به الإسلام من العقائد التى وضحها القرآن الكريم وبينتها السنة الشريفة . ثم يحدد تعريف الإمام محمد عبده ما يجب لله من إثبات الصفات ، ووجوب ما ينفى عنه تعالى من صفات ، وما يجوز إثباته لله من صفات . وعن الرسل وما يجب لهم وما يستحيل فى حقهم من صفات غير لائقة بمنزلتهم العالية عند الله تعالى . وعند الموازنة بين التعريفات نجد تعريف ابن خلدون هو أدق التعريفات وذلك لأنه تعريف جامع مانع حيث يحدد بدقة موضوع علم الكلام والغرض منه .

---

١ - تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية صـ٢٦٤ مكتبة النهضة المصرية .
٢-مفاتيح الغيب للرازى جـ٨ المجلد الأول صـ٤٧٣ دار الغد العربى ١٩٩١م ١٤١٢هـ .

المبحث الثالث في موضوع علم الكلام

وأما عن موضوع علم الكلام فيقول التفتازانى " وموضوعه المعلوم من حيث يتعلق به إثباتها ، ومسائله القضايا النظرية الشرعية الاعتقادية والمتقدمون على أن موضوعه الموجود من حيث هو موجود وقيل موضوعه ذات الله وحده أو مع ذات الممكنات من حيث استنادها إليه لما أنه يبحث عن ذلك ، ولهذا يعرف بالعلم الباحث عن أحوال الصانع من صفاته الثبوتية والسلبية وأفعاله المتعلقة بأمر الدنيا والآخرة أو عن أحوال الواجب وأحوال الممكنات في المبدأ والمعاد على قانون الإسلام . . . " (١)

ويقول صاحب الجوهرة " وموضوعه ذات الله تعالى من حيث ما يجب له وما يستحيل وما يجوز ، وذات الرسل كذلك والممكن من حيث إنه يتوصل به إلى وجود صانعه والسمعيات من حيث اعتقادها . " (٢)

ويقول عضد الدين الايجى بأن موضوع علم الكلام : هو " المعلوم من حيث أنه يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقا قريبا أو بعيدا . وذلك لأن مسائل هذا العلم : إما عقائد دينية كإثبات القدم والوحدة للصانع ، وإما قضايا تتوقف عليها تلك العقائد ، كتركيب الأجسام من الجواهر الفرده ، وجواز الخلاء ، وانتفاء الحال وعدم تمايز المعدومات المحتاج إليها فى المعاد وكون صفاته تعالى متعددة موجودة فى ذاته .

والشامل لموضوعات هذه المسائل هو المعلوم المتناول للموجود والمعدوم المتناول للموجود والمعدوم والحال . فإن الحكم على المعلوم بما هو

١- المقاصد جـ١ صـ٨ ، ٩ .
٢ - شرح البيجورى على الجوهرة المسمى تحفة المريد على جوهرة التوحيد صـ٢٠ .

من العقائد تعلق به إثباتها تعلقا قريبا وإن حكم عليه بما هو وسيلة إليها تعلق به إثباتها تعلقا بعيدا ، وللبعد مراتب متفاوتة .

وقد يقال المعلوم من الحيثية المذكورة يتناول محمولات مسائله أيضا فأولى أن يقال من حيث يثبت له ما هو من العقائد أو وسيلة إليها .

وقال القاضي الأرموي : موضوعه ذات الله تعالى : إذ يبحث فيه عن عوارضه الذاتية التي هي صفات الثبوتية والسلبية ومن أفعاله إما في الدنيا كحدوث العالم ، وإما في الآخرة كالحشر وعن أحكامه فيها كبعث الرسل ونصب الإمام في الدنيا من حيث أنهما واجبان عليه تعالى أولا والثواب والعقاب في الآخرة من حيث أنهما يجبان عليه أم لا . (١)

ثم بين صاحب المواقف أن كلام القاضي الأرموي فيه نظر من وجهين :

الأول : أنه قد يبحث فيه عن غيرها كالجواهر والأعراض لا من حيث هي مستندة إليه تعالى لا يقال ذلك على سبيل المبدئية لأنا نقول ليس ذلك من الأمور البينة بذاتها فلابد من بيانه في علم فإن بين في هذا العلم فهو من مسائله فوجب أن يكون راجعًا إلى أحوال موضوعه وليس كذلك كما عرفت .

ولا شبهة في جواز كون بعض مسائل علم مبدأ لسائل أخرى منه إذا لم تتوقف الأولى على الأخرى فتكون مسائلة من جهة ومبدأ من جهة أخرى وإن بين في علم آخر كان ثمة علم أعلى من علم الكلام تبين فيه مباديه ويكون علما شرعيا ، إذ لا يجوز أن يبين مباديه في علم أعلى غير شرعي وإلا لاحتاج رئيس العلوم الشرعية على الإطلاق إلى علم أعلى غير شرعي وأنه أي ثبوت علم شرعي أعلى من علم الكلام باطل اتفاقا

الثاني : إن موضوع العلم لا يبين فيه وجوده فيلزم إذا كان موضوع علم الكلام ذاته تعالى إما كون إثبات الصانع بينا بذاته فلا يحتاج إلى

١- شرح المواقف جـ١ صـ٤٠ وما بعدها .

بيان أصلاً أو كونه مبينًا فى علم أعلى سواء كان شرعيا أو لا فإن بيان وجود الموضوع إنما يجوز فى الأعلى الذى هو أعم موضوعا دون الأدنى لأن الأخص يثبت فى الأعم بانقسامه إليه وإلى غيره دون العكس ، والقسمان يعنى كون إثباته تعالى بينا بذاته وكونه مبينا فى علم أعلى من الكلام باطلان . (١)

وهكذا نجد الإيجى يوضح أن موضوعات علم الكلام تدور حول الذات الإلهية وما يتعلق بها من صفات ذات وصفات أفعال فى الدنيا كخلق العالم وما يتفرع عليه من البحث فى الجواهر والأعراض لبيان حدوث العالم وخلقه وأفعاله فى الآخرة كالبعث والاستدلال عليه والثواب والعقاب .

وهذه الموضوعات تمثل البحث فى أمهات المسائل الميتافيزيقية الفلسفية غير أن البحث فيها فى علم الكلام يكون كما قال الإيجى " على مقتضى قانون الإسلام أى على مقتضى ما جاء به القرآن الكريم والسنة الصحيحة لا على مقتضى العقل المحض فيكون دور العقل دور المستدل عليها لا المنشئ لها . (٢)

وبهذا نتبين أن موضوع علم الكلام يتناول البحث فى ذات الله تعالى وذات رسله من حيث ما يجب وما يستحيل ، وما يجوز وفى الممكن من حيث أنه يستدل به على وجود صانعه ، وفى السمعيات من حيث اعتقادها ، ومن هنا فقضاياه محصورة فى البحث عن الواجبات والجائزات والمستحيلات (واثبات الوحدة لله فى الذات والفعل فى خلق الأكوان وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد) . (٣)

---

١ - المصدر نفسه جـ١ صـ٤٣ وما بعدها .
٢- شرح المواقف جـ١ صـ٤٧ .
٣ - رسالة التوحيد صـ٤ .

المبحث الرابع في : فضل علم الكلام وشرفه

يقول البيجوري " وفضله أنه أشرف العلوم لكونه متعلقًا بذاته تعالى وذات رسله وما يتبع ذلك ، والمتعلق بكسر اللام يشرف بشرف المتعلق بفتحها " . (١)

ويرجع شرف هذا العلم أيضا إلى أنه يدرس أصول الدين التي تبنى عليها أحكامه ونظمه وآدابه ، يقول الشيخ البيجوري " ونسبته أنه أصل العلوم الدينية وما سواه فرع " . وما أحسن قول القائل :

أيها المقتدى لتطلب علمًا ... كل علم عبد لعلم الكلام

تطلب الفقه كي تصحح حكما ... ثم أغفلت منزل الأحكام (٢)

وقد بين الإمام الرازي فضل علم الكلام فقال : المقام الأول في بيان فضل هذا العلم وهو من وجوه :-

أحدهما : أن شرف العلم بشرف المعلوم فمهما كان المعلوم أشرف كان للعلم الحاصل به أشرف ، فلما كان شرف المعلومات ذات الله تعالى وصفاته ، وجب أن يكون العلم المتعلق به أشرف العلوم .

وثانيها : أن العلم إما أن يكون دينيا أو غير ديني ، ولا شك أن العلم الديني أشرف من غير الديني ، وأما العلم الديني فإما أن يكون هو علم الأصول أو ماعداه ، أما ما عداه ، فإنه تتوقف صحته على علم الأصول ، لأن المفسر يبحث عن معاني كلام الله تعالى وذلك فرع على وجود الصانع المختار المتكلم ، وأما المحدث فإنما يبحث عن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك فرع على ثبوت نبوته صلى الله عليه وسلم والفقيه إنما يبحث عن أحكام الله ، وذلك فرع على التوحيد والنبوة ، فثبت أن هذه العلوم

---

١ - شرح البيجوري على الجوهرة صـ٢ .
٢ - المصدر السابق صـ٢٠ .

مفتقرة إلى علم الأصول ، والظاهر أن علم الأصول غنى عنها فوجب أن يكون علم الأصول أشرف العلوم .

وثالثها : أن شرف الشيء قد يظهر بواسطة خساسة ضده فكلما كان ضده أخس الأشياء فوجب أن يكون علم الأصول أشرف الأشياء .

ورابعها : أن شرف الشيء قد يكون بشرف موضوعه ، وقد يكون لأجل شدة الحاجة إليه ، وقد يكون لقوة براهينه ، وعلم الأصول مشتمل على الكل وذلك لأن علم الهيئة أشرف من علم الطب نظرا إلى أن موضوع علم الهيئة أشرف من موضوع علم الطب وإن كان الطب أشرف منه نظرا إلى أن الحاجة إلى الطب اكثر من الحاجة إلى الهيئة وعلم الحساب أشرف منهما نظرا إلى أن براهين علم الحساب أقوى .

أما علم الأصول فالمطلوب منه معرفة ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ومعرفة أقسام المعلومات من المعدومات والموجودات ، ولا شك أن ذلك أشرف الأمور ، وأما الحاجة إليه فشديدة لأن الحاجة إما فى الدين أو فى الدنيا ، أما فى الدين فشديده لأن من عرف هذه الأشياء استوجب الثواب العظيم والتحق بالملائكة ومن جهلها استوجب العقاب العظيم والتحق بالشياطين ، وأما فى الدنيا فإن مصالح العالم إنما تنتظم عند الإيمان بالصانع والبعث والحشر ، إذ لولم يحصل هذا الإيمان لوقع الهرج والمرج فى العالم .

وأما قوة البراهين فبراهين هذا العلم يجب أن تكون مركبة من مقدمات يقينية وهذا هو النهاية فى القوة فثبت أن هذا العلم مشتمل على جميع جهات الشرف والفضل فوجب أن يكون أشرف العلوم .

وخامسها : أن هذا العلم لا يتطرق إليه النسخ ولا التغيير ، ولا يتخلف باختلاف الأمم والنواحى بخلاف سائر العلوم، فوجب أن يكون أشرف العلوم .

وسادسها : أن الآيات المشتملة على مطالب هذا العلم وبراهينها أشرف من الآيات المشتملة على المطالب الفقهية بدليل أنه جاء في فضيلة " قل هو الله أحد " و " آمن الرسول " وآية الكرسي ما لم يجئ مثله في فضيلة قوله " ويسألونك عن المحيض " وقوله " يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين " وذلك يدل على أن هذا العلم أفضل .

وسابعها : أن الآيات الواردة في الأحكام الشرعية أقل من ستمائة آية وأما البواقي ففي بيان التوحيد والنبوة والرد علي عبدة الأوثان وأصناف المشركين ، وأما الآيات الواردة في القصص فالمقصود منها معرفة كلمة الله تعالى وقدرته على ما قال " لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب" فدل ذلك على أن هذا العلم أفضل.(1)

ومن ثم فإن علماء الكلام قد اهتموا اهتماما بالغًا بالإشارة إلى فضل هذا العلم وبيان علو منزلته ورفع مكانته بين سائر العلوم .

يقول الآمدى " إن أشرف العلوم إنما هو العلم الملقب بعلم الكلام الباحث عن ذات واجب الوجود وصفاته وأفعاله و متعلقاته إذ شرف كل علم إنما هو تابع لشرف موضوعه ، الباحث عن أحواله العارضة لذاته ولا محالة أن شرف موضوع هذا العلم يزيد على شرف كل موضوع ويتقاصر عن حلول ذراه كل موجود مصنوع ، إذ هو مبدأ الكائنات ومنشأ الحادثات .

وهو بذاته مستغن عن الحقائق والذوات ، مبرأ في وجوده عن الاحتياج إلى العلل والمعلولات ، كيف والعلم به أصل الشرائع والديانات ، ومرجع النواميس الدينيات ومستند صلاح نظام المخلوقات . (2)

---

١ - تفسير الرازى جـ٢ صـ٤٧٢ - ٤٧٣ المجلد الأول .
٢- غاية المرام في علم الكلام صـ٤ تحقيق د/ حسن عبد اللطيف طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة سنة ١٣٩١ هـ سنه ١٩٧١م

وكذلك نرى عضد الدين الإيجي يبين فضل علم الكلام وشرفه فيقول : " قد علمت أن موضوعه أى موضوع الكلام وهو المعلوم أعم الأمور وأعلاها فيتناول أشرف المعلومات التى هى مباحث ذاته تعالى وصفاته وأفعاله ولا شك أنه إذا كان المعلوم أشرف كان العلم به أشرف مع أن موضوعه فقيد بحيثية تنبئ عن شرفه أيضًا وغايته أعنى تلك السعادة المترتبة على الأمور الخمسة أشرف الغايات وأجداها نفعا ودلائله يقينيه يحكم بها أى بصحة مقدماتها وحقية الصورة العارضة لها صريح العقل بلا شائبة من الوهم وقد تأيدت تلك الدلائل بالنقل وهى أى شهادة العقل لها بصحتها مع تأييدها بالنقل هي الغاية فى الوثاقة إذ لا يبقى شبهة فى صحة الدليل الذى تطابق بوفيه العقل والنقل قطعًا بخلاف دلائل العلم الإلهى ، فإن مخالفة النقل إياها شهادة عليها بأن أحكام عقولهم بها مأخوذة من أوهامهم لا من صرائحها فلا وثوق بها أصلا وهذه الأمور المذكورة فى شرف علم الكلام أعني معلوماته وغايته وحجته هى جهات شرف العلم لا تعدوها أى لا تتجاوز جهات الشرف هذه الأمور التى ذكرناها فهو أى الكلام إذن أشرف العلوم بحسب جميع جهات الشرف " . (1)

وعلى هذا نجد الإيجي قد بين أن لعلم الكلام منزلة عالية ومكانة رفيعة يتميز بها عن سائر العلوم وذلك لشرف موضوعه وهو ذات الله وصفاته وأفعاله . لذا نراه يقول فى مقدمته لكتابه المواقف " إن أرفع العلوم وأعلاها وأنفعها وأجداها وأحراها بعقد الهمة وإلقاء الشراشر عليها ، وآداب النفس فيها ، وصرف الزمان إليها علم الكلام " ثم بين بأن علم الكلام هو " المتكفل بإثبات الصانع وتوحيده وتنزيهه عن مشابهة الأجسام ، واتصافه بصفات الجلال والإكرام ، واثبات النبوة التي هى أساس الإسلام وعليه مبنى

١- شرح المواقف جـ١ صـ٥٢ ، ٥٣ .

الشرائع والأحكام ، وبه يترقى فى الإيمان باليوم الآخر من درجة التقليد إلى درجة الإيقان وذلك هو السبب للهدى والنجاح والفوز والفلاح " (١)

ويقول شارح المواقف فى فضل علم الكلام : " فإن أنفع المطالب حالا ومآلاً وأرفع المآرب منقبة وكمالاً واكمل المناصب مرتبة وجلالا وأفضل الرغائب أبهة وجمالاً هو المعارف الدينية والمعالم اليقينية إذ يدور عليها الفوز بالسعادة العظمى والكرامة الكبرى فى الآخرة والأولى وعلم الكلام فى عقائد الإسلام من بينها أعلاها شأنا وأقواها برهانا وأوثقها بنيانا وأوضحها تبيانا فإنه مأخذها وأساسها وإليه يستند اقتناصها واقتباسها بل هو كما وصف به رئيسها وأساسها " . (٢)

ويذكر العلامة سد الدين التفتازانى فى مقدمة شرح المقاصد أن علم الكلام هو أساس الشرائع والأحكام ومقياس قواعد عقائد الإسلام أعز ماء يرغب فيه ويعرج عليه وأهم ما تناخ مطايا الطلب لديه لكونه أوثق العلوم بنيانا وأصدقها تبيانا واكرمها نتاجا وأنورها سراجا وأصحها حجة ودليلا وأوضحها محجة وسبيلا ". (٣)

ويقول فى مقدمة كتابه شرح العقاد النفسية " فإن مبنى علم الشرائع والأحكام وأساس قواعد الإسلام هو علم التوحيد والصفات ، الموسوم بالكلام المنحى عن غياهب الشكوك وظلمات الأوهام " . (٤)

ثم يبين التفتزانى أن علم الكلام أشرف العلوم فيقول " لما تبين أن موضوعه أعلى الموضوعات ومعلومة أجل المعلومات وغايته أشرف الغايات مع الإشارة إلى شدة الاحتياج إليه وابتناء سائر العلوم الدينية عليه والإشعار

---

١ - المواقف صـ٤ الناشر مكتبة المتنبى بالقاهرة . عالم الكتب - بيروت .
٢ - شرح المواقف جـ١ صـ٣ - ٤ .
٣- شرح المقاصد صـ٣ جـ١ .
٤ - شرح العقائد النفسية صـ٩ .

بوثاقة براهينه لكونها يقينيات يطابق عليها العقل والشرع تبين أنه أشرف العلوم لأن هذه جهات شرف العلم " . (١)

ويقول أيضا " وبالجملة فهو أشرف العلوم لكونه أساس الأحكام الشرعية ورئيس العلوم الدينية ، وكون معلوماته العقائد الإسلامية . . . " (٢)

ويبين شارح الطحاوية أن علم التوحيد من أشرف العلوم قائلا " فإنه لما كان علم أصول الدين أشرف العلوم ، إذ شرف العلم بشرف المعلوم وهو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع ، ولهذا سمى الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى ما قاله وجمعه فى أوراق من أصول الدين " الفقه الأكبر " وحاجة العباد إليه فوق كل حاجة ، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة لأنه لا حياة للقلوب ، ولا نعيم ولا طمأنينة إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله ، ويكون مع ذلك كله أحب إليها مما سواه ويكون سعيها فيها يقربها إليه دون غيره من سائر خلقه .

ومن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرفين وإليه داعين ولمن أجابهم مبشرين ولمن خالفهم منذرين وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله إذ على هذه المعرفة تبنى مطالب الرسالة كلها من أولها إلا آخرها . (٣)

وبعد عرضنا لأقوال علماء الكلام فى فضل هذا العلم نقول إن شرف العلم مستمد من شرف موضوعه ، وهذه الموضوعات هى ذات الله صفاته وأفعاله ، واثبات الصانع القادر الحكيم ، مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، هذا ما نقصده وهو أن فضل علم الكلام يرجع إلى إنه

---

١ - شرح المقاصد جـ١ صـ٨ .
٢ - شرح العقائد النفسية صـ١٢ .
٣ - شرح الطحاوية فى العقيدة السلفية صـ١ تأليف العلامة صدر الدين على بن محمد بن أبى العز الحنفى تحقيق أحمد محمد شاكر مكتبة دار التراث بالقاهرة .

يعتمد على المصدرين الأصليين للعقيدة والشريعة وهما كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وليس ذلك الخلاف الذى دار بين الفرق والذى يؤدى إلى التناحر والشقاق والفرقة والاختلاف فى الدين. فهذا كله منهى عنه.

المبحث الخامس في : غاية علم الكلام وفوائده

يحدثنا العلامة ابن خلدون فى مقدمته عن فوائد علم الكلام فيقول " فائدة علم الكلام فى آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة ، إذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجاج النظرية على عقائدها " . (١)

ولعلم الكلام أهداف عظمى أهمها التصدى أمام دعاوى الضالين وأصحاب البدع والمبطلين .

يقول عثمان الدارمي وهو من رجال الحديث الذين اشتغلوا بالدفاع عن العقيدة " انه بعد أن ظهرت البدع من أهلها وجب على العلماء التصدى لهم بالتكذيب والتكفير منافحة عن الله كى لا يسب ولا تعطل صفاته ، وذبا عن ضعفاء الناس كى لا يضلوا بمحنتهم هذه من غير أن يعرفوا ضدها من الحجج التى تبطل دعواهم وتبطل حججهم أو طمعتم معشر الجهمية والواقفة أن تنصبوا الكفر للناس أما ما تدعونهم إليه وتسكتوا أهل السنة عن الإنكار عليكم حتى يروج على الناس ضلالكم لقد أسأتم بأهل السنة الظن ونسبتموهم إلى العجز والوهن " (٢)

ولعل أبرز وأهم فوائد علم الكلام العمل على حفظ قواعد الدين ضد شبه أعدائه وإيضاح حجج الدين القيم أمام خصومه ، يقول الايجى عن فائدته " وفائدة علم الكلام أمور :

الأول بالنظر إلى الشخص فى قوته النظرية وهو الترقى من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان " ويرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات " خص العلماء الموقنين بالذكر مع اندراجهم فى المؤمنين رفعا لمنزلتهم كأنه قال وخصوصا هؤلاء الأعلام منكم .

---

١ - مقدمة ابن خلدون صـ٤٣١ طبعة دار الشعب .

٢ - النقض على بشر المريس صـ ١٠٧ ، ١٠٩ باختصار تحقيق الشيخ محمد حامد الفقى .

الثاني : بالنظر إلى تكميل الغير وهو إرشاد المسترشدين بإيضاح المحجة لهم إلى عقائد الدين وإلزام المعاندين بإقامة الحجة عليهم فإن هذا الإلزام المشتمل على تفضيح المعاند ربما جره إلى الإذعان والإسترشاد فيكون نافعا ومكملا إياه .

الثالث : بالنسبة إلى أصول الاسم وهو حفظ قواعد الدين وهى عقائده عن أن تزلزلها شبه المبطلين .

الرابع : بالنظر إلى فروعه وهو أن يبنى عليه العلوم الشرعية أى يبنى عليها ما عداه منها فإنه أساسها وإليه يؤل أخذها واقتباسها فإنه ما لم يثبت وجود صانع عالم قادر مكلف مرسل منزل للكتب لم يتصور علم تفسير وحديث ولا علم فقه وأصوله فكلها متوقفة على علم الكلام مقتبسة منه فالآخذ بدونه كبان على غير أساس ، وإذا سئل عما هو فيه لا يقدر على برهان ولا قياس بخلاف المستبطنين لها فإنهم كانوا عالمين بحقيقته وان لم تكن فيما بينهم هذه الاصطلاحات المستحدثة فيما بيننا كما فى علم الفقه بعينه .

الخامس : بالنظر إلى الشخص فى قوته العملية وهو صحة النية بإخلاصهم فى الأعمال وصحة الاعتقاد بقوته فى الأحكام المتعلقة بالأفعال إذا بها أى بهذه الصحة فى النية والاعتقاد يرجى قبول العمل وترتب الثواب عليه " . (1)

ثم يذكر الإيجى أن غاية ذلك أى والفائدة التى يفيدها ما ذكر من الأمور الخمسة وتنتهى إليها وهى الفوز بسعادة الدارين فإن هذا الفوز مطلوب لذاته فهو منتهى الأغراض وغاية الغايات . (2)

١- شرح المواقف جـ١ صـ٥١ ، ٥٢ .
٢- المصدر نفسه جـ١ صـ٥٢ .

وقد أجمل البيجورى الغاية من دراسة علم الكلام قائلا " وثمرته معرفة الله بالبراهين القطعية والفوز بالسعادة الأبدية " (١) .

وهذا الكلام على إيجازه يحمل معان كثيرة . فمعرفة الله بالبراهين القطعية التى تفيد اليقين دونها جهود ينبغى أن تبذل ممن يريد التأمل والتفكر والإعتبار فى النفس والآفاق والمعرفة أوسع من أن تحصر فى إثبات الوجود لله تعالى ، بل تشمل الواجبات والممكنات والمستحيلات فى حقه وحق من يختارهم من رسله وهذه المعرفة تؤدى إلى الإيقان باليوم الآخر وملحقاته (٢)

وقد عبر عن هذا المعنى الإمام محمد عبده فقال " الغاية من هذا العلم القيام بفرض مجمع وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به والتصديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن به النفس اعتماد على الدليل لا ، استرسالا مع التقليد ، جسما أرشدنا إليه الكتاب ، فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه تحصيلا لليقين بما هدانا إليه ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الأمم فى الأخذ بما عليه آباؤهم وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك واستتباعه لهدم معتقداتهم وإمحاء وجودهم وحق ما قال ، فإن التقليد كما يكون فى الحق يأتى فى الباطل ، وكما يكون فى النافع يحصل فى الضار فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ولا تجمل بحال الإنسان " (٣)

وقد تحدث العلامة سعد الدين التفتازانى عن ثمرة علم الكلام وغايته قائلا " وغايته الفوز بالسعادات الدينية والدنيوية " (٤)

وأوضح أيضا فى كتاب المقاصد " أن غايته تحلية الإيمان باليقين ومنفعته الفوز بنظام المعاش ونجاة المعاد " . ثم قال : " وغاية الكلام أن

---

١ - شرح البيجورى على الجوهرة صـ٢٠ .
٢ - العقيدة الإسلامية صـ٢٨ د/ محمد عبد الستار نصار .
٣ - رسالة التوحيد صـ٢٣ .
٤ - شرح العقائد النفسيه صـ١٢ .

يصير الإيمان والتصديق بالأحكام الشرعية متيقنا محكما لا تزلزله شبه المبطلين ، ومنفعته فى الدنيا انتظام أمر المعاش بالمحافظة على العدل والمعاملة التى يحتاج إليها فى بقاء النوع على وجه لا يؤدى إلى الفساد وفى الأخرى النجاة من العذاب المرتب على الكفر وسوء الاعتقاد " (١)

ومن خلال أقوال هؤلاء العلماء فى بيان ثمرة علم الكلام والفائدة من دراسته ، نستنتج منها اتفاقهم على قصر موضوعه على العقائد ومنهجه على الاستدلال بالأدلة اليقينية أو العقلية ونستنتج منها مجموعة من الأهداف هى :-

١- الدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد المبطلين وإثباتها للمريدين .

٢- والاستفادة الذاتية للمؤمن بالترقى فى مدارج الإيمان .

٣- الاستفادة العامة بالدعوة إلى الإسلام ، وذلك بإظهار مزاياه وعرض محاسنه وحفظ قواعده عن أن تزلزلها شبه المبطلين .

٤- وضع أسس العلوم الشرعية الأخرى .

٥- توجيه معاش الجماعة الإسلامية فى الدنيا وجهة الإسلام والفوز بسعادة الآخرة . (٢)

ومن هنا نجد أن علم الكلام له دور كبير فى إثبات العقيدة والدفاع عنها ضد شبه المنكرين ، ومما يدل على ذلك ما يقرره الإمام الغزالى حيال إيمانه بدور علم التوحيد فى تثبيت العقائد فى النفوس ودحض شبه المبطلين .

فيقول " وإنما مقصود علم الكلام حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هى الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار .

١- شرح المقاصد للتفتازانى صـ٨ جـ١ .

٢- المدخل إلى العقيدة الإسلامية صـ٦٨ .

ثم ألقى الشيطان فى وساوس المبتدعة أمورا مخالفة للسنة فلهجوا بها وكادوا يشوشرن عقيدة الحق على أهلها . فانشأ الله طائفة المتكلمين وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب يكشف عن سلبيات أهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة ، فمنه نشأ علم الكلام . فلقد قام طائفة بما ندبهم الله تعالى إليه فأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة والتغيير فى وجه ما أحدث من البدعة " . (1)

ونؤيد الإمام الغزالى فيما ذهب إليه ، والحق أن الأمة الإسلامية فى حاجة إلى تربية جيل من خواص الناس يتسلح بأساليب الفكر المنطقى والبراهين العقلية ، حتى يتوفر لهذا الجيل القدرة الاقناعية لمجابهة الرياح العاصفة التى يثيرها الملحدون فى وجهه الإسلام من وقت لآخر .

فالحاجة ماسة إلى علم الكلام حتى يصير الإيمان والتصديق بالأحكام الشرعية محكما . ومن هنا حكم العلماء على دراسة علم التوحيد بأنه فرض كفاية على المسلمين " بمعنى أنه يجب أن يكون فى كل قطر من الأقطار قائم بالحق مشتغل بهذا العلم يقاوم دعاة البدعة ويستحيل أهل النطر كافة أما إزالة الشك وتطهير القلب عن الريب ففرض عين فى حق من اعتراه الشك " . (2)

ومن هنا فقد أبرز الإمام الكوثرى أهمية علم الكلام وضرورته فى الدفاع عن العقيدة ضد هجمات الالحاد التى تشتد يوما بعد يوم فقال " يجب على المسلمين أن يتفرغ منهم جماعة لتتبع الآراء السائدة فى طوائف البشر وفحص كل ما يأتى من قبله ضرر للمسلمين ، لا سيما فى المعتقد الذى لا يزال ينبوع كل خير ما دام راسخا رصينا ويصير منشأ كل فساد إن استحال واهنا واهيا .

١- المنقذ من الضلال للأمام الغزالى صـ١١٨ وما بعدها تحقيق د/ عبد الحليم محمود .
٢- المسايرة فى علم الكلام لابن الهمام صـ٦،٥ تحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد الطبعة الأولى

فيدرسون هذه الآراء والعلوم دراسة أصحابها أو فوق دراستهم ليجدوا فيها ما يدفعون به الشكوك التى يستثيرها أعداء الدين بوسائط عصرية حتى إذا فوق مقتصد سهاما منها نحو التعاليم الإسلامية من معتقد وأخلاق ردوها إلى نحره إعتمادا على حقائق تلك العلوم وتجاربها واستنادا على أبداء نظريات تقضى على نظريات المشككين . وأقاموا دون تسرب تلبياتهم سورًا حصينا واقيا وعبأوا حزب الله على أنظمة يتطلبها الزمن فى غير هوادة ولا توان ، ودونوا ما استخلصوه من تلك العلوم من طرائق الدفاع فى كتب خاصة بأسلوب يعلق بالخاطر وتستسيغه العامة لتكون سدا محكما مدى الدهر دون مفاجأة جوارف الشكوك.

وإن لم يفعلوا ذلك يسهل على الأعداء أن يجدوا سبيلا إلى مواقع خصبة بين المسلمين تنبت فيها بذور تلبياتهم بحيث يصعب اجتثاث عروقها الغرضية بل تسرى سموم الإلحاد فى قلوب خالية تتمكن فيها فيهلك الحرث والنسل " . (١)

ويشارك الإمام الشعرانى غيره من العلماء القائلين بأن علم الكلام هدفه ردع الخصوم بالنظر العقلى فيقول " اعلم رحمك الله أن علماء الإسلام ما صنفوا كتب العقائد ليثبتوا فى أنفسهم العلم بالله تعالى ، وإنما وضعوا ذلك ردعا للخصوم الذين جحدوا الإله ، أو الصفات أو الرسالة أو رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بالخصوص أو الإعادة فى هذه الأجسام بعد الموت ونحو ذلك مما لا يصدر إلا من كافر . فطلب علماء الإسلام إقامة الأدلة على هؤلاء ، ليرجعوا إلى اعتقاد وجوب الإيمان بذلك لا غير .

وإنما لم يبادروا إلى قتلهم بالسيف رحمة بهم ورجاء رجوعهم إلى طريق الحق فكان البرهان عندهم كالمعجزة التى يساقون بها إلى دين الإسلام

---

١ - تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام إلى الحسن الأشعرى ص [illegible] ، [illegible] دار الفكر - دمشق الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ تحقيق الكوثرى .

ومعلوم أن الراجع بالبرهان إلى أحق إيمانا من الراجع بالسيف إذ الخوف قد يجعل صاحبه على النفاق وصاحب البرهان ليس كذلك ، فلذلك وضعوا علم الجوهر والعرض ، وبسطوا الكلام في ذلك ، ويكفي في العصر الواحد واحد من هؤلاء " .

ثم ينتقل الإمام الشعراني عن ابن عربي قوله " . فعلم أن السلف رضي الله تعالى عنهم ما وضعوا كتب الكلام إلا ردعا للخصوم الذين كانوا في عصرهم " وقوله " ثم إن احتاج إنسان إلى رد خصم حدث في بلاده ينكر الشرائع مثلا وجب علينا تجريد النظر في رد مذهبه ، لكن بالأمور العقلية دون الاستدلال عليه بالشرع كالبرهمي مثلا ، فإنه الشرع هو محل النزاع بينه وبيننا ، لا يثبته فلذلك ليس له دواء إلا رده بالنظر العقلي " . (١)

وهنا نجد أن هدف علم الكلام هو الدفاع عن العقيدة ضد الخصوم ، لكنه يتضمن في نفس الوقت هدف اجتذاب هؤلاء الخصوم إلى خطيرة الإيمان أما أن يكون هدفه اكتساب المسلم لليقين في عقيدته ، فذلك ما ينكره كل من الإمام الشعراني وابن عربي .

وكذلك نرى الإمام أبا حنيفة يدلنا على تصور رائع لأهداف هذا العلم وفوائده ، وذلك فيما يجريه على لسان العالم في حديثه إلى المتعلم ، ومن هذا الحديث تتبين لنا أهداف متعددة لعلم الكلام هي :-

١- الدفاع عن الدين .

٢- والدفاع عن النفس إذ أن المؤمن قد يتعرض لطعن الطاعنين في عقيدته فيحتاج إلى الذب عنها .

٣- وصون القلب عن الشبهات ، وهي شبهات إذا كان في الطاقة كف اللسان عنها فليس في الطاقة كف القلب .

٤- والتحلي بالعلم .

---

١ - اليواقيت والجواهر جـ١ صـ٢٢ - ٢٣ طبعة الحلبي سنة ١٩٥٩م .

٥- والخروج من الشبهة إذا نزلت .

٦- معرفة أخطاء الغير فإن عدم معرفة المخطئ من المصيب لا يضر من جهة واحدة ، وهى أن الإنسان لا يؤاخذ بعمل المخطئ ، ولكن يكفيه ضرر أنه لا يستطيع التمييز بين الخطأ والصواب .

٧- معرفة من يحبه المرء ومن يبغضه فى الله . (١)

وقد قام أستاذنا يحى هاشم بدراسة هذه القضية من جميع جوانبها فقد عرض لمجموعة من أقوال العلماء والأئمة المتقدمين ، بعضهم من الفلاسفة وبعضهم من رجال الحديث ، وبعضهم من رجال الكلام ، وبعضهم من علماء المعتزلة وبعضهم من علماء السنة .

ثم قام بتصنيف هذه الآراء إلى مجموعتين : رئيسيتين :

أولاهما: توسع من أهداف علم الكلام بحيث لا تقصره على الناحية الدفاعية .

وثانيتهما : تضيق من أهدافه وتقصرها على الناحية الدفاعية ، ثم إن هذه المجموعة الأخيرة منها ما يجعل هذا الهدف الدفاعى قاصرا على الرد على أعداء الدين فحسب ، ومنها ما يجعله شاملاً لكل أنواع الدفاع : ضد أعداء الدين الذين يودون به السوء ، وضد شبهات الحائرين المترددين الذين يمكن اجتذابهم للدين ، وضد وسوسات النفس المسلمة التى تهاجمها الشبهات من هذا الجانب أو ذاك .

ثم اختار من هذه الآراء ما رآه أصلح للتعبير عن أهداف هذا العلم فى عصر النشأة ، فاختار الرأى الذى أوضحه الإمام أبو حنيفة فى العالم والمتعلم باعتباره نابعًا من نفس العصر ، فهو بالتالى يكون أكثر تعبيرا عنه ،

---

١ - العالم والمتعلم للامام أبي حنيفة صـ٣٤-٣٥ تحقيق محمد رواس قلعجي وعبد الوهاب الهندي الندوي نشر مكتبة الهدى بحلب بطبعة الأولى عام ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .

وهو رأى ينتمى إلى المجموعة الأولى التى لا تقتصر الهدف على الجانب الدفاعى (١)

ثم يذكر الدكتور يحى هاشم بعد أن عرض لنشأة هذا العلم ودرس وعواملها يصبح لازما عليه أن لا يكتفى بذلك ، فقد يكون الرأى الذى يقول به أحد الأئمة أو العلماء معبرا عن الأمل أكثر من تعبيره عن الواقع ومن ثم وجب عليه أن يقيس هذا الرأى على ما وجده فى النشأة من اتجاهات وعوامل

وعلى ذلك فإنه قد انتهى إلى أن الجانب الدفاعى من أهداف علم الكلام كان أهم أهدافه فى ذلك العصر ، ولبس ذلك راجعا إلى طبيعة هذا العلم فى صورته النظرية بقدر رجوعه إلى ما كان يموج فى البيئة الإسلامية من تحديات العقائد المناوئة على اختلاف أنواعها ، فى صورها المستترة والمعلنة على السواء .

ثم يقول : " لقد أرغمت هذه التحديات متكلمى الإسلام على توجيه أنظارهم إلى المباحث التى يدور فيها الاحتكاك بين الإسلام وبين تلك العقائد ، ولقد كان لهذا العلم فى هذا المجال هدف جليل خطير يتمثل فى المحافظة على عقائد المسلمين ، وكان عليه أن يواجه فى هذا الموقف أعنى أعداء الإسلام وأخطرهم وأقواهم سلاما وأشدهم تمكنًا وأكثرهم تحالفًا وأوسعهم تنوعا " .

وهكذا فإن الجانب الدفاعى عن العقيدة الإسلامية هو أهم أهداف علم الكلام وخاصة فى عصر النشأة ، حيث كان من الضرورى الذود عن حياضها والذب عن أركانها ضد شبهات المبطلين ، وذلك لأنها قد واجهت تحديات خطيرة من أصحاب العقائد المناوئة والنحل الضالة والملل المنحرفة التى كانت تموج بها البيئة الإسلامية آنذاك .

١- عوامل واهداف نشأة علم الكلام فى الاسلام صـ٣١٠ .

وقد فرضت هذه التحديات على المتكلمين الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن الإسلام أن يعدوا للأمر عدته وأن يتسلحوا بسلاح خصومهم حتى يستطيعوا أن يقارعوا ذوى الأهواء ويردوا شبهاتهم وينتصروا لدينهم

ولهذا يقول الدكتور يحيى هاشم " إنه ينبغى على هذا العلم أن يطور أساليبه فى الدفاع كلما تطورت أساليب العدو فى الهجوم . ولقد كان الفكر العالمى فى ذلك الوقت يصنع أسلحته فى ترسانة الفلسفة ، لقد كانت الفلسفة هى مقياس المعرفة ، بل لقد كانت هى الإطار العام لكل أنواع المعرفة الإنسانية آنذاك . فكان لابد فى مقاومة الهجوم على عقائد المسلمين [illegible] الأسلحة مصنوعة هناك " . (١)

ومهما يكن القول فى آثار هذا العلم التى تكالا تحمى فى [illegible] المذاهب وترسيخ التفرق ، وإثارة الشبهات ، تحريك العقائد وإزالتها [illegible] الجزم والتصميم وإثارة الجدل . فإن قيامه بعبء هذا الهدف الجليل [illegible] قام به على خير وجه ممكن من الناحية الواقعية ، يحتم علينا أعضاء الطرف عما اضطر إليه من ذلك فى سبيل تمكنه من قيامه بهدف الدفاعى الأساسى فى هذا المجال .

وبجانب هذا الهدف الدفاعى فقد كان لهذا العلم دور إيجابى لا [illegible] إغفاله . فى تفهم مسائل العقيدة ، كما وردت بالكتاب والسنة ، [illegible] المسائل المتعلقة بذاتية كل من القرآن والنبوة . وفى هذا الجانب يلزمنا أن نبرز من أن الأمر لم يسر فى مجال مباحث القرآن والنبوة وفقا لمقتضياتهما وفى إطارهما فحسب ، وإنما تدخلت العوامل الأخرى التى أرغمت الباحثين على سلوك مناهج وطرق موضوعات ومواجهة مواقف جديدة بهم إلى معالجة الموضوعات الواردة بالكتاب والسنة معالجة مذهبية ربما كانت غريبة فى بعض الأحيان عن روح كل منهما دون أن تكون مناقضة لهما والتى تترك

(١) الأسس المنهجية في بناء العقيدة الإسلامية ص [illegible] دار الفكر العربي بالقاهرة .

التوسع فى موضوعات وردت بهما والى طرق موضوعات لم ترد مع التعسف فى اتخاذ الدليل عليها منهما . كذلك كان لهذا العلم دور إيجابى فى التعريف بالمؤمن والكافر وما بينهما - إن كان هناك - والتعريف بما يتعلق بذلك وما يتفرع عنه من مسائل .

معنى ذلك أن لعلم الكلام دوا دفاعيا يقوم بالدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد خصومها من المنكرين المعاندين ودورًا إيجابيًا فى إثبات العقيدة الإيمانية بالأدلة العقلية .

وإذا كانت تلك هى الأهداف التى قام بها هذا العلم بتقدير أصحابه ، فقد كانت له أهداف تلقائية أخرى نؤثر أن نسميها غايات .

كان من غاياته الاستجابة للنزعة العقلية الإنسانية التى حررها الإسلام من العبودية لغير الله واجتذاب أصحابها إلى حظيرة الإيمان ، والمطامنة من غلواء النزعة الوجدانية التى رعى الإسلام الموازنة بينها وبين النزعة العقلية .

وكان من غاياته أيضا مواءمة الطبيعة الإنسانية ، فى نزعتها إلى التفرق تبعا لاختلاف المصالح والحاجات النفسية المتعددة ، فما له صلة بأصول الدين وعقائده .

كذلك كان من غاياته مواءمة النمو الحضارى للأمة الإسلامية ، فى أساسياته وفى حركته فى المجال الإجتماعى والسياسى والاقتصادي فيما له علاقة أو مسام بأصول الدين كذلك .

وعلى وجه العموم فقد كان لهذا العلم غاية جليلة ينبغى إليها ، تلك هى قيادة سيرة الحضارة الإسلامية فى طريقها الإسلامى .

وليس هناك علم يتصدى لذلك غير هذا العلم لأن العلوم التى توجه عنايتها للجزيئات لا تصلح لذلك ، فعلم الفقه مثلا يشارك فى صنع هذه الحضارة ، لكنه يفترض أساسا التسيير فى الطريق الإسلامى لا تبغى به

بديلا . ويوم يقرر المجتمع الانحراف عن هذا الطريق يصبح علم الفقه غير ذي تأثير ، وعلم التفسير لا يتصدى لذلك إلا بمقدار تناوله لأساسيات العقيدة التي وردت في القرآن الكريم تناولا يستهدف الإقناع بها فهو من ثم يزاول نشاط علم الكلام وكذلك علم الحديث .أما علم الكلام فهو من حيث يعنى بأصول الدين وعقائده – تلك التي قامت على أساسها الحضارة الإسلامية – يقوم بمهمة قيادة هذه الحضارة والأخذ بها في الطريق الإسلامي للحضارة .

ولم يكن من شرط لصلاحيته للقيام بهذه المهمة إلا أن يواجه بشجاعة مشكلات العصر الذي يتطلب إلية قيادة حضارته ويتصدى لتحدياته ويتغلغل في أعماقه : في كل ما له مساس بأصول الدين .وهكذا كان علم الكلام في العصر الذي درسناه ، وهكذا احتفظت حضارة المسلمين في هذا العصر بجوهرها الإسلامي وكان للمتكلمين فضل يذكر في هذا المجال . (1)

بل يكاد المرء يؤخذ من هول تصوره لما كان يمكن أن يحدث لو لم يقيض الله لهذه الأمة أولئك العلماء الغيارى على الدين الذين لم يألوا جهدا في الدفاع عن حياض الإسلام ضد التيارات الفكرية الدخيلة التي كانت تستهدف الإسلام من جذوره أو إذا وجدت تلك التحديات العقدية فراغا عند المسلمين والتقت فيهم بالمواقف السلبية .

وما أحوجنا اليوم إلى علم كلام حيوي نشط . كما كان يتسم به في نشأته الأولى ، وكما استطاع أن يقوم بدور أصيل في المحافظة على العقائد الإسلامية التي تتعرض اليوم لمثل ذلك الخطر إن لم يكن أشد منه عنفا .

ففي الفلسفات الحديثة والمعاصرة من جدلية مادية ووضعية ووجودية دعوات صريحة إلى الإلحاد .

وحول المنهج العلمي يجر الإلحاد ذيوله باسم إنكار كل ما لا يخضع للتجربة وباسم التطور الذاتي وحتمية قوانين الطبيعة وعدم قبول المادة للفناء

١- عوامل واهداف نشأة علم الكلام ص ٣١٠ ، ٣١٢،٣١١ .

.. الخ وفى التنظيم الاجتماعى سحابات من الإلحاد إذ تقوم بعض الدعاوى فى هذا المجال على إنكار الدين واعتباره طورا متخلفا من أطوار التقدم الاجتماعى .

وفى قضايا التشريع نزوع إلى الإلحاد حيث بها حجم الدين فى نظرية إلى الطرق والى تعدد الزوجات وإلى قوامة الرجل على المرأة وزيادة نصيبه فى الميراث وفى عقوباته التى يقررها فى جرائم السرقة والقتل والزنا .

وفى تدوين التاريخ تيارات من الإلحاد يقدم الإسلام على أنه نتيجة لصراعات الطبقات ، ومظهر من مظاهر التطور الاقتصادى يصنف فيه الصحابة إلى يمين ويسار . ويقدم فى رسول الله على أنه رسول الجزية أو أنه زعيم عصابة .

لقد أخذ التشكيك والتشويه والإلحاد تنسج خيوطها فى كل من مناحى الحياة ، ونجد شبها قويا بين تيارات الإلحاد العصرية هذه والتيارات الإلحادية التى واجهها المسلمون فى عصر نشأة علم الكلام .

لذلك نجد المسلمين اليوم بحاجة ملحة إلى قيام علم يقوم بمهمة حراسة العقائد الإسلامية على الوجه الذى قام به علم الكلام فى عصر النشأة

ولكن لا أقصد من علم الكلام الذى يحتاجه المسلمون اليوم هذا الذى وقف فى تطوره عند عصر الإيجى والتفتازانى وانعزل عن التيارات الثقافية والعلمية المعاصرة بل أعنى به علمًا متطورًا يتغلغل فى أعماق التيارات الحديثة ويستوعبها ويكون قبل ذلك معينا بدراسة مسائل العقيدة كما وردت فى الكتاب والسنة يستوحى منها النص ببساطة بعيدة عن تعقيدات المذاهب التى فرضتها ظروف ثقافية ربما كان عصرنا منصرفا عنها وأن ينح فى تقرير مسائله منهجا يستهدف الإقناع بوسائله العقلية والوجدانية على السواء . (1)

١- الباقلانى وآراؤه الكلامية صـ٥٥-٥٦ رسالة دكتوراه إعداد د/محمد رمضان عبد الله مطبعة الأمة - بغداد ١٩٨٦م

المبحث السادس عشر : علم الكلام بين المؤيدين والمعارضين

حين خرج العرب المسلمون من صحرائهم ، وجدوا في البلاد التي افتتحوها أقواما لهم ديانات مختلفة ، وفلسفات دينية متأثرة إلى حد بعيد بالفلسفة اليونانية ثم بدأت أعمال الترجمة ، فنقلت إلى العربية فلسفة اليونان وعلومهم .

وهكذا انتهى إلى المسلمين التراث الفكري الماضي ، ووقف الفكران : الإسلامي واليوناني متواجهين فكان لابد من أن يختلطا ويتفاعلا ، وكان لابد من أن يتأثر المسلمون بالأفكار والعقائد التي غزتهم ، والتي كان الكثير منها مخالفًا لتعاليم دينهم فأوجدت هذه الأفكار مشاكل جدية تقتضي البحث والدراسة كمشكلتي الصفات والقضاء والقدر ، وما يتفرع منهما .

وكان على علماء المسلمين أن يوجهوا هذه الأفكار الدخيلة التي تخالف تعاليم الإسلام بالنقض والرد ، وكان من الطبيعي أن يخوضوا فيها بالدراسة والتحليل لكي يتمكنوا من دحضها والرد عليه اوهم عارفون بخباياها ومطلعون على مواطن أغوارها ، فتكون نتيجة ذلك علم الكلام .

وكان من الطبيعي أيضا للمجتمع الإسلامي وهو يقيس أوجه نشاطه الخاصة والعامة بمقياس الحلال والحرام ، أن يخضع الاشتغال بعلم الكلام لهذا المقياس وقد كان للعلماء آراء حول هذا الموضوع .

وسنعرض فيما يلي : أهم هذه الآراء بادئين بآراء المؤيدين ، ثم نثني بآراء المعارضين ، ثم نعقب على ذلك ببيان ما نراه صوابا حول هذا الموضوع .

أولا : آراء المؤيدين لعلم الكلام :

كان الحسن البصري رضي الله عنه يبرر الاشتغال بمسائل علم الكلام في رسالة أرسلها إلى عبد الملك بن مروان في موضوع القضاء والقدر

وأفعال العبد وقد جاء فيها قوله " لم يكن في السلف أحد ينكر ذلك ولا يجادل فيه ، لأنهم كانوا على أمر واحد ، وإنما أحدثنا الكلام فيه من حيث أحدث الناس النكرة له ، فلما أحدث المحدثون في دينهم ما أحدثوه ، أحدث الله للمتمسكين بكتابه ما يبطلون المحدثات ويحذرون من المهلكات " . ([١])

وذكر الكليني عن أبي عبد الله جعفر الصادق أنه قال ليونس بن يعقوب " وددت أنك يا يونس تحسن الكلام فقال له يونس جعلت فداك سمعتك تنهى عن الكلام ؟

فقال أبو عبد الله:إنما قلت ويل لهم إذا تركوا قولي وصاروا إلى خلافه ودعا حمران بن أعين ومحمد بن الطيار وهشام بن سالم فتكلموا بحضرته ، وتكلم هشام من بعدهم فأثنى أبوعبد الله على هشام ومدحه وقال له:مثلك من يكلم الناس ، كذلك ورد أنه شجع هشام بن الحكم على الكلام"([٢]).

وورد عن الإمام أبي حنيفة في كتاب العالم والمتعلم ما يلي : قال المتعلم : " ... أرأيتَ أقوامًا يقولون لا تدخلن هذه المداخل فإن أصحاب نبي الله صلى الله عليه وسلم لم يدخلوا في شئ من هذه الأمور ، وقد يسعك ما وسعهم ، فإن هؤلاء قد زادوني عما ، ووجدت مثلهم كمثل رجل في نهر عظيم كثير الماء كاد أن يفرق م نقبل جهله بالمخاضة ، فيقول له آخر أثبت مكانك ولا تطلبن المخاضة " .

قال العالم : قل لهم بل يسعني وما وسعهم لو كنت بمنزلتهم وليس يحضرني مثل الذي كان بحضرتهم وقد ابتلينا بمن يطعن علينا ويستحيل الدماء منا فلا يسعنا إلا أن نعلم من المخطئ منا والمصيب ، وأن لا نذب

---

١ - رسائل العدل والتوحيد صـ١١٨ تأليف الحسن البصري ، والقاضي عبد الجبار والقاسم الرسي ، والشريف المرتضى ، والامام يحي بن الحسين تحقيق د/ محمد عمارة دار الشروق . جزءان في مجلد واحد .

٢- تصحيح الإعتقاد للشيخ المفيد صـ٢٦،٢٧ بتعليق معالي السيد هبة الدين الشهرستاني الطبعة الثانية سنه ١٣٧١هـ .

عن أنفسنا وحرمنا ، فمثل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كقوم ليس بحضرتهم من يقاتلهم فلا يتكلفون السلاح ، ونحن قد ابتلينا بمن يقاتلنا فلابد من السلاح من أن الرجل إذا كف لسانه عن الكلام فيما اختلف فيه الناس ، وقد سمع ذلك لم يطق أن يكف قلبه .

وفيما بقى من النص يبين لنا الإمام أبو حنيفة أن الرجل منا إذا كف نفسه ولم يبال أن يعرف من المخطئ ومن المصيب وسط هذا الجدل الدائر وقع فى أمور منها الجهالة ومنها نزول الشبهة عليه كما نزلت بغيره لا يدرى كيف يخرج منها ، ومنها أنه لا يدرى من يحب فى الله ومن يبغض فى الله من هؤلاء ... أما إذا عرف الرجل الحق والعدل وامتنع عن أن يعرف ما به غيره من الباطل والجور .

ويعتبر الإمام أبو حنيفة هؤلاء أجهل الأصناف وأرداهم عنده منزلة ثم يسخر منهم إذ يمثل لهم بجماعة " ... أربعة نفر يؤتون بثوب أبيض فيسألون جميعا عن لون ذلك الثوب فيقول واحد هذا ثوب أحمر ، ويقول الآخر أصفر ، ويقول الثالث أسود ، ويقول الرابع أبيض فيقال له ما تقول فى هؤلاء الثلاثة أصابوا أم أخطأوا ؟ فيقول أما أنا فقد أعلم أن الثوب أبيض وعسى أن يكون هؤلاء قد أصابوا " . (١)

ويروى البياضى أن أبا حنيفة قال فى الفقه الأكبر : " وإذا أشكل على الإنسان شئ من دقائق علم التوحيد فإنه ينبغى له أن يعتقد فى الحال ما هو الصواب عند الله ، إلا أن يجد عالما فيسأله ، ولا يسعه تأخير الطلب ولا يعذر بالتوقف ويكفر إن وقف " . ويفسر البياضى ذلك بأنه إذا كان جهله فى الضروريات الدينية فلا ينبغى له التوقف فيها كما يتوقف فى غيرها . (٢)

١- العالم والمتعلم صـ٣٣-٣٨ .

٢-أشارات المرام من عبارات الإمام صـ١٠٥-١٠٦ للعلامة كمال الدين أحمد البياضى الحنفى

آراء المعارضين بعلم الكلام

لقد وقف بعض السلف من علم الكلام موقف المعارض والمستنكر المحرم اعتماد على أن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته والتابعين من بعدهم لم يتكلموا فيه . وهذه أقوى الحجج التى تذرعوا بها فى رفض هذا العلم ، وأخذوا عقائدهم من ظاهر النصوص على سبيل التقليد والمحاكاة دون الإذعان لموجبات العقل ([1])

وقد صور الإمام الأشعرى موقفهم فقال " فإن طائفة من الناس جعلوا الجهل رأس ما لهم وثقل عليهم النظر والبحث عن الدين ومالوا إلى التخفيف والتقليد وطعنوا على من فتش عن أصول الدين ونسبوه إلى الضلال وزعموا أن الكلام فى الحركة والسكون والجسم والعرض والألوان والأكوان والجزء والطفرة وصفات البارى عز وجل بدعة وضلالة ، وقالوا : لو كان ذلك هدى ورشاداً لتكلم فيه النبى صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه وأصحابه قالوا ولأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى تكلم فى كل ما يحتاج إليه من أمور الدين وبينه بياناً شافيا ولم يترك بعده لأحد مقالاً فيما للمسلمين إليه حاجة من أمور دينهم وما يقربهم إلى الله عز وجل ويباعدهم عن سخطه . فلما لم يرووا عنه الكلام فى شئ مما ذكرناه علمنا أن الكلام فيه بدعة والبحث عنه ضلالة لأنه لو كان خير المسافات للنبى صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم ولتكلموا فيه .

قالوا : ولأنه ليس يخلو ذلك من وجهين إما أن يكونوا علموه فسكتوا عنه أو لم يعلموه بل جهلوه ، فإن كانوا علموه ولم يتكلموا فيه وسعنا أيضا نحن السكوت عنه كما وسعهم السكوت عنه ووسعنا ترك الخوض فيه كما وسعهم ترك الخوض فيه ، ولأنه لو كان من الدين ما وسعهم السكوت عنه .

---

[1]- المدرسة السلفية وموقف رجالها من المنطق وعلم الكلام صـ٦٢ دار الأنصار بالقاهرة للدكتور محمد عبد الستار نصار .

وإن كثروا لم يحدثوه ويسعنا جهله كما وسع أولئك جهله لأنه لو كان من الدين لم يجهلوه . فعلى كلا الوجهين الكلام فيه بدعة والخوض فيه ضلالة " . (١)

هذا النص الذى ذكره الإمام الأشعرى يصور بدقة موقف هؤلاء المتشددين ، تصويرا حقيقيا ، والناظر فيما كتبه هؤلاء عن علم الكلام سواء قبل الأشعرى أو بعده يلاحظ هذه النغمة التى تحرم هذا العلم بناء على هذه العلل التى ذكرها الأشعرى .

وسوف نعرض بشىء من التفصيل لأقوال بعض السلف ومن ادعى السير على طريقهم فى هذا الأشعرى .وسوف نعرض بشىء من التفصيل لأقوال بعض السلف ومن ادعى السير على طريقهم فى هذا السبيل . وقد جمع السيوطى فى كتابه " صون المنطق والكلام " أقوال المتقدمين فى تحريم علم الكلام ووجه أقوال بعض الأئمة توجيها غير مستقيم . من ذلك ما ذكره عن أبى حنيفة أنه قيل له " ما تقول فيما أحدث الناس فى الأعراض والأجسام ؟ " فقال مقالات الفلاسفة عليك بالأثر وطريقة السلف وإياك وكل محدثة فإنها بدعة " . (٢)

يقول أستاذنا الدكتور محمد عبد الستار نصار " وهذا النص يشك فى نسبته إلى أبى حنيفة ، ذلك لأن اصطلاح الأعراض والأجسام لا يمكن أن يكون قد عرف فى هذا الزمن المبكر . وعلى فرض نسبته إليه لا يمكن أن يفهم منه تحريم علم الكلام ، إذا كان يقوم أساسا على الدفاع عن العقيدة الصحيحة التى التزمها سلف الأمة . ومن المحال أن يرى الإمام الأعظم ما

---

١ - رسالة استحسان الخوض فى علم الكلام لأبى الحسن الأشعرى صـ٩٤-٩٥ نشر يوسف مكارثى اليسوى بيروت ١٩٥٣م ضمن كتاب اللمع للأشعرى ملحق علم الكلام تعريفه وعوامل نشأته للدكتور عامر النجار دار المعارف .

٢ - صون المنطق والكلام عن فنى المنطق والكلام جـ١ صـ٩٩ - ١٠٠ للإمام جلال الدين السيوطى تحقيق در على سامى النشار - سلسلة احياء التراث الاسلامى .

يدور حوله من نقاش فى مسائل العقيدة بين تشبيه صرف كالذى نادى به مقاتل بن سليمان وبين إغراق فى التنزيه لدرجة التجريد المحض كما هو مذهب جهم بن صفوان ، ثم يمسك عن الكلام " . (١)

وقد ذكر المؤرخون أنه ناظر فرق الخوارج والشيعة والقدرية والدهرية وخصمهم بالأدلة الباهرة ، وبلغ فى الكلام إلى أن كان المشار إليه بين الأنام واقتضى به تلامذته الأعلام ففى المناقب الكردرية وغيرها عن الإمام خالد بن زيد العمرى أنه كان الإمام أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد وزفر ، وحماد بن أبى حنيفة قد خصموا بالكلام الناس أى ألزموا المخالفين وهم أئمة العلم . وعن الإمام أبى عبد الله الصيرى أن الإمام كان متكلم هذه الأمة فى زمانه وفقيههم فى الحلال والحرام . (٢)

أما عن الإمام مالك فقد كان يعيب المراء والجدل فى الدين ، ويقول : " إياكم والبدع ، قيل : يا أبا عبد الله وما البدع ، قال أهل البدع الذين يتكلمون فى أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان "وكان يقول" من طلب الدين بالكلام تزندق " .

أخرج الهروى من طريق عبد الرحمن بن مهدى قال : دخلت على مالك وعنده رجل يسأله فقال لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد ، لعن الله عمرا فإنه ابتدع هذه البدع من الكلام ، ولو كان الكلام علما لتكلم فيه الصحابة والتابعون كما تكلموا فى الأحكام والشرائع " . (٣)

وكان إذا أتاه بعض أهل الأهواء قال له " أما أنا فعلى بينة من دينى وأما أنت فشاك فاذهب إلى شاك مثلك فخاصمة " وكان يضع الاشتغال بعلم الكلام فى درجة أشنع من ارتكاب الكبائر ، ويطمع فى تجاه مرتكب الكبيرة

---

١ المدرسة السلفية صـ٦٢٧
٢ اشارات المرام من عبارات الامام صـ١٩
٣ صون المنطق للسيوطى صـ٩٦

دون الأول ويطعن على المشتغلين به من أمثال عمرو بن عبيد . ومحمد بن إسحاق لقوله فى القدر ورواياته أحاديث الصفات . ([1])

والإمام الشافعى بالرغم من اشتغاله بعلم الكلام زمنا رويت عنه أقوال كثيرة فى ذمه منها قوله بعد مناظرته مع حفص الفرد : " لقد اطلعت من أهل الكلام على شئ ما توهمته قط ولأن يبتلى المرء بجميع ما نهى الله عنه سوى الشرك خير من أن يبتلى بالكلام " ([2])

وقوله لأبى ثور الذى طلب منه أن يضع فى الكلام شيئا : (من تردى بالكلام لم يفلح) وقوله " لو علم الناس ما فى الكلام لفروا منه كما يفر الإنسان من الأسد "

وقال المزنى : سألت الشافعى عن مسألة من الكلام ، فقال سلنى عن شئ إذا أخطأت فيه قلت أخطأت ولا تسألنى عن شئ إذا أخطأت قلت كفرت".

وقال الشافعى : مذهبى فى أهل الكلام تقنيع رؤوسهم بالسياط وترشيدهم من البلاد " ([3]) .

وقال أيضا " حكمى فى أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم فى القبائل والعشائر ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام " ([4])

كما أخرج النووى فى ذم الكلام من طريق الكرابيسى قال " شهدت الشافعى ودخل عليه بشر المريس فقال لبشر : أخبرنى عما تدعو إليه أكتاب ناطق وفرض مفترض وسنة قائمة وحدث عن المؤلف البحث فيه ؟ فقال : بشر لا إلا أنه لا يسعنا خلافه ، فقال الشافعى أقررت بنفسك على الخطأ فأين أنت من الكلام فى الفقه والأخبار فلما خرج قال الشافعى " لا يفلح "

١- مناقب الامام مالك للزواوى صـ٣٧-٣٨،وانظر تاريخ بغداد جـ١ صـ٢٢٣-صـ٢٢٦.
٢- شرح الطحاوية فى العقيدة السلفية صـ١٤٩ تحقيق أحمد محمد شاكر
٣- صون المنطق صـ١٠٥ - ١٠٦ .
٤- شرح الطحاوية صـ١٤٩ .

واستخلص السيوطى من هذا القول أيضا أن الشافعى يقول بتحريم علم الكلام والعلة فى ذلك هى كونه لم يرد الأمر به فى كتاب ولا سنة ولا وجد عن السلف البحث فيه " (١)

وأما الإمام أحمد بن حنبل فقد ذهب فى ذم الكلام وأهله قائلا : " لست بصاحب كلام ولا أرى الكلام فى شئ من هذا إلا ما كان فى كتاب الله أو حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن أصحابه فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود " وقال أيضا " لا تجالسوا أهل الكلام وإن ذبوا عن السنة " (٢)

وروى عنه فى ذم الكلام أنه قال " لا يفلح صاحب كلام أبدًا ولا ترى أحدا ينظر فى الكلام إلا وفى قلبه مرض ، ويبالغ فى ذمه حتى هجر الحارث المحاسبى مع زهده وورعه لتصنيفه كتابا فى الرد على المبتدعة وقال له ويحك ألست تحكى بدعتهم أولاً وترد عليهم ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالب كلام أهل البدعة والتفكر فيه فيدعوهم كذلك إلى الرأى والبحث . (٣)

وقد نقل الإمام الرازى عن بعضهم أن الاشتغال بعلم الكلام بدعة ، والدليل عليه القرآن والخبر والإجماع وقول السلف والحكم .

أما القرآن فقوله تعالى"ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون"(٤) ذم الجدل ، وقال أيضا " وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره " (٥)

قالوا فأمر بالإعراض عنهم عند خوضهم فى آيات الله تعالى . وأما الخبر فقوله صلى الله عليه وسلم " تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق "

١- صون المنطق صـ١٠٤ .
٢- مناقب الامام أحمد بن حنبل صـ١٥٤ لابن الجوزى تحقيق سعد كريم الفقى دار ابن خلدون .
٣- مفتاح السعادة جـ١ صـ٢٦
٤ - سورة الزخرف آية ٥٨
٥ سورة الأنعام آية ٦٨

وقوله صلى الله عليه وسلم " عليكم بدين العجائز " وقوله صلى الله عليه وسلم " إذا ذكر القدر فأمسكوا " وأما الإجماع فهو أن هذا علم لم تتكلم فيه الصحابة فيكون بدعة فيكون حراما أما أن الصحابة ما تكلموا فيه فظاهر ، لأنه لم ينقل عن أحد منهم أنه نصب نفسه للاستدلال في هذه الأشياء ، بل كانوا من أشد الناس إنكارا على من خاض فيه ، وإذا ثبت هذا ثبت أنه بدعة وكل بدعة حرام بالاتفاق .

وأما الأثر فقد سئل سفيان بن عيينه عن الكلام فقال اتبع السنة ودع البدعة وقال الشافعي : لو أوصى رجل بكتبه العلمية لآخر وكان فيها كتب الكلام لم تدخل تلك الكتب في الوصية .

وأما الحكم فهو أنه لو أوصى للعلماء لا يدخل المتكلم فيه والله اعلم . (١)

وقد أجاب الرازى عن تلك الشبه قائلا " أما قوله ما ضربوه لك إلا جدلا " فهو محمول على الجدل بالباطل ، توفيقا بينه وبين قوله تعالى : " وجادلهم بالتى هى أحسن " (٢) وأمام قوله " وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فاعرض عنهم " فجوابه أن الخوض ليس هو النظر بل الخوض فى الشيء هو اللجاج وأما قوله " تفكروا فى الخالق " فذاك إنما أمر به أن الخوض ليس هو النظر بل الخوض فى الشيء هو اللجاج وأما قوله " عليكم بدين العجائز " فليس المراد منه إلا تفويض الأمور كلها لله تعالى والاعتماد فى كل الأمور على الله وأما قوله " إذا ذكر القدر فامسكوا " فضعيف لأن النهى الجزئى لا يفيد النهى الكلى ، وأما الإجماع فنقول إن عنيتم أن الصحابة لم يستعملوا ألفاظ المتكلمين فسلم لكنه لا يلزم منه القدح فى الكلام ، كما أنهم لم يستعملوا ألفاظ الفقهاء ولا يلزم منه القدح فى الفقه البتة ، وإن عنيتم أنهم ما عرفوا الله ورسوله بالدليل فبئس ما قلتم وأما تشديد السلف

---

١ تفسير الفخر الرازى صـ٤٨٣-٤٨٤ جـ٢ المجلد الأول

٢ سورة النحل آية ١٢٥

على الكلام فمحمول على أهل البدعة ، وأما مسألة الوصية فهى معارضة بما أنه لو أوصى لمن كان عارفا بذات الله وصفاته وأفعاله وأنبيائه ورسله لا يدخل فيه الفقه ولأن مبنى الوصايا على العرف " [1].

بعد عرض أقوال هؤلاء المانعين من الأئمة المجتهدين من الخوض فى مسائل علم الكلام أرى أن هذه المسائل التى تشمل الأمور الاعتقادية كمباحث ذات الله تعالى وصفاته وتوحيده والنبوة والمعاد وغيرها تعتبر أصل العلوم الشرعية ورأسها ومبنى العلوم الدينية وأساسها وأن الإيمان بهذه المسائل ومعرفتها على وجه الإجمال فرض عين على كل مسلم وأما معرفتها على وجه التفصيل فمن فروض الكفايات أو فرض عين على اختلاف فى ذلك بين الحنفية والشافعية فإنه فرض كفاية عند الحنفية وفرض عين عند الشافعية [2]

وقد ورد الإمام الأشعرى على من زعم أن الكلام بدعة وضلالة ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته لم يتكلموا فى الحركة والسكون .

قائلا " والجواب عنه من ثلاثة أوجه : **أحدها** : قلب السؤال عليهم بأن يقال النبى صلى الله عليه وسلم لم يقل أيضا " أنه من بحث عن ذلك وتكلم فيه فاجعلوه مبتدعا ضالاً " فلزمكم أن تكونوا مبتدعة ضلالا إذ قد تكلمتم فى شئ لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضللتم من النبى صلى الله عليه وآله وسلم .

الجواب الثانى : أن يقال لهم أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يجهل شيئا مما ذكرتموه من الكلام فى الجسم والعرض والحركة والسكون والجزء والطفرة وإن لم يتكلم فى كل واحد من ذلك معينا وكذلك الفقهاء والعلماء من

١- تفسير الرازى جـ٢ صـ٤٨٤-٤٨٥ .

٢ - مفتاح السعادة صـ٢٧ .

الصحابة . غير أن هذه الأشياء التى دكتموها معينة أصولها موجودة فى القرآن والسنة جملة غير مفصلة

أما الحركة والسكون والكلام فيهما فأصلهما موجود فى القرآن وهما يدلان على التوحيد وكذلك الاجتماع والافتراق . قال الله تعالى مخبرا عن خليله إبراهيم صلوات الله عليه وسلم فى قصة أفول الكوكب والشمس والقمر " تحريكها من مكان إلى مكان ما دل على أن ربه عز وجل لا يجوز عليه شئ من ذلك وإن من جاز عليه الأفول والانتقال من مكان إلى مكان فليس بإله . " فلما جن عليه الليل رأى كوكبًا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين " (١) وهذه هى طريقة المتكلمين فى الاستدلال بتغيرها على حدوثها . ثم يبين الأشعرى أن الكلام فى التوحيد مأخوذ أيضا من الكتاب قال الله تعالى " لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا " (٢)

وهذا الكلام موجز منبه على الحجة بأنه واحد لا شريك له وكلام المتكلمين فى الحجاج فى التوحيد بالتمانع والتغالب فإنما مرجعه إلى هذه الآية ، وقوله عز وجل " ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض"(٣) وكلام المتكلمين فى توحيد الله إنما مرجعه إلى هذه الآيات وكذلك سائر الكلام فى تفصيل فروع التوحيد والعدل وما يتصل بالإلهيات والنبوات والسمعيات مأخوذ من القرآن الكريم . (٤)

والجواب الثالث : إن هذه المسائل التى سألوا عنها قد علمها رسول الله صلى الله عليه وآله ولم ولم يجهل منها شيئا مفصلا غير أنها لم تحدث

١- سورة الأنعام آية ٧٦ .
٢- سورة الأنبياء آية ٢٢ .
٣- سورة المؤمنون آية ٩١ .
٤ -رسالة استحسان الخوض فى علم الكلام صـ٩٦ ملحق بكتاب علم الكلام للدكتور على النجار

فى أيامه معينة فيتكلم فيها أولا يتكلم فيها وإن كانت أصولها موجودة فى القرآن والسنة . (١)

وكذلك نرى الرازى بعد أن ذكر الأدلة من القرآن على التوحيد والنبوة والمعاد من يقول " وأنت لو فتشت علم الكلام لم تجد فيه إلا تقرير هذه الدلائل والذب عنها ودفع المطاعن والشبهات القادمة فيها ، أفترى أن علم الكلام يذم لاشتماله على هذه الأدلة التى ذكرها الله أو لاشتماله على دفع المطاعن والقوادح عن هذه الأدلة ما أرى أن عاقلا مسلمًا يقول ذلك ويرضى به " . (٢)

من هذا يتبين لنا أن قول الإمام مالك إن صح ما ذكره السيوطى عنه بأن علم الكلام بدعة قول غير مسلم ، لأن أصوله موجودة فى القرآن كما أشرت إلى ذلك من قبل كما أن ادعاء السيوطى تحريم علم الكلام بناء على هذا الفهم ادعاء ينقصه الحجة . ولو سلمنا جدلا أن علم الكلام بدعة فما موقفنا مع أولئك الذين يطلبون الحق فيما أشكل من الآيات والأحاديث ؟ الحق أنه لا يمكن حمل جميع الناس على التسليم والتفويض ولو سلم البعض ما وسع البعض الآخر ذلك لأن طبيعة بعض النفوس استطلاع الأمور واستخبارها حتى ولو لم يكن فى وسعهم الوصول إلى الحقائق النهائية فى ذلك ولو سكنت ألسنة هؤلاء عن الخوض فى الشكل فكيف تسكن القلوب عن عروض الوساوس والشك وسبق الوهم ؟ ولو سلمنا أن السكوت عن الجواب يكفى به فى حق المسلم فكيف يكتفى به فى حق المنازع من مبتدع وكافر أو متمسك بعقائد ضالة كالمجسمة والمشبهة (٣).

المصدر نفسه صـ١٠١

٢ - تفسير الرازى المجلد الأول صـ٤٧٤ جـ٢ .

٣ - المدرسة السلفية صـ٦٢٩ جـ٢ د/ محمد نصار .

أما ما نسب إلى الإمام الشافعى أنه حرم الاشتغال بعلم الكلام فمـردود عليـه . فمن ذلك ما روى عن مناقشة الشافعى لبشر المريس فى مجلس الرشيد يبيـن استعمال الشافعى لطريقة علم الكلام فى إثبات دلائل التوحيد والنبوة . [1] هذا فضلا عن الآراء التى أدلى بها فى مسائل من علم الكلام .

وقد ذكر ابن عساكر فى تبيين كذب المفـترى أن الشـافعى كـان يتكلـم عن كلام فحص الفرد الذى ناظره وكلام أمثالـه " مـن أصحـاب الأهويـة ومـا يزخرفه أرباب البدع المردية ، فأما الكـلام الموافـق للكتـاب والسـنة الموضـح لحقائق الأصول عند ظهور الفتنة فهو محمود عند العلماء ومن يعلمه وقد كان الشافعى يحسنه ويفهمه وقد تلكم من غير واحد ممن ابتدع وأقام الحجـة عليـه حتى انقطع " [2]

ويحمل الجلال المحلى نهى الشافعى على غير المتأهلين ممـن يخشـى عليهم من الخوض فيه . [3]

ويذكر البياضى أن النهى متوجـه إلـى التفكير بمجـرد العقـول مـن غيـر أخـذ بالمنقول . [4]

أما الإمام الرازى فله تحقيق دقيق طويـل فـى توجيـه أقـوال الشـافعى إلى التجويز يقول : وطريق ذلك أن يحمل طعن الشافعى رحمه اللـه فـى علـم الكلام على تأويلات .

الأول : أن الفتن العظيمة وقعت فـى ذلـك الزمـان بسـبب خـوض النـاس فـى مسألة القرآن وأهل البدع استعانوا بالسلطان وقهروا أهل الحق ولم يلتفتوا إلـى دلائل المحقين . فلما عرف الشافعى أن البحث عن هذا العلم فى ذلـك الزمـان

---

١ - مناقب الامام الشافعى للرازى صـ٦٦،٦٥
٢ - تبيين كذب المفترى لإبن عساكر صـ٣٣٩
٣ - اليواقيت والجواهر للشعرانى جـ١ صـ٢٦
٤ - إشارات المرام للبياضى صـ٤٢

ليس لطلب الحق وليس لله وفى الله بل لأجل الدنيا والسلطنة فلا جرم أن تركه وأعرض عنه وذم من أشتغل به .

والثانى : أن يصرف ذلك الذم إلى الكلام الذى كان أهل البدعة ينصرونه ويقررونه ، فقد كان أهل البدع هم الذين يشتغلون بعلم الكلام فى زمن المجتهدين فإن فى ذلك الزمان كان الكلام اسما للمتكلم فى الاعتزال والقدر

والثالث : لعله كان من مذهبه أن الاكتفاء بالدلائل المذكورة فى كتاب الله عز وجل واجب وأن الزيادةعليها والتوغل فى المضايق التىلاسبيل للعقل إلى الخوض فيها غيرجائز فلهذا فى ذم من حاول الخوض فى تلك الدقائق" ([1])

ولعل أوضح دليل على أن الشافعى لم يرد تحريم إذا قام على أساس من الدفاع عن العقيدة ضد المنحرفين من أهل الملة ومن ماثلهم من أهل الملل الأخرى أنه قد وردت عنه روايات أخرى تثبت اشتغاله بعلم الكلام ، من ذلك ما ذكره البغدادى فى أصول الدين أن الشافعى اشتغل بعلم الكلام جدلا مناظرة ، وألف فيه كتابين ، أحدهما فى تصحيح النبوة والرد على البراهمة ، والثانى فى الرد على أهل الأهواء ([2])

كما توصل الشيخ مصطفى عبد الرازق فى تحليله للرسالة إلى أن من أهم مظاهر التفكير الفلسفى فيها الإيماء إلى مباحث من علم الأصول تكاد تهجم على الإلهيات أو علم الكلام كالبحث فى العلم وأن هناك حقا فى الظاهر والباطن ، وحقا فى الظاهر دون الباطن ، وقد استدل الشافعى على حجية السنة وما دونها من الأصول فلفت الأذهان إلى حجية القرآن نفسه وهى مسألة وثيقة الصلة بأبحاث المتكلمين . ([3])

١ مناقب الشافعى للرازى صـ٦٤،٦٥ .
٢ - أصول الدين للبغدادى صـ٣٠٨ دار الكتب العلميه - بيروت - لبنان .
٣ - الشيخ مصطفى عبد الرازق تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية صـ٢٤٥ .

وقد ذكر الإسفراييني أن الشافعي ناظر بشر المريس في القدر وأورد له شعرا في ذلك منه .

ما شئت كان وإن لم أشأ وما شئت إن لم تشأ لم يكن
خلقت العباد على ما علمت ففي العلم يجري الفتى والمسن
على ذا مننت وهذا خذلت وهذا أعنت وذا لم تعن
فمنهم شقي ومنهم سعيد وهذا قبيح وهذا حسن [١]

كما كان للشافعي رأي في الصفات ، وهو أنها ليست مغايرة للذات ، وقد ذكر الرازي في مناقب الشافعي أنه كان يقول : " إن من حلف بعلم الله أو بحق الله إن أراد بعلم الله معلومه أو بقدر الله مقدوره ، وبحق الله ما وجب على العباد ، فهذا لا يوجب الكفارة لأن هذا حلف بغير الله وإن أراد به الحلف بصفات الله ، فهذا يوجب الكفارة . ويستنتج الرازي من هذا أن صفات الله عند الشافعي ليست أغيار الذاته . [٢]

مما سبق ستبين لنا أن الشافعي لم يحرم علم الكلام كما فهمه السيوطي وإنما حرم تعطيل ما جاء به الكتاب والسنة من بعض أصول العقيدة ولقد كان الشافعي كما يقول الدكتور-النشار أصدق معبر عن روح الإسلام بوضعه أصول الفقه . [٣]

ونرى ابن تيمية أيضا ينكر على من يقول إن السلف لم يبينوا أصول الدين ولم يخوضوا في مسائل العقيدة وأنهم كانوا يذمون الكلام والجدل في ذلك قائلا : " والسلف لم يذموا جنس الكلام ولا ذموا الاستدلال والنظر والجدل الذي أمر الله به ورسوله والاستدلال بما بينه الله ورسوله ولازموا

---

١ - التبصير في الدين صـ٥٩ تأليف الإمام المظفر الاسفراييني مطبعة الأنوار سنة ١٣٥٩ هـ سنه ١٩٤٠م الطبعة الأولى

٢- در علي سامي النشار : نشأة التفكير الفلسفي في الاسلام جـ١ صـ٢٤٦ درا المعارف الطبعة الثامنة .

٣- المصدر السابق جـ١ صـ٢٤٧

كلاما هو حق بل ذموا الكلام بالباطل وهو المخالف للكتاب والسنة والمخالف للعقل أيضا وهو الباطل " .(١)

وما نقل عن بعض السلف من الطعن فيه والمنع عنه فإنما هو للمتعصب فى الدين والقاصر عن تحصيل اليقين ، والقاصد إلى إفساد عقائد المسلمين والخائض فيما لا يفتقر إليه من غوامض المتفلسفين وإلا فكيف يتصور المنع عما هو أصل الواجبات وأساس المشروعات. (٢)

ويقول أستاذنا الدكتور يحيى هاشم " وأما ما استند إليه المانعون فى ذم علم الكلام من أنه لم يشتغل به الصحابة ، فلست أراه كان كافيا فى إقناع الكثيرين بالكف عنه .

ذلك لأن علم الكلام ظهر فى وقت كانت فيه بوادر العلوم الأخرى تظهر ، والحاجة إليها جميعا تتبين ، فقد عاش فى عهد المنصور العباسى واضعو العلوم اللغوية ، سيبويه والخليل ، والكسائى وفى سنة ١٤٣هـ كما يروى الذهبى بدأ علماء المسلمين يضعون مؤلفات تتناول الأحاديث والفقه وتفسير القرآن ، ومن المعروف ان الصحابة لم يشتغلوا بشيء من هذه العلوم على الوجه الذى ظهرت به كعلوم متخصصة أو شبه متخصصة ولو صح أن عدم اشتغالهم بعلم الكلام كاف فى منعه لكان ذلك صحيحا أيضا بالنسبة لهذه العلوم ، ويلم يقل بذلك أحد من مانعى الاشتغال بعلم الكلام .

وأما أن السلف الصالح – بعد عصر الصحابة – لم يشتغل بهذا العلم بل صرح بمنعه منهم كثيرون فلست أرى أحدا كان مقتنعا بأن هذا فى ذاته حجة لأن كثيرا من السلف أخرجوا من دائرة من يحتج به لمجرد اشتغالهم بهذا العلم بالرغم مما أثر عن بعضهم من صلاح وتقوى ، فكان فى هذا

١- ابن تيمية مجموعة الرسائل الكبرى صـ١١٠ من رسالة الفرقان بين الحق والباطل مكتبة أنس بن مالك . سنه ١٤٠٠ هـ .

٢- شرح العقائد النسفية صـ١٢ .

الاحتجاج مصادرة فحواها : أن الاشتغال بهذا العلم غير جائز لأن السلف الصالح لم يشتغل به وهؤلاء الذين اشتغلوا به من أمثال عمرو بن عبيد ليسوا من السلف الصالح بسبب أنهم اشتغلوا به . ومثل هذا الكلام فيه مصادرة على المطلوب فلا يصح الاحتجاج به (١)

ثم نرى الرازى يبين أن تحصيل هذا العلم من الأمور الواجبة فيقول : " المقام الثانى فى بيان أن تحصيل هذا العلم من الواجبات ، ويدل عليه المعقول والمنقول . أما المعقول فهو أنه ليس تقليد البعض أولى من تقليد البعض دون البعض فيلزم أن يصير الرجل مكلفا بتقليد البعض دون البعض من غير أن يكون له سبيل إلى أنه لم لم يبق إلا هذه الطريقة النظرية ، وأما المنقول فيدل عليه الأيات والأخبار .

أما الآيات : فأحدها : قوله تعالى " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن " (٢) ولاشك أن المراد بقوله " بالحكمة " أى بالحجة والبرهان ، فكانت الدعوة بالحجة والبرهان إلى الله تعالى مأمورا بها وقوله " وجادلهم بالتى هى أحسن " ليس المراد منه المجادلة فى فروع الشرع لأن من أنكر نبوته فلا فائدة فى الخوض معه فى تفاريع الشرع ومن أثبت نبوته فإنه لا يخالفه فعلمنا أن هذا الجدل كان فى التوحيد والنبوة ، فكان الجدال فيه مأمورا به ثم إنا مأمورون بإتباعه صلى الله عليه وسلم لقوله كما حكى القرآن الكريم (فاتبعونى يحببكم الله."(٣) ولقوله تعالى" لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة "(٤) فوجب كوننا مأمورين بذلك الجدال .

١- عوامل واهداف نشأة علم الكلام فى الاسلام صـ٨٤ .
٢- سورة النحل آية ١٢٥ .
٣- سورة العمران آية ٣١ .
٤- سورة الأحزاب آية ٢١

وثانيها : قوله تعالى:" ومن الناس من يجادل في الله بغير علم "(1) ذم من يجادل في الله بغير علم ، وذلك يقتضي أن المجادل بالعلم لا يكون مذموما بل يكون ممدوحا وأيضا حكى الله تعالى ذلك عن نوح في قوله تعالى" يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا " . (2)

وثالثها : ان الله تعالى أمر بالنظر فقال " أفلا يتدبرون القرآن " (3) " أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت " (4) " سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم " (5) .

ورابعها : ان الله تعالى ذكر التفكر في معرض المدح فقال " . لآيات لأولي الألباب " (6).

وخامسها : أنه تعالى ذم التقليد فقال حكاية عن الكفار" إنا وجدنا آباءنا على أمة وأيا على آثارهم مقتدون"(7) .

وكل ذلك يدل على وجوب النظر والاستدلال والتفكر وذم التقليد فمن دعا إلى النظر والاستدلال كان على وفق القرآن ودين الأنبياء ، ومن دعا إلى التقليد كان على خلاف القرآن وعلى وفاق دين الكفار " . (8)

وأما الأخبار فكثيرة ولنذكر منها وجوها :-

أحدها : ما روى الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : " جاء رجل من بني فزارة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن امرأتي وضعت غلاما أسود فقال له هل لك من إبل فقال نعم قال فما ألوانها

---

١ سورة الحج آية ٣ .

٢ - سورة هود آية ٣٢ .

٣ - سورة النساء آية ٨٢ .

٤ - سورة الغاشية آية ١٧ .

٥- سورة فصلت آية ٥٣ .

٦ - سورة آل عمران آية ١٩٠ .

٧- سورة الزخرف آية ٢٣ .

٨ تفسير الرازي صـ٤٧٨ جـ٢

قال حمر قال فهل فيها من أورق قال نعم قال فأنى ذلك قال عسى أن يكون قد نزعه عرق قال وهذا عسى أن يكون نزعه عرق " واعلم أن هذا هو التمسك بالإلزام والقياس.

وثانيها : عن أبي هريرة قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قال الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له أن يكذبنى ، وشتمنى ابن آدم ولم يكن له أن يشتمنى أما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول خلقه بأهون على من إعادته وأما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الله الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوا أحد " فانظر كيف احتج الله تعالى فى المقام الأول بالقدرة على الابتداء ، على القدرة على الإعادة ، وفى المقام الثانى احتج بالأحدية على نفى الجسمية والوالدية والمولودية .

وثالثها : روى عبادة بن الصامت أنه صلى الله عليه وسلم قال : " من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه " فقالت عائشة يا رسول الله إنا نكره الموت فذاك كراهتنا لقاء الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم " لا ، ولكن المؤمن أحب لقاء الله فاحب الله لقاءه ، والكافر كره لقاء الله فكره الله لقاءه " .

وكل ذلك يدل على أن النظر والفكر فى الدلائل مأمور به . (١)

وابن عساكر فى كتابه تبين كذب المفترى يروى عن الإمام القشيرى قوله " والعجب ممن يقول ليس فى القرآن علم الكلام ، والآيات المنبهة على علم الأصول نجدها توفى على ذلك وتربى بكثير " (٢)

ويقول صاحب البرهان " اعلم ان القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة ، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شئ من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به ، لكن أورده

١- المصدر السابق جـ٢ صـ٤٧٨-٤٧٩

٢ تبيين كذب المفترى صـ٣٥٩

تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين " ثم يقول " واعلم أنه قد ظهر منه بدقيق الفكر استنباط البراهين العقلية على طرق المتكلمين " ([١])

وفى الجملة لا يجحد علم الكلام إلا أحد رجلين جاهل ركن إلى التقليد وشق عليه سلوك طرق أهل التحصيل وخلا عن طرق أهل النظر والناس أعداء ما جهلوا فلما انتهى عن التحقيق بهذا العلم نهى الناس ليضلوا كما ضل ، أو رجل يعتقد مذاهب فاسدة فينطوى على بدع خفية يلبس على الناس عوار مذهبه ويعمى عليهم فضائح عقيدته ويعلم أن أهل التحصيل من أهل النظر هم الذين يهتكون الستر عن بدعهم ويظهرون للناس قبح مقالاتهم ([٢])

---

١ - البرهان فى علوم القرآن جـ٢ صـ٢٤-٢٥ للامام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعرفة - بيروت - لبنان الطبعة الثانية .

٢ تبيين كذب المفترى لابن عساكر صـ٣٥٩

الفصل الثانى

تاريخ علم الكلام

تبين لنا مما أسلفنا أن العبارات المختلفة فى تعريف علم الكلام متفقة على أن هذا العلم يعتمد على البراهين العقلية فيما يتعلق بالعقائد الإيمانية ، وهذا المعنى أى البحث فى العقائد الإسلامية اعتمادا على العقل هو الذى نريده عند البحث فى تاريخ علم الكلام .

واستيفاء القول فى هذا الباب يستدعى الإلمام بتقرير العقائد الروحية فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام وفى عهد الخلفاء الراشدين من بعده ، وفيما تلا ذلك إلى عهد التدوين فى علم الكلام ثم نتتبع الأدوار التى مر بها علم الكلام منذ تدوينه .

المبحث الأول : تقرير العقائد الدينية فى عهد الرسول عليه السلام

يقول الإمام محمد عبده " هذا النوع من العلم – علم تقرير العقائد وبيان ما جاء فى النبوات – كان معروفا عند الأمم قبل الإسلام ؛ ففى كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعلمون لحفظه وتأييده وكان البيان من أول وسائلهم إلى ذلك لكنهم كانوا قلما ينحون فى بيانهم نحو الدليل العقلى وبناء آرائهم وعقائدهم على ما فى طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون ، بل كانت منازع العقول فى العلم ومضارب الدين فى الإلزام بالعقائد وتقربها من مشاعر القلوب على طرفى نقيض

ثم يقول " وكثيرا ما صرح الدين على لسان رؤسائه أنه عدو العقل نتائجه ومقدماته فكان جل ما فى علوم الكلام تأويل وتفسير وإدهاش بالمعجزات أو إلهاء بالخيالات يعلم ذلك من له المام بأحوال الأمم قبل البعثة الإسلامية

ثم بين الإمام أنه عندما جاء القران فنهج بالدين منهجًا لم يكن عليه ما سبقه من الكتب المقدسة ، منهجًا يمكن لأهل الزمن الذى أنزل فيه ولمن يأتى بعدهم أن يقوموا عليه ، فلم يقتصر الاستدلال على نبوة النبى صلى الله عليه وسلم بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة ، بل جعل الدليل فى حال النبى صلى الله عليه وسلم بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة ، بل جعل الدليل فى حال النبى مع نزول الكتاب عليه فى شأن من البلاغة البلغاء عن محاكاته فيه ولو فى مثل أقصر سورة منه ، وقص علينا من صفات الله ما أذن لنا أو ما أوجب علينا أن نعلم ، لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ولكنه أقام الدعوى وبرهن ، وحكى مذاهب المخالفين وكسر عليها بالحجة .

وخاطب العقل ، واستنهض الفكر وعرض نظام الأكوان وما فيها من الإحكام والإتقان على أنظار العقول ، وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه ، حتى إنه فى سياق قصص أحوال السابقين كان يقرر أن للخلق سنة لا تغير وقاعدة لا تتبدل . " فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله " . (١)

وتآخى العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس على لسان نبى مرسل وتقرر أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل كالعلم بوجود الله وبقدرته على إرسال الرسل وعلمه بما يوحى به إليهم ، وإرادته لاختصاصهم برسالته وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة ، وكالتصديق بالرسالة نفسها ، كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشيء قد يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل . (٢)

---

١ - سورة الروم آية ٣٠ .

٢ رسالة التوحيد صـ [illegible] وما بعدها

وينتهي الإمام إلى أنه قد مضى زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو المرجع في الحيرة ، والسراج في ظلمات الشبهة " . (١)

وفي هذه الفترة من صدر الإسلام – فترة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كان القرآن وكان الرسول في أحاديثه : يلبيان حاجات الأمة ، اعتقاديه كانت أو تشريعية أو خلقية وكانت الأسئلة تترى موجهة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيجيب عنها الوحي القرآني تارة وتجيب عنها أحاديث الرسول تارة أخرى ، وأسئلة المجتمع إذ ذاك لم تكن تنتهي إلى حد ، وكانوا يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم في كل صغيرة وكبيرة .

فقد سألوه عن الروح ، وسألوه في القدر وسألوه عن الأزال وسألوه عن المصير وسألوه عن الله وعن الإيمان والإسلام والإحسان ، والساعة . وسألوه عن الخمر والميسر ، والمأكل والمشرب والأهلة والمحيض وسألوه عن كل ما كان يجول في أذهانهم وكان القرآن سجلا يصور الكثير من الأسئلة ويعطي الإجابة عنها . وها هي آيات متتالية من سورة البقرة توضح هذه الفكرة : " يسألونك ماذا ينفقون ، قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير

---

(١) المرجع السابق صـ٩

ومنافع للناس وأثمهما أكبر من نفعهما. ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة .ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم . ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون . ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين " (1)

وقد ورد لفظ " يسألونك " في القرآن الكريم تعبيرا عن سؤال الصحابة للرسول صلى الله عليه وسلم وإجابته لهم بما أوحاه الله إليه ١٥ مرة ، ورد منها في الآيات السابقة في سورة البقرة ٦ مرات .

وبذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المرجع الذي يرجع إليه الحائر لإزالة حيرته ، والمقصد الذي يقصده السائل الذي يلتمس عنده الإجابة عن سؤاله ، ويلجأ إليه المضطرب الذي يطلب الأمن والأمان ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يجيب كلا بما يناسب حالته ويشفي علته ، وكان الوحي الإلهي ينزل على قلب النبي صلى الله عليه وسلم حاسمًا لكل شبهة وقاطعًا رأي خلاف ومجيبا عن أي سؤال .

يقول ابن قيم الجوزية " أن الصحابة كانوا يخوضون مع الرسول صلى الله عليه وسلم في دقائق المسائل ، ويتفهمون عنه حقائق الإيمان ، ولا

---

(1) سورة البقرة: الآيات (٢١٥ - ٢٢٠)

يقتصرون على مسائل العمل ، وكانوا يوردون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يشكل عليهم من الأسئلة والشبهات فيجيبهم عنها بما يثلج صدورهم وقد أورد عليه صلى الله عليه وسلم الأسئلة أعداؤه وأصحابه أعداؤه للتعنت والمغالبة وأصحاب للفهم والبيان وزيادة الإيمان ، وهو يجيب كلا على سؤاله إلا ما لا جواب عنه كسؤال عن وقت الساعة " (١) وقد بعث محمد عليه الصلاة والسلام بدين وشريعة أما الدين فقد استوفاه الله كله فى كتابه الكريم ووحيه ، ولم يكل الناس إلى عقولهم فى شيء منه وأما الشريعة فقد استوفى أصولها ثم ترك للنظر الإجتهادى تفصيلها . (٢)

وجاء فى القرآن المجيد " اليوم اكملت لكم دينكم وأتمت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا " (٣).

" نزلت هذه الآية فى يوم جمعة وكان يوم عرفة بعد العصر فى حجة الوداع سنة عشر ورسول الله واقف بعرفة على ناقته العضباء فكاد عضد الناقة ينقد من ثقلها فبركت " . (٤)

قال الفخر الرازى " إنه لما نزلت هذه الآية على النبى صلى الله عليه وسلم لم يعمر بعد نزولها إلا واحدا وثمانين يوما أو اثنين وثمانين يوما ، ولم يحصل فى الشريعة بعدها زيادة ولا نسخ ولا تبديل البتة ، وكان ذلك جاريا مجرى إخبار النبى صلى الله عليه وسلم عن قرب وفاته وذلك إخبار عن الغيب فيكون معجزا .

ومما يؤكد ذلك ما روى أنه صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية على الصحابة فرحوا جدا وأظهروا السرور العظيم إلا أبا بكر رضى الله عنه

---

١ - زاد المعاد جـ٢ صـ٥٧ .
٢ - تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للشيخ مصطفى عبد الرازق صـ٢٧٠ .
٣ - سورة المائدة آية ٣ .
٤- تفسير القرطبى صـ١٥٩، جـ٣ .

فإنه بكى فسئل عنه فقال : هذه الآية تدل على قرب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه ليس بعد الكمال إلا الزوال (١)

ثم يقول الرازى " ومعنى أتممت عليكم نعمتى بإكمال أمر الدين والشريعة كأنه قال : اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى بسبب ذلك الإكمال لأنه لا نعمة أتم من نعمة الاسلام " (٢)

وقد بعث محمد صلى الله عليه وسلم بدين الإسلام داعيا إلى الوحدة فى الدين وإلى التآلف ناهيا عن الفرقة ، كما فى آيات كثيرة من القرآن ، منها : " أن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون " (٣)

وكان على القرآن أن يجادل مخالفيه من أرباب الأديان والملل فى العرب ردا للشبهات التى كانوا يثيرونها حول عقائد الدين الجديد على أنه كان لا يمد فى حبل الجدل حرصا على الألفة ، وكثيرا ما تختم آيات الجدل بمثل قوله " فإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون " (٤)

هذا الجدل فى العقائد عرض له القرآن للحاجة وعلى مقدارها ، من غير أن يشجع المسلمين على المضى فيه ، بل هو قد نفرهم منه فى مثل قوله " ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فاغرينا بينهم العدواة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون " . (٥)

١- تفسير الرازى صـ٥٦٥ ، جـ١٠ مـ٥ .
٢ المصدر السابق جـ١٠ مـ٥ صـ٥٦٦ .
٣ - سورة الأنعام آية ١٥٩ .
٤ - سورة الحج آية ٦٨-٦٩ .
٥ - سورة المائدة آية ١٥ .

جاء فى كتاب مختصر جامع بيان العلم " وعن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمى فى قوله " فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء ، قال : " الخصومات بالجدل فى الدين " وهذا يتفق مع قول كثير من المفسرين كالزمخشرى والبيضاوى .

كان لهذه المعانى الدينية التى قررها الإسلام منذ نشأته أثرها العظيم فى توجيه النظر العقلى عند المسلمين فى عهدهم الأول فكرهوا البحث والجدل فى أمور الدين دون أمور الأحكام الفقهية . (١)

وفى كتاب " تأويل مختلف الحديث " لإبن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦هـ بصدد الطعن على المختلفين فى أصول الدين : " قال أبو محمد : لو كان اختلافهم فى الفروع والسنن لإتسع لهم العذر عندنا ، وإن كان لا عذر لهم مع ما يدعون لأنفسهم كما اتسع لأهل الفقه ووقعت لهم الأسوة بهم ؛ ولكن اختلافهم فى التوحيد وفى صفات الله تعالى وفى قدراته وفى نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار وعذاب البرزخ ، وفى اللوح ، وفى غير ذلك من الأمور التى لا يعلمها إلا نبى يوحى من الله تعالى " (٢)

فالمسلمون فى الصدر الأول كانوا يرون ألا سبيل لتقرير العقائد إلا بوحى أما العقل فمعزول عن الشرع وأنظاره كما يقول ابن خلدون .

وكانوا يرون أن التناظر والتجادل فى الإعتقاد يؤدى إلى الإنسلاخ من الدين فقررت عقائد الدين فى القرآن الكريم المقطوع به فى الجملة والتفصيل .

وقد عرض القرآن للرد على من جادلوا فى بعض ما جاء به من العقائد بأساليب تناسب حالهم مثل " أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين فمن حاجك فيه من بعد جائك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم

١- تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية صـ٢٧١ للشيخ مصطفى عبد الرازق
٢- تأويل مختلف الحديث صـ١٣ ، ١٤ لابن قتيبة مكتب المتنبى بالقاهر

وأنفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين أن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين". ([1])

وبين فى هذا الأسلوب من الرغبة عن إطالة حبل الجدل ومهما يكن فى القرآن من تعرض للجدل ومن دعوة إلى الجدل برفق عند الحاجة فى مثل قوله " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن أن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين " ([2])
فإن القرآن ليس كتابا جدليا ولم تقم دعوته إلى الإيمان على الجدل .

وقد مضى زمن النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون على عقيدة واحدة هى ما جاء فى كتاب الله ، لأنهم كما يقول طاشى طبرى زادة : " أدركوا زمان الوحى وشرف صحبة صاحبه وأزال نور الصحبة عنهم ظلم الشكوك والأوهام .

قال المقريزى فى خططه " إعلم أن الله تعالى لما بعث من العرب نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا إلى الناس جميعا ، وصف لهم ربهم سبحانه وتعالى بما وصف نفسه الكريمة فى كتابة العزيز الذى نزل به على قلبه صلى الله عليه وسلم الروح الأمين ، وبما أوحى إليه ربه تعالى فلم يسأله أحد من العرب بأسرهم قرويهم وبدويهم عن معنى شيء من ذلك كما كانوا يسألونه صلى الله عليه وسلم الروح الأمين ، وبما أوحى عليه ربه تعالى فلم يسأله أحد من العرب بأسرهم قرويهم وبدويهم عن معنى شيء من ذلك كما كانوا يسألونه صلى الله عليه وسلم عن أمر الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك مما له فيه أمر ونهى وكما سألوه صلى الله عليه وسلم عن أحوال القيامة والجنة والنار ، ولو سأله إنسان منهم عن شيء من الصفات الإلهية

---
[1] سورة آل عمران آية ٥٩-٦٣ .
[2] سورة النحل آية ١٢٥ .

لنقل كما نقلت الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وسلم فى أحكام الحلال والحرام ، وفى الترغيب والترهيب وأحوال القيامة والملاحم والفتن ونحوذلك مما تضمنته كتب الحديث مجامعها ومسانيدها وجوامعها"

ويوضح المقريزى هذا المعنى قائلا " ومن أمعن النظر فى دواوين الحديث النبوى ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرو قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى شيء مما وصف الرب سبحانه وتعالى به نفسه الكريمة فى القرآن الكريم وعلى لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام فى الصفات ، نعم ولا فرق أحد منهم بين كونها صفه ذات أو صفة فعل ، وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام والعظمة ، وساقوا الكلام سوقا واحدا .

وهكذا أثبتوا رضى الله عنهم ما أطلقه الله سبحانه على نفسه الكريمة من الوجه واليد ونحو ذلك مع نفى مماثلة المخلوقين فأثبتوا رضى الله عنهم بلا تشبيه ونزهوا من غير تعطيل ، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم إلى تأويل شيء من هذا ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت .

ثم يبين المقريزى أنه " لم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى وعلى إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم سوى كتاب الله ولا عرف أحد منهم شيئا من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة وأن عصر الصحابة رضى الله عنهم قد مضى على هذا " (١)

ويرى ابن تيمية أن القرآن قرر أصول الدين وقرر دلائلها وبراهينها والمبتدعة يخالفون ما فى القرآن من أصول الإعتقاد ومن أدلتها السمعية

(١) الخطط للمقريزى جـ٤ صـ١٨٠ - ١٨١ نقلا عن تمهيد لتاريخ الفلسفه صـ٢٧٣-٢٧٤

والعقلية قال فى كتاب النبوات : " قد ذكرنا فى غير موضع أن أصول الدين الذى بعث الله به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، قد بينها الله فى القرآن أحسن بيان وبين دلائل الربوبية والوحدانية ودلائل أسماء الله وصفاته ، وبين دلائل نبوة أنبيائه وبين المعاد ، بين قدرته عليه فى غير موضع ، وبين وقوعه بالأدلة السمعية والعقلية فكان بيان أصول الدين الحق وهو دين الله وهى أصول ثابتة صحيحة معلومة ، فتضمن بيان العلم النافعوالعمل الصالح الهدى ودين الحق ، وأهل البدع الذين ابتدعوا أصول دين يخالف ذلك وليس فيما ابتدعوه لا هدى ولا دين حق فابتدعوا ما زعموا أنه أدلة وبراهين على إثبات الصانع وصدق الرسول وامكان المعاد أو وقوعه . وفيما ابتدعوه ما خالفوا به الشرع وكل ما خالفوه من الشرع فقد خالفوا فيه العقل أيضا فإن الذى بعث الله به محمدا وغيره من الأنبياء وهو حق وصدق وتدل عليه الأدلة العقلية فهو ثابت بالسمع والعقل والذين خالفوا الرسل ليس معهم لا سمع ولا عقل " . (١)

معنى ذلك أنه لم يكن بين المسلمين فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ظاهر وروى عنهم فى مدة مرض النبى صلى الله عليه وسلم خلاف فى أمور اجتهادية لا تتصل بمسائل العقائد .

يقول الشهرستانى : " وأما الاختلافات الواقعة فى حال مرضه عليه السلام وبعد وفاته بين الصحابة رضى الله عنهم ؛ فهى اختلافات اجتهادية ، كما قيل كان غرضهم منها : إقامة مراسم الشرع وإدامة مناهج الدين .

فأول نزاع وقع فى مرضه عليه السلام فيما رواه الامام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى باسناده عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال ولما اشتد بالنبى صلى الله عليه وسلم مرضه الذى مات فيه قال : ائتونى بدواه وقرطاسب اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعدى " فقال عمر رضى

---

١ - النبوات صـ١٤٥ ادارة المنيرية سنه ١٣٤٦هـ .

الله عنه " أن رسول الله قد غلبه الوجع ، حسبنا كتاب الله " وكثر اللغط فقال النبى صلى الله عليه وسلم" قوموا عنى لا ينبغى عندى التنازع". قال ابن عباس"الرزية كل الزرية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ([1])

يرى بعض العلماء أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاتيان بالدواة إنما كان للتعليم والتوجيه إلى الاستمساك بدينهم.وليس للوجوب أو للقضاء وذلك لأن هناك أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بعدم الكتابة فى غير القرآن لا تكتبوا عنى غير القرآن ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه .

ولأن عمر رضى الله عنه كان يقدس القدوة برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال فى شأن الحجر الأسود لولا أننى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك .

وهو الذى انساق بسرعة مع أبى بكر حينما اختلفا فى قتلا مانعى الزكاة عندما ذكره ابو بكر بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم " أمرت أن قاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ... " .

ولأن ابن عباس كان حاجزا على إحدى روايات الحديث فلماذا لم يحضر بنفسه دواة وقرطاس رغم شهرته بتسجيل ما يصدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم فدل ذلك على أن الأمر ليس للوجوب بل للإرشاد ([2])

وقد روى الإمام مسلم عن طلحة قال : " سألت عبد الله بن أبى أوفى هل أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال لا ، قلت فلم كتب على

---

[1] الملل والنحل للشهرستانى جـ١ صـ٢٩ تحقيق د/ محمد بن فتح الله بدران الناشر مكتبة الأنجلو المصرية

[2] الفلسفة الحديثة فى الميزان وتأسيس القواعد من القرآن صـ١٧٤

المسلمين الوصية ؟ أو فلم أمروا بالوصية ، قال : أوصى بكتاب الله عز وجل " . (١)

وقد جاء فى خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع قبل مرض ههذا بأيام بعد نزول قوله تعالى " اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ... " تركت فيكم ما أن تمسكتم به فلن تضلوا بعده كتاب الله ألا هل بلغت اللهم فأشهد ". (٢)

وكاختلافهم فى التخلف عن جيش أسامة ، فقال قوم بوجوب الإتباع لقوله عليه السلام " لعن الله من تخلف عنه وقال قوم بالتخلف انتظار لما يكون من رسول فى مرضه .

ورويت عنهم ألوان من الجدل ، نهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها . جاء فى كتاب " صون المنطق والكلام عن فنى المنطق والكلام " للسيوطى :-

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه ذات يوم وهم يتراجعون فى القدر فخرج مغضبا حتى وقف عليهم فقال : يا قوم بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض وأن القرآن لم ينزل لتضربوا بعض ببعض ولكن نزل القرآن فصدق يعض بعضا ما عرفتم منه فاعلموا به وما تشابه فآمنوا بـه " واخرج عن أبى هريرة قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع فى القدر فغضب حتى احمر وجهه ثم قال أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حتى تنازعوا فى هذا الأمر عزمت عليكم ألا تنازعوا " .

---

١ صحيح مسلم جـ٦ صـ٩٨ كتاب الوصية باب ترك الوصية لمن ليس له شىء .

٢ الفلسفة الحديثة فى الميزان صـ١٧٥ د/ محمد بن فتح الله بدران الناشر مكتبة القاهرة الحديثة الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩م .

وأخرج عن أبى الدرداء وأبى أمامة وأنس بن مالك ووائلة بن الأسقع قالوا : خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع فى شيء من الدين فغضب غضبًا شديدًا لم يغضب مثله ثم انتهزنا وقال يا أمة محمد لا تهيجوا على أنفسكم وضح النهار ثم قال أبهذا أمرتكم أو ليس عن هذا نهيتكم إنما هلك من كان قبلكم بهذ . ثم قال ذروا المراء لقلة خيره ذروا المراء .

فإن نفعه قليل ويهيج العداوة بين الإخوان . ذروا المراء فإن المراء لا تؤمن فتنة ذروا المراء فإن المراء يورث الشك ويحيط العمل ذروا المراء فإن المؤمن لا يمارى فكفى بك إثما أن لا تزال ممارياً ذروا المراء فإن الممارى لا أشفع وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق ذروا المراء فإنه أول ما نهانى الله عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ، ذروا المراء فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد ولكن رضى بالتحريش وهو المراء فى الدين ذروا المراء فإن بنى اسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين فرقة والنصارى على اثنين وسبعين فرقة وإن أمتى ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلهم على الضلال إلا السواد الأعظم قالوا يا رسول الله ومن السواد الأعظم ؟ قال من كان على ما أنا عليه وأصحابى . ثم قال أن الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا للغرباء قالوا يا رسول الله ومن الغرباء ؟ قال لذين يصلحون إذا فسد الناس ولا يمارون فى دين الله . (١)

ونستنتج من هذه الأحاديث والأخبار أن عهد النبوة حدث فيه جدل محدود للغاية بين الصحابة ، وحسم الرسول صلى الله عليه وسلم أمره بل أعلن كراهيته وحذر أصحابه من مغبة اتساع دائرة الجدل فيما بينهم لأنه يحبط العمل ويورث الشك وينفى عن صاحبه شفاعة النبى صلى الله عليه وسلم فى الآخرة بل هو سبيل إلى ضلال الأمة وهلاكها . وبشر الرسول الصحابة بأن من ترك المراء أدخله الله الجنة

---

١ -صون المنطق والكلام عن فنى المنطق والطلام جـ١ صـ٧٠ ٧ تحقيق د. على النشار

ومن هنا ندرك اشارة الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى هذا المعنى بقوله " هذا الجدل فى العقائد عرض له القرآن للحاجة وعلى مقدراها من غير أن يشجع المسلمين على المضى فيه " (١)

وهكذا نرى أن عصر النبوة قد انقضى ولم تجد اختلافا فى أصول عقائد الايمان من اليقين بالوحدانية والصفات والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر .

ومما يؤكد ذلك ما ذهب إليه السيوطى حيث يقول " وإنما تركوا أى الصحابة هذه الطريقة لما تخوفوه من فتنتها فقد كانوا على بصيرة من دينهم لما هداهم الله بنوره وشرح صدورهم بضياء معرفته فرأوا أن فيما عندهم من علم الكتاب وحكمته وتوقيف السنة وبيانها غناء ومندوحة عما سواهما ، وأن الحجة قد وقعت وتمت بهما وأن العلة والشبهة قد أزيحت بمكانهما " . (٢)

فالقرآن بنوره وهديه كان غذاءً للصحابة ، قويت به أبدانهم وسمت به أرواحهم،وأن السنة النبوية الشريفة عصمتهم من الشطط فى الجدل والغلو فيه

١- تمهيد لتاريخ الفلسفه صـ٢٧١ .
٢- صون المنطق صـ٢٠٧ .

المبحث الثاني : العقائد الدينية في عهد الخلفاء الراشدين

كان أمر العقائد في عهد الخلفاء الراشدين على ما كان عليه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، لكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصدع بكلمة الوحى فلا يستطيع مؤمن أن يجد عنها محيصا ، وما كان من خلاف بين المسلمين قضى الأمر فيه برده إلى الرسول ، قد حدث فى عهد الخلفاء الراشدين خلاف فى أمور اجتهادية أن تكن متصلة بالأحكام العملية ، فإن لها من الخطر ما جعلها أساساً للإختلافات مستمرة بين المسلمين ورفع من شأنها حتى وصلها بأمور العقائد وعلى قواعدها قام كثير من الفرق الإسلامية . (١)

ويقول الشيخ مصطفى عبد الرازق " ظهر بين المسلمين عقب وفاة النبى اختلاف فى وفاته حتى قال قوم منهم إنه لم يمت ولكنه رفع كما رفع عيس بن مريم . وقد يكون لهذا الخلاف مظهر فى بعض أقاويل الشيعة فى أئمتهم " (٢)

ثم يقول " واختلفوا فى الإمامة فقالت الأنصار منا إمام ومنكم إمام . وطال بينهم الكلام فى ذلك حتى صعد الصديق رضى الله المنبر وخطب ثم تلا عليهم قوله تعالى" للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون " (٣) فسمانا الصادقين ثم أمر المؤمنين أى الله تعالى أن يكونوا مع الصادقين بقوله تعالى"يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين " (٤) وروى لهم أن رسول الله قال " الأئمة من قريش "

---

١ -التمهيد صـ٢٨٣ للشيخ مصطفى عبد الرازق .
٢ - المصدر نفسه صـ٢٨٣ .
٣ - سورة الحشر آية ٨ .
٤- سورة التوبة آية ١١٩ .

وحديث الخلافة له شأن عظيم فـى قيـام الفـرق الإسـلامية وهـو أكبر مظـاهر الخلاف التى حدثت منذ وفاة النبى إلى ختام عهد أبى بكر وأيام عمر . (١)

يقول الإمام ابو الحسن الأشعرى " وأول ما حدث من الإختـلاف بيـن المسلمين بعد نبيهم صلى الله عليه وسلم اختلافهم فى الإمامة " ويقول " وكان الاختلاف بعذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الإمامة ولم يحـدث خـلاف غيره فى حياة أبى بكر رضوان الله عليه وأيام عمر " . (٢)

وقد اختلف المسلمون فى عهد أبى بكر فـى قتـال مـانعى الزكـاة فقـال قوم لانقاتلهم قتال الكفرة وقال قوم بل نقاتلهم حتى قـال أبـى بكـر رضـى اللـه عنه " لو منعونى عقالا مما أعطوا رسول الله صلي اللـه عليـه وسلم لقـاتلتهم عليه ، ومضى بنفسه إلى قتالهم ووافقه جماعة الصحابة بأسرهم . (٣)

واختلف المسلمون فى تنصيص أبـى بكـر علـى عمر بالخلافـة وقت الوفاة فمن الناس من قال : قد وليت علينا فظا غليظـا. وارتفـع الخـلاف بقـول أبى بكر لو سألنى ربى يوم القيامة لقلت وليت عليهم خيرهم لهم " (٤)

ثـم اختلفـوا فـى أمـر عثمـان وأنكـر قـوم عليـه فـى آخـر أيامـه أفعـالا واختلفوا فى قتله ، فقال قائلون قتل ظلما وعدوانا وقال قائلون بخلاف ذلك .

وبويع على بن أبى طـالب فـاختلف النـاس فـى أمـره فمـن بيـن منكـر لإمامته وقاعد عنه ومن الصحابة ممن اعتزل ومن السلم به أن نشأة الخوارج والشيعة ولدتهما العاطفة السياسية . (٥)

ثم حدث الإختلاف فى أمر طلحـة والزبـير وحربهمـا إيـاه وفـى قتـال معاوية إياه فى الوقائع المعروفـة بوقعـة أصحـاب الجمـل ودفعـة صفيـن وفـى

١- مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين للامام الاشعرى جـ١ صـ٣٩ المكتبـة العصريـة بيروت – لبنان .
٢- المصدر نفسه جـ١ صـ٤٧ .
٣ - الملل والنحل للشهرستانى جـ١ صـ٣١ .
٤ - المصدر نفسه جـ١ صـ٣١
٥ تبين كذب المفترى صـ١١٧

حال الحكمين ، وظهر من ذلك خلاف الخوارج فى أيام على رضى الله عنه ، وظهر فى وقته أيضا خلاف السبئية من الروافض وهم الذين قالوا إنه إله الخلق حتى أحرق على جماعة منهم . (١)

ويقول الشيخ مصطفى عبد الرازق " أن أسس الخلافات التى قامت عليها بعض الفرق الإسلامية وحدث فى عهد الخلفاء الراشدين ، ولإن كان الحجاج بين هذه المذاهب قام على النقل فى غالب أمره فهو كان أحيانا مشوبا بالنظر العقلى ". (٢)

وقد ذكر ابن عبد البر مناظرة ابن عباس للحرورية وهم الخوارج وهى مناظرة تعتمد على النقل ولا تخلو من نظر عقلى وروى ابن عبد البر أنه لما ظهر على البصر يوم الجمل جعل لأصحابه ما فى عسكر القوم من السلاح ولم يجعل لهم غير ذلك فقالوا كيف تحل لنا دماءهم ولا تحل لنا أموالهم ولا نساء هم قال هاتوا سهامكم فأفرعوا على عائشة فقالوا نستغفر الله فخصمهم على وعرفهم أنها إذا لم تحل لم يحل بنوها . (٣)

---

١ - التبصير فى الدين صـ١٣ للإسفراييى
٢ - [illegible] صـ [illegible] .
٣ - المصدر نفسه صـ [illegible] .

المبحث الثالث: العقائد الدينية فى عهد الأمويين

انتهى عهد الصحابة بمضى القرن الأول للهجرة ، " ثم ظهر فى أيام المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية ، وكانوا يخوضون فى القدر والإستطاعة كمعبد الجهنى ، وغيلان الدمشقى ، وجعد بن درهم وكان ينكر عليهم من كان قد بقى من الصحابة عبد الله بن عباس وجابر وأنس وأبى هريرة وعقبة بن عمرو وأقرانهم وكانوا يوصون إلى أخلافهم بألا يسلموا عليهم ، ولا يعودوهم أن مرضوا ولا يصلوا عليهم إذا ماتوا " (١)

وقد روى " أن رجلا قال لإبن عمر رضى الله عنهما ظهر فى زماننا رجال يزنون ويسرقون ويشربون الخمر ويقتلون النفس التى حرم الله ثم يحتجون علينا ويقولون كان ذلك فى علم الله ، فغضب ابن عمر وقال : سبحان الله مكان ذلك فى علم الله ولم يكن علمه يحملهم على المعاصى " . (٢)

ويذكر الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله تعالى " أنه حينما استقر الأمر " لمعاوية " بعد الإتفاق الذى تم بينه وبين " الحسن بن على " رضى الله عنهما أراد " معاوية " أن يثبت فى أذهان الناس أن إمرته على المسلمين ، إنما كانت بقضاء الله وقدره ، فأشاع الفكرة وشجع مذهب الجبر وأخذ هو وخلفاء بنى أمية من بعده يبثون الفكرة بمختلف الوسائل " .

ومما يوضح ذلك ما رواه البخارى فى صحيحه عن " وراد " مولى " المغيرة بن شعبة " قال : كتب معاوية إلى المغيرة اكتب إلى ما سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول خلف الصلاة ؟ فأملى على المغيرة قال : سمعت

---

١ التبصير فى الدين للإسفراييني صـ١٣-١٤ .

٢ التمهيد للشيخ مصطفى عبد الرازق صـ٢٨٦

النبي صلى الله عليه وسلم يقول خلف الصلاة " لا إله الا الله وحده لا شريك له،اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد وقال ابن جريج أخبرني عبده أن وراد أخبره بهذا ثم وفدت بعد إلى معاوية فسمعته يأمر الناس بذلك القول .

وإذا كان بنو أمية قد رأوا أن القول بالجبر يبرر كل ما يأتون من مظالم وعملوا على أن يفسر الناس كل ظلم بقضاء الله وقدره فكان من الطبيعي أن يكون لذلك رد فعل في البيئة الإسلامية وأن يوجد من ذوى الضمائر من يعلن أن فكرة الجبر خطأ وأن الإنسان حر مختار فيما يأتي وفيما يدع " . (١)

يقول الشيخ زاهد الكوثري في مقدمته لكتاب " تبيين كذب المفترى " وقد سمع هناك في البصرة معبد بن خالد الجهني من يتعلل في المعصية بالقدر فقام بالرد عليه ينفي كون القدر سالبا للاختيار في أفعال العباد وهو يريد الدفاع عن شرعية التكاليف فضاقت عبارته وقال : " لا قدر والأمر أنف " ولما بلغ ذلك ابن عمر تبرأ منه فسمى جماعة معبد قدرية ودام مذهبه بين دهماء الرواة من أهل البصرة قرونا بل تطور عند طائفة منهم إلى حد أن جعلوا الخالق ما ينسبه الثنوية إلى النور والى المخلوق ما يعزونه إلى الظلمة " (٢)

وأول من قال بالقدر معبد الجهني فقد جاء في صحيح مسلم عن يحى بن يعمر قال : " كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني فانطلقت أنا وحميد ابن عبد الرحمن الحميرى حاجين أو معتمرين فقلنا لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي

---

١ التفكير الفلسفي في الإسلام د/ عبد الحليم محمود صـ١٤٥-١٤٦

٢ تبيين كذب المفترى صـ١١

أحدنا عن عينه والآخر عن شماله فظننت أن صاحبى سيكل الكلام إلى فقلت أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن ويتقفرون العلم وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف قال : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برئ منهم ؛ وأنهم برآء منى . والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر " . ([1])

وقد استمر القول بالقدر بعد أن قتل معبد الجهنى صبرا حيث أخذه عنه غيلان الدمشقى الذى يسميه الشهرستانى " غيلان بن مروان الدمشقى " وسماه ابن عساكر " غيلان بن مسلم الدمشقى " وكان غيلان ينشر بدمشق رأى معبد فطلبه عمر بن عبد العزيز ونهاه عن ذلك وكشف شبهته فانتهى وقال : " يا أمير المؤمنين لقد جئتك ضالاً فهديتنى وأعمى فبصرتنى وجاهلا فعلمتنى والله لا أتكلم فى شىء من هذا الأمر أبدًا" ([2])

والروايات مضطربة فى موقف عمر بن عبد العزيز منه ، ولكن الثابت أنه لم ينله بأذى وكذلك الأمر فى موقف يزيد بن عبد الملك ، فلما تولى هشام ابن عبد الملك توجه غيلان إلى " أرمينيا " فأرسل هشام فى طلبه وقتله . ([3])

ثم نرى الامام الدكتور عبد الحليم محمود يعلق على قتل هشام لغيلان الدمشقى قائلا " لم قتله هشام ؟ ثم يجيب بقوله " تزعم بعض الروايات أنه قتله من أجل الدين ، ولكن هشامًا لم يكن أكثر تحمسا للدين من "عمر بن عبد العزيز" وقد قال غيلان بالقدر فى عهد عمر بن عبد العزيز فلم يصب بأذى" .

ثم يقول " والواقع أن السر الحقيقى يجب أن يلتمس فى رأى غيلان فى الإمامة الذى يصفه الشهرستانى بالخروج ، ويجب أن يلتمس فيما اشتهر

---

[1] صحيح مسلم جـ١ صـ١٧٧-١٧٨ باب بيان الإيمان والاسلام والإحسان كتاب الإيمان
[2] تبيين كذب المفترى صـ١١ .
[3] التفكير الفلسفى فى الإسلام صـ١٤٨ د/ عبد الحليم محمود .

به غيلان من تشنيعه على بنى أمية لظلمهم وجورهم ثم لأنه داعية مفوه إلى القول بالإختيار ونفى الجبر الجبر الذى يدعو إليه بنو أمية تبريرًا لظلمهم وجورهم " . (١)

ويتحدث ابن قتيبة عن غيلان الدمشقى فى كتابه " المعارف " قائلا " غيلان الدمشقى كان قبطيا قدريًا لم يتكلم أحد قبله فى القدر ودعا إليه إلا معبد الجهنى وكان غيلان يكنى " أبا مروان " وأخذه هشام بن عبد الملك وصلبه بباب دمشق " . (٢)

ولكن القول بالإختيار يبدو فى أذهان بعض الناس وكأنه ينتقص من السيطرة المطلقة الإلهية أو كأنه يتنافى مع الخضوع المطلق لسلطانه وفى الناس من ملكن فكرة الإلهية عليهم جميع أقطارهم ، فلما رأوا المغالاة فى القول بالإختيار ، ثارت ثائرتهم فنادوا بالجبر ودهوا إليه .

نادوا به ودعوا إليه لا لأنه يوافق هوى بنى أمية ، وينال استحسانهم وتشجيعهم وإنما لأنهم رأوا أن ذلك هو الق الذى لامرية فيه . (٣)

وقد حمل علم الدعوة الجعد بن درهم وجههم بن صفوان . وقد كان لهما بجوار رأيهما فى القدر آراء أخرى فى الإيمان وفى الصفات وفى غير ذلك وكان رأيهما متحدا فى جميع المسائل والمؤرخون يذكرون أن جهما أخذ آراءه عن الجعد حينما تلاقيا فى الكوفة ، ولكنهم يتحدثون عن جهم فى قليل من الاستفاضة بينما هم لا يكادون يتحدثون عن الجعد بن درهم . (٤)

---

١ - المصدر السابق صـ١٤٨ .
٢- تمهيد لتاريخ الفلسفة للشيخ مصطفى عبد الرازق صـ٢٨٦-٢٨٧
٣- التفكير الفلسفى فى الاسلام صـ١٤٨ - ١٤٩ د/ عبد الحليم محمود
٤ - المصدر السابق صـ١٤٩ .

يقول الشيخ زاهد الكوثرى " أنه لما بدأ غيلان يذيع رأى معبد الجهنى أخذ فى الرد عليه جهنم بن صفوان بخرسان ، فوقع فى الجبر ونشأ عنه مذهب الجبرية " (١)

ومهما يكن من أمر فإن هذا المذهب لم يكتب له الإنتشار ، والسبب فى ذلك ما قلناه من أن هذا المذهب يعتبر شذوذا فى الرأى ونشازا فى التفكير ، ذلك أنه ليس بعقلى لأنه يقول بالجبر ، وليس بنص لأنه يقول بالتعطيل وهو لذلك لا يرضى فريقى الأمة النصيين والعقليين . (٢)

هذا وقد ربط الشهرستانى بين بدعة معبد الجهنى ومن تابعه وبين قيام المعتزلة بعد أن اعتبر القول بالقدر هو بداية الإختلاف فى الأصول فيقول : بعد أن تحدث عن الإختلافات فى الإمامة " وأما الإختلافات فى الأصول فحدثت فى آخر أيام الصحابة بدعة معب الجهنى وغيلان الدمشقى ويونس الأسوارى فى القول بالقدر وإنكار إضافة الخير والشر إلى القدز ونسج على منوالهم واصل ابن عطاء انعزال وكان تلميذ الحسن البصرى وتلمذ له عمرو بن عبيد وزاد عليه فى مسائل القدر . . ثم يقول " والقدرية ابتدءوا بدعتهم فى زمان الحسن واعتزل واصل عنهم وعن استاذه بالقول بالمنزلة بين المنزلتين فسمى هو وأصحابه معتزلة " (٣)

وكان الحسن البصرى من جلة التابعين وممن استمر سنين ينشر العلام فى البصرة ويلازم مجلسه نبلاء أهل العلم وقد حفر مجلسه يوما أناس من رعاع الرواة ، ولما تكلموا بالسقط عنده قال ردوا هؤلاء إلى حشا الحلقة أى جانبها فسموا حشوية ومنهم أصناف المجسمة والمشبهة . وكان واصل بن

١- تبيين كذب المفترى صـ١١ .
٢- التفكير الفلسفى فى الإسلام الدكتور عبد الحليم محمود صـ١٥٢
٣- الملل والنحل للشهرستانى ج١ صـ[illegible]

عطاء بعد أن أخذ الاعتزال عن أبى هاشم يحضر فى مجلس الحسن وقد ذكرت مسألة الإيمان فى المجلس . (١)

يقول الشهرستانى " أنه دخل واحد على الحسن البصرى فقال : يا إمام الدين لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركنا من الإيمان ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأمة ، فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقادا ، فتفكر الحسن فى ذلك ، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا ولا كافر مطلقا بل هو فى منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر ؛ ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن ؛ فقال الحسن اعتزال عنا بعد أن كان موافقا له فى القدر وانكار الصفات ". (٢)

معنى ذلك أنه قد ظهرت فى هذا العهد طائفة تكفر مكرتب الكبيرة وطائفه تقول لا يضر مع الإيمان كبيرة ؛ وقالت فرقة المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين وأخذ الجدل فى هذه المسائل ينتشر وينحو منحى كلاميا . (٣)

قال طاش كبرى زاده فى مفتاح السعادة " فاعلم أن مبدأ شيوع الكلام كان بأيدى المعتزلة والقدرية فى حدود المائة من الهجرة . . . لأن ظهور الاعتزال كان من جهة واصل بن عطاء ، وكانت وفاته فى سنة ١٣١هـ . وولادته فى سنه ٨٠هـ فيصير زمن طلبه العلم وقدرته على الإجتهاد فى حدود المائة تقريبا " . (٤)

---

١ تبيين كذب المفترى صـ١١

٢ - الملل والنحل للشهرستانى جـ١ صـ٥٢

٣ - تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للشيخ مصطفى عبد الرازق صـ٢٨٧ .

٤ - مفتاح السعادة جـ٢ صـ١٤٨

وظهر فى هذا العهد الخلاف بين الفرق ، واحترم النزاع بينها ، واعتمد هذا النزاع على كل وسائل الدفاع من جدل يقوم على أدلة عقلية ونقلية ؛ ثم تولدت مسائل اعتقادية كانت موضع تجادل وتنازع وافترق المسلمون فيها فرقا ، فظهر علم الكلام على أيدى هذه الفرق خصوصا المعتزلة .

وإذا كان واصل بن عطاء هو أول من أظهر الإعتزال وأشاعه فإنه أخذ الاعتزال عن الإمام أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الهاشمى .

وعلى هذا يكون التدوين فى مسائل علم الكلام قد بدأ العهد الذى نحن بصدده ولكن التدوين فى هذا العهد لم يكن فى جملته إلا بداية ، ولم يصل إلينا من مؤلفات ذلك العهد شيء . (١)

---

١ – تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص [illegible]

المبحث الرابع : العقيدة الدينية في العصر العباسي

في صدر هذا العصر ظهر التدوين وألفت الكتب في علم الكلام كما ألفت في غيره من العلوم الإسلامية .

ألف في علم الكلام أهل الفرق مثل واصل بن عطاء وله كما في خطط المقريزي كتاب المنزلة بين المنزلتين ، وكتاب الفتيا وكتاب التوحيد ومثل عمرو بن عبيد المتلكلم المعتزلي وقد ذكروا له كتابا في الرد على القدرية ، وكبعض متكلمي الشيعة مثل هشام بن الحكم . . وله كتب في الإمامة في الرد على المعتزلة وغيرهم ذكرها صاحب " الفهرست " كما ذكر متكلمي المجبرة وأسماء ما صنفوه من الكتب ومتكلمي الخوارج وكتبهم وألفت في هذا العهد كتب في العقائد لأهل السنة مثل كتاب الفقه الأكبر المنسوب لأبي حنيفة وكتاب العالم والمتعلم وقد صرح فيهما بأكثر مباحث علم الكلام ومثل الفقه المنسوب للشافعي .

وراج مذهب الإعتزال لما فيه من مظاهر البحث العقلي والإعتماد على أساليب المنطق والجدل فمالت إليه الطباع وكثر أنصاره وأصبح المذهب السائد من بين المذاهب الكلامية (١)

وظهر أيضا مذهب أهل السنة والجماعة بالسعي الجميل والإقدام المشهور من جهة أبي الحسن الأشعري في حدود الثلاثمائة ، إذ كانت ولادته سنة ستين ومائتين ودام على الاعتزال أربعين سنة فيكون علم الكلام بأيدي المعتزلة مائتي سنة ما بين المائة والثلاثمائه . (٢)

وكان الأشعري أول من عرض لنصرة عقائد أهل السنة بالبراهين العقلية وأخذ في مجالة مخالفيهم خصوصا المعتزلة اعتمادا على النقل والعقل

- تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للشيخ مصطفى عبد الرازق صـ٢٨٩
٢- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم جـ٢ صـ١٤٨ دار الكتب العلميه بيروت لبنان

وقام بمثل ما قام به فى زمنه الماتريدى ، وله كتاب فى المقالات ، كما أن للأشعرى كتابا فى المقالات وله كتب فى الرد على المعتزلة والقرامطة والروامض والروافض وكتاب الجدل وكتاب فى التوحيد .

وقد نقل الشيخ مصطفى عبد الرازق عن المقريزى فى خططه حال المذهب الأشعرى منذ نشأته إلى عهده فقال : " وحقيقة مذهب الأشعرى رحمه الله أنه سلك طريقًا بين النفى الذى هو مذهب الإعتزال وبين الإثبات الذى هو مذهب أهل التجسيم وناظر على قوله هذا واحتج لمذهبه فمال إليه جماعة وعولوا على رأيه ، منهم القاضى أبو بكر الباقلانى المالكى وأبو بكر من فورك والشيخ إبراهيم بن محمد الإسفراييني والشيخ أبو حامد محمد بن محمد الغزالى ، وأبو الفتوح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستانى ، والإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازى ، وغيرهم ممن يطول ذكره . وناصروا مذهبه وناظروا عليه وجادلوا فيه واستدلوا له فى مصنفات لا تكاد تحصر ، فانتشر مذهب أبى الحسن الأشعرى فى العراق من نحو سنة ٣٨٠هـ وانتقل منه إلى الشام .

وانتشر المذهب بعد ذلك فى مصر على يد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ومن بعده من ملوك الأيوبيين، وانتشر المذهب فى بلاد المغرب على يد أبى عبد الله محمد بن تومرت. وبذلك اشتهر مذهب الأشعرى فى أمصار الإسلام بحيث نسى غيره من المذاهب وجهل،حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه " . (1)

وظل الأمر على هذا الحال حتى جاء الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، وجاء بعده أيضا أبو العباسى أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرانى فتصدى للانتصار لمذهب السلف وبالغ فى الرد على مذهب الأشاعرة وصدع بالنكير عليهم وعلى الرافضة وعلى الصوفية . فافترق

---

١ التمهيد للشيخ مصطفى عبد الرازق صـ٢٩٢-٢٩٣

الناس فيه فريقين : فريق حفاظ أهل الملة الإسلامية ، وفريق بيدعه ويضلله ويزرى عليه بإثباته الصفات ، وينتقد عليه مسائل منها ما له فيه سلف ومنها ما زعموا أنه خرق فيه الإجماع ولم يكن له فيه سلف ، وكانت له ولهم خطوب كثيرة وله إلى وقتنا هذا عدة أتباع بالشام وقليل بمصر . (١)

وكان أهل السنة من قبل الأشعرى لا يعتمدون إلا على النقل فى أمور الإعتقاد على حين أخذت الفلسفة توجه أهل الفرق إلى الإعتماد على العقل ، فلما أخذ الأشعرى فى مناضلة المبتدعة بالعقل حفاظا للسنة جاء أنصار مذهبه من بعده يثبتون عقائدهم بالعقل تدعيما لها ومنعا لإثارة الشبه حولها ووضعوا المقدمات العقلية التى تتوقف عليها الأدلة والأنظار مثل : إثبات الجوهر الفرد والخلاء وأن العرض لا يقوم بالعرض وأنه لا يبقى زمانين ، وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم ، وجعلوا هذه القواعد تبعا للعقائد فى وجوب الإيمان بها وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول ، وهذه الطريقة هى المسماة بطريقة المتقدمين ورأسها القاضى أبى بكر الباقلانى وإمام الحرمين أبو المعالى من بعده ولم يكن المنطق يومئذ منتشرا فى الملة لإعتباره جزءا من أجزاء الفلسفة يجرى حكمها عليه ويتحج منه كما يتحرج منها .

ثم مارس أتباع مذهب الأشعرى المنطق وفوقوا بينه وبين العلوم الفلسفية ، وراعوا فى استدلالاتهم ومناظراتهم قواعده ، وقرروا أن بطلان الدليل لا يؤذن ببطلان المدلول الذى يمكن أن يثبت بدليل آخر ، فصارت هذه الطريقة مباينة للطريقة الولى ، وسميت طريقة المتأخرين .

وأول من كتب فى طريقة الكلام على هذا المنحى الغزالى رحمه الله وتبعه الامام فخر الدين الرازى ، وجماعة قفوا أثرهم واعتمدوا تقليدهم ثم توغل المتأخرون من بعدهم فى مخالفة كتب الفلسفة والتبس عليهم شأن الموضوع فى العلمين فحسبود فيهما واحدا من اشتباه المسائل فيهما والتبست

(١) المصدر السابق صـ٢٤٣

مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز أحد الفنين عن الآخر ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم كما فعله البيضاوى فى الطوالع وعضد الدين الإيجى فى كتاب المواقف . (١)

هذا ما ذكره ابن خلدون فى المقدمة ، ولم يعرض لما حدث فى علم الكلام من نزوع مقاوم لغلو الغالين فى خلط الفلسفة ، وذلك بنهوض ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية لإحياء مذهب السلف على طريقة الحنابلة ومقاومة مذهب الأشعرى .

ويقول المقريزى فى " خططه " (أن مذهب الحنابلة الذى أحياه ابن تيمية كان له أنصار بمصر ، ثم ضعفت الهمم عن الدراسات القوية لعلم الكلام) (٢) " ولم يبق بين الناظرين فى كتب السابقين إلا تحاور فى الألفاظ وتناظر فى الأساليب على أن ذلك فى قليل من الكتب إختارها الضعف وفضلها القصور " . (٣) " يعنى أن المتأخرين أساءوا فى اختيار كتب من قبلهم وكانت طريقتهم فى التدريس البحث فى ألفاظها وأساليبها ، دون تحرير مسائل العلم وتحقيقها " . (٤)

ثم نرى الإمام محمد عبده يبين لنا حالة علم الكلام فى عهوده المتأخرة قائلا " ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم فجاء قوم ظنوا فى أنفسهم ما لم يعترف به العلم لهم فوضعوا ما لم يعد للإسلام قبل باحتماله غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصار ، ومن البعد عن ينابيع الدين أعوانا فشردوا بالعقول عن مواطنها وتحكموا ى التضليل و التفكير وغلوا في ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الأمم فى دعوى العداوة بين العلم والدين وقالوا لما تصف ألسنتهم الكذب هذا حلال

---

١ - مقدمة أبن خلدون صـ٤٢٩ ـ ٤٣٠ طبعة دار الشعب
٢ - التمهيد للشيخ مصطفى عبد الرازق صـ٢٩٤
٣ رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده صـ٢١ .
٤ رسالة التوحيد للإمام محمد عبده صـ٢١

وهذا حرام ، وهذا كفر وهذا إسلام والدين من وراء ما يتوهمون والله جل شأنه فوق ما يظنون وما يصنعون ، ولكن ماذا أصاب العامة في عقائدهم ومصادر أعمالهم من أنفسهم بعد طول الخبط وكثرة الخلط ؟ شر عظيم ، وخطب عميم " .

ثم يقول " هذا مجمل من تاريخ هذا العلم ينبئك كيف أسس على قواعد من الكتاب المبين ، وكيف عبثت به في نهاية الأمر أيدى المفرقين حتى خرجوا به عن قصده وبعدوا به عن حده " . ويشير الإمام إلى نصح ما يلزمهم من الإعتقاد فيقول : " والذى يجب علينا اعتقاده أن الدين الإسلامى دين توحيد في العقائد لا دين فنزعات شياطين وشهوات سلاطين والقرآن شاهد على كل بعمله قاض عليه في صوابه وخطئه " . (١)

وكأن الإمام يريد أن يقول أن طريق نجاح المسلم في معتقده أن يعتمد على نقل الوارد في الكتاب والسنة ، ولا يمنع ذلك أن يستعين بالعقل في توضيح ما استغلق عليه من فهم النقل .

حتى تتحقق الغاية من هذا العلم القيام بفرض مجمع عليه وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به والتصديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن به النفس اعتمادا على الدليل جسما أرشدنا إليه الكتاب ، فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون والنفوذ إلى دقائقه تحصيلى لليقين بما هدانا إليه . (٢)

---

١ - [illegible] صـ٢٢-٢٣ .
٢ - [illegible]

الفصل الثالث

عوامل نشأة علم الكلام

عندما ينظر الباحث يرى أن لعلم الكلام عوامل داخلية وعوامل خارجية ساعدت على نشأة هذا العلم .

المبحث الأول : أولا : العوامل الداخلية

١- وجود المتشابه والمحكم فى القرآن الكريم :-

لعل أبرز العوامل الداخلية لنشأة علم الكلام ترجع إلى وجود المتشابه والمحكم فى القرآن الكريم ، ذلك لأن المتشابه يدعو إلى النظر ، والمحكم يعصم عن الخطأ أو يرد إلى الصواب ، والقرآن الكريم لا يعوق أبدا النظر العقلى وإن وجود المتشابه فى القرآن بالذات كان سببا رئيسيًا وكان من أبرز العوامل الداخلية لنشأة علم الكلام .

يقول صاحب الكشاف الإمام الزمخشرى فى تفسيره للآية الكريمة الخاصة بالمحكم والمتشابه وهو قول الله تعالى " هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخرى متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيع فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أوتوا الألباب " (١)

" لو كان القرآن كله محكما لتعلق الناس به لسهولة مأخذة ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والإستدلال ، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذى لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به ، ولما فى

---

(١) سورة آل عمران آية ٧

المتشابه من الإبتداء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه ، ولما فيه تفادح العلماء وإتعابهم القرائح من استخراج معانية ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمة ونيل الدرجات عند الله ، ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة فى كلام الله ولا اختلاف إذا رأى فيه ما يتناقضفى ظاهره وأهمه طلب ما يوفق بينه ويجريه على سنن واحد ففكر وراجع نفسه وغيره ففتح الله عليه وتبين مطابقة المتشابه للمحكم إزداد طمأنينة إلى معتقده وقوة فى إيقانه " ([1])

ولقد كان وجود المتشابه فى القرآن الكريم عاملاً حاسمًا فى نشأة علم الكلام خصوصا بعد بروز كثير من القضايا اللغوية والفقهية مما أدى إلى اختلاف العلماء فى فهم النص بعد أن عرفوا العلمو اللغوية والبيانية ومعرفتهم بالصرف والحقيقة والمجاز والعموم والخصوص والمطلق والمقيد .

والحقيقة أن معظم العلوم كانت فى شرف تجلية معانى وامرامى القرآن الكريم فعلم الفقه وأصوله كان وسيلة إلى الكشف عن أحكام القرآن وتشريعاته وعلم النحو والصرف لضبط ألفاظه وفهم معانيه وعلم الكلام وسيلة إلى تجلية عقائده وتأييدها بالبراهين الحقة والحجج الواضحة وعلوم البلاغة للكشف عن إعجاز القرآن وبلاغته وروعته وهكذا كل العلوم كانت فى خدمة كتاب الله العزيز . ([2])

ويركز ابن خلدون فى مقدمته على أن وجود المتشابه فى القرآن كان سببا رنيسيا لنشأة علم الكلام فقد وقع بعض المسلمين فى الشبيه والتجسيم. ([3])

" فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والإستدلال بالعقل زيادة إلى النقل فحدث بذلك علم الكلام . . وذلك أن القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق

---

١ الكشاف صـ١٧٥ جـ١ .

٢- الخوارج عقيدة وفكرا وفلسفة صـ٣٠ د عامر النجار دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٨٨م

٣ مقدمه ابن خلدون صـ٤٢٧-٤٢٨

الظاهر الدلالة من غير تأويل فى آيات كثيرة هى سلوب (أى سالبة عن الله التشبيه بالخلق) كلها وصريحة فى بابها فوجب الإيمان بها ووقع فى كلام الشارع صلوات الله عليه وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها .

ثم وردت فى القران الكريم آيات أخرى قليلة توهم التشبيه مرة فى الذات وأخرى فى الصفات . فأما السلف فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها وعلموا استحالة التشبيه وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعانيها ببحث ولا تأويل وهذا معنى قول الكثير منهم " اقرءوها كما جاءت " أى آمنوا بأنها من عند الله ولا تتعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها لجواز أن تكون ابتلاء فيجب الوقف والإذعان له . وذ لعصرهم مبتدعة ابتعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا فى التشبيه " (1)

والحقيقة أننا نميل إلى أهمية العوامل الداخلية التلقائية فى نشأة علم الكلام فقد وجد علماء الإسلام فى القرآن الكريم الحلول لقضايا العقيدة والثواب والعقاب والقضاء والقدر وهى مواد أصيلة وأساسية فى صلب علم الكلام ، لهذا فقد كان القرآن عاملاً هاما فى نشأة هذا العلم الإسلامى الأصيل ففيه كل ما يتعلق بأصلوب الدين والتوحيد ومسائل الجبر والإختبار والنبوة وحكم مرتكب الكبيرة وغير ذلك من المسائل الكلامية .

كما يعرض القرآن الكريم لقضايا كبرى تتصل بنشأة الإنسان والكون وان القرآن بحق " خاض مع من أدهشتهم جدة تعاليمه نقاشا ، قابل فيه الرأى بالرأى والدليل وفى هذا الحجاج ثروة علية تكررت فى مواضع منه بأسلوب لا يمل سماعه وترداده . " (2)

ويقول الدكتور يحى هاشم " لقد تصدى المسلمون لفهم كتابهم المنزل فهماله فى ذته فى قضية وجوده ، قديما أو محدثا ، وفى ما تضمه من آيات

---

١ . مقدمة ابن خلدون صـ٤٢٧-٤٢٨ .

٢ . التفكير الفلسفى فى الإسلام للدكتور سليمان دنيا صـ٣٢٤ .

للفهم بأحكامها أم تنغلق عليهم بمتشابهها وفي ما تضمنه الآيات من جوانب وأعماق ظاهرا وباطنا تفسيرا وتأويلا ، وفى علاقة القرآن وموقفه العام من التفكير فى العقيدة ، وفهما له فيما يدل عليه من مسائل العقيدة فى الإلهيات والنبوات والسمعيات والكونيات والجدل مع أرباب المذاهب المختلفه

ولقد كان تصدى المسلمين لهذا الفهم بأنواعه أمرا نابعا من صميم علاقتهم بالقرآن وانتمائهم إليه وإيمانهم به ... وفي بحث الباحثين للقرآن تعرفوا على موقفه من التفكير فى العقيدة ، فوجدوا منه تشجيعًا يدفعهم للنظر والإجتهاد المسترشد بهدى الله المستقل عن دعاوى الآباء وجدوا فى الآيات رؤوس مسائل ، كما وجدوا فيها طريقة نظر ، ووجدوا فيها فرارا برأى أو انفتاحًا على بحث ، ولقد تناولوه بالبحث فى كل ذلك آخذين بصريحه مجتهدين فى متشابهه مرتادين فيه إلى مواطن تبتعد عن إطاره فى بعض الأحيان . ([1])

وعند الدكتور محمد يوسف موسى : أن القرآن الكريم هو الذى دفع المسلمين إلى التفلسف بمعناه الواسع وذلك بما اشتمل عليه من أول الفلسفة الإلهية والطبيعة ، ولا يجد فى انصراف المسلمين عن ذلك فى الفترة الأولى ما يناقض هذه القضية ، وذلك لوقوعهم انذاك فى أسر استيعابهم لأسلوبه ، ولإنشغالهم بنشر الدعوة ولتنزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بين ظهرانيهم يوضح لهم ما غمض . ([2])

والقرآن الكريم " اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة الا أن الوارد فى القرآن أوضحها وأقواها لينتفع بها الخاصة والعامة ([3])

---

[1] عوامل وأهداف نشأة علم الكلام فى الإسلام د/ يحى هاشم ص٢٨٩ ، ٢٩
[2] القرآن والفلسفة ص ٣ . محمد يوسف موسى
[3] نجد العلوم تصديق ... جـ ٢ ص ٣٠

ويقول الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازانى " أن القرآن الكريم إلى جانب احتوائه على العقائد الإسلامية ، قد احتوى على ذكر العقائد المخالفة لها وعلى الحجج الداحضة لها ، فكان ذلك من العوامل الهامة التى أنهضت بعض عقول المسلمين إلى البحث فى العقائد ، وكيفية الدفاع عنها ضد العقائد المخالفة لها " . (١)

فمن الآيات التى ورد فيها ذكر العقائد والمذاهب والأديان المخالفة للإسلام قولة تعالى " أن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والمجوس والذين أشركوا أن الله يفصل بينهم يوم القيامة أن الله على كل شيء شهيد " (٢)

وقوله تعالى " أن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم " (٣)

ولقد ورد القرآن على مخالفيه فرد مثلاً على الدهرية الذين قالوا " وما يهلكنا إلا الدر " . (٤)

ورد على أولئك الذين ألهوا الكواكب وعبدوها كالصابئة وذلك بمثل آية إبراهيم عليه السلام " فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين " (٥) ورد على منكرى النبوات بمثل قوله تعالى : " وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبحث الله بشرا رسولا قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا " . (٦)

---

١ – علم الكلام للدكتور أبو الوفا التفتازانى صـ٧، ٨ .
٢ – سورة الحج آية ١٧ .
٣ – سورة البقرة آية ٦٢ .
٤ – سورة الجاثية آية ٢٤
٥ – سورة الأنعام آية ٧٦
٦ – سورة [illegible]

ورد على منكري البعث بمثل قوله تعالى "يوم نطوى السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنـا كنـا فـاعلين" . (١) إلى غير ذلك .

وعرض لمسائل التكليف والجبر والاختيار وأبـان الحجـة فيهـا فحكـى عن طائفة من المنافقين يوم أحد أنهم قالوا " هل لنا من الأمـر مـن شـيء ؟" وقالوا " لو كان لنا من الأمر من شيء ما قتلنا ههنـا " ورد عليهـم فـي قولهـم وأمر الرسول أن يدعو دعوته ويجادل مخالفيـه فقـال تعـالى " ادع إلـى سـبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن " .

فكان طبيعيا أن ينهج علماء الملة هذا المنهـج فيردوا علـى المخـالفين ويتوسعوا في الدفاع توسع المخالفين ويتوسعوا في الدفاع توسع المخالفين فـي الهجوم ويجدوا الحجج في الرد كلما جدد المخالفون الحجج فـي الطعـن فكـان هذا من أسباب نشوء علم الكلام . (٢)

والحقيقة أن القرآن الكريم قد تناول جميع موضوعات علم الكلام مـن حيث الإلهيات والنبوات والسمعيات .

٢- الإمامة والخلافات السياسة :

من أبرز الأسباب الداخلية التي ساعدت على بزوغ علم الكلام مسـألة الإمامة . والخلافات السياسية التي ارتبطت بعقائد الدين ، يقول الشهرستاني " الإختلاف في الإمامة على وجهين : أحدهما القول بأن الإمامة تثبت بالاتفـاق والإختيار والثاني القول بأن الإمامـة تثبت بـالنص والتعييـن . فمـن قـال بـأن الإمامـة تثبـت بالاتفـاق والإختيـار قـال بإمامـة كـل مـن اتفقت عليـه الأمـة أو جماعة معتبرة من الأمة إما مطلقا وإما بشـرط أن يكـون قرشـيا علـى مذهـب قوم وبشرط أن يكون هاشميا على مذهب قوم إلى شرائط أخرى .

---

١ سورة الأنبياء آية ١٠٤

٢ ضحى الإسلام للدكتور أحمد أمين صـ٢ جـ٣ الهيئة العامة للكتاب

ومن قال بالأول فقال بإمامة معاوية وأولاده وبعدهم بخليفة مروان وأولاده والخوارج اجتمعوا في كل زمان على واحد منهم ، بشرط أن يبقى على مقتضى اعتقادهم ويجرى على سنن العدل في معاملاتهم وإلا خذلوه وخلعوه وربما قتلوه .

ومن قالوا : أن الإمامة تثبت بالنص احتلفوا بعد على رضى الله عنه فيمن هو منصوص عليه بعده كرم الله وجهه (١) .

وترى الشيعة " أن الإمامة ليس من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ، ويتعين القائم بها بتعيينهم ، بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام ولا يجوز لنبى إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الامام لهم ويكون معصوما من الكبائر والصغائر " . (٢)

ويرد الإمام ابن خلدون على دعوى الشيعة بتعيين سيدنا على رضى الله عنه بالنص فيقول (أن عليا رضى الله عنه هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم ، لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة ؛ بل أكثرها موضوع أو مطعون فى طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة) (٣)

وتكفر الخوارج مرتكب الكبيرة ، وتذهب الروافض من الشيعة إلى إضلال أكثر الصحابة بتركهم الاقتداء بعلى رضى الله عنه بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وكفرت فرقة الكمالية () كل من ترك الاقتداء بالإمام على وزعموا أن عليا رضوان الله عليه كان مصيبا فى جميع أحواله وأنه لم يخطئ فى شيء من أمور الدين . (٤)

---

١ -الملل والنحل للشهرستاني جـ١ صـ٣٣-٣٤ الناشرمكتبة الأنجلو المصرية تحقيق د/ محمد بن فتح الله بدران.الطبعة الثانية

٢ مقدمة ابن خلدون صـ١٧٥-١٧٦ . مطبعة دار الشعب .

٣ المصدر نفسه صـ١٧٦

٤ مقالات الإسلاميين للأشعري جـ١ صـ٨٩

لكن ما الذى جعل الخلافات السياسية بين المسلمين مرتبطة عندهم بالعقائد ؟ يجيب عن هذا التساؤل الدكتور التفتازانى بوضوح تام فيقول : " أن الخلاف السياسى بين المسلمين ما كان ليبتعد عن الدين لأن كل فريق من الفرق المتنازعة كان يلجأ إلى نصوص الدين دائمًا ليؤيد موقفه ، وهذا يدعوه إلى الإجتهاد فى فهم النصوص أو تأويلها تأويلاً خاصا ، عندئذ صار لكل حزب سياسى فرقة دينية لها معتقداتها ، كالشيعة والخوارج والمرجئة ثم عمد أصحاب كل فرقة بعد ذلك إلى اصطناع شعراء وعلماء تلك الفرق الأحاديث ليدعموا بها معتقداتهم ، فصار الأمر متعلقا بالدين ومسائله الاعتقادية تعلقا كبيرا " . (١)

هكذا كانت الحياة السياسية سببا داخليا هاما لإقامة مثل هذا العلم الذى يساعد العالم فيه على معرفة الحجج الصحيحة من الحجج الفاسدة ، وكيف يدعم وجهة نظره عن طريق إجتهاده فى فهم النصوص أو تأويلها .

٣- **وأيضا من عوامل نشأة علم الكلام الداخلية** ، أن المسلمين لما فرغوا من فتح البلاد ، واستقربهم الأمر واتسع لهم الرزق أخذ عقلهم يتفلسف فى الدين ميثير خلافات دينية ، ويجتهد فى بحثها والتوفيق بين مظاهرها ، ويكاد يكون مظهرا عاما فى كل ما نعرفه من أديان .

فهى أول أمرها عقيدة ساذجة قوية لا تأبه الخلاف ولا تلتفت إلى بحث وفلسفة ؛ ثم يأتى طور البحث والنظر وصبغ مسائل الدين صبغة علمية فلسفية ، وإذ ذاك يلتجئ رجال الدين إلى الفلسفة يستعينون بها فى تدعيم حججهم وتقوية براهينهم ؛ هذا ما كان فى اليهودية ، وهذا ما كان فى النصرانية وهذا ما كان فى الإسلام

(١) علم الكلام د/ التفتازانى ص١٨

فقد كاد ينقضى العصر الإسلامى الأول فى إيمان لا يعتوره كثير من الجدل ؛ فلما هدأ الناس أخذوا ينظرون ويبحثون ويتوسعون فى النظر والبحث ويجمعون بين الأشباه والنظائر ، ويستخرجون وجوه الفروق والموافقات فكان ذلك يستتبع حتما اختلاف وجهة النظر ، فاحتلاف الآراء والمذاهب . (١)

يقول الدكتور أحمد أمين " أن المسلمين الأولين كانوا يؤمنون بالقدر خير وشره ويؤمنون بأن الإنسان مكلف بما أمره الله به وكان إيمانهم بذلك إيمانا قويا مجملا من غير تعمق فى بحث ولا تفلسف فى نظر ، فجاء من بعدهم يجمعون الآيات الواردة فى هذا الموضوع ويفلسفونها " (٢)

فرأوا من ناحية مثلا أن الله يقول " أن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون " (٣)

ويقول " ذرنى ومن خلقت وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيدا كلا إنه كان لآياتنا عنيدا سأرهقه صعودا " . (٤) ويقول " تبت يدا أبى لهن وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب " (٥)

فقالوا أن هذه الآيات وأمثالها يدل ظاهرها على الجبر والتكليف بما لا يطاق وقد أخبر الله فى كل من الآيتين الآخيرتين عن شخص معين أنه لا يؤمن قط ومع هذا كله كلفه الإيمان . ومن ناحية أخرى ملىء القرآن بالآيات الدالة على أنه لا مانع لأحد من الإيمان . " وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى " (٦)

١- ضحى الاسلام أحمد أمين جـ٣ صـ٢ .
٢- المصدر نفسه جـ٣ صـ٣ .
٣ - سورة البقرة آية ٦ .
٤ - سورة المدثر الآيات من ١١-١٧ .
٥- سورة المسد الآيات من ١-٣ .
٦ سورة الكهف الآية ٥٥ .

وقال تعالى " رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل " (١) " وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر " (٢) فكيف التوفيق بين هذه الآيات جميعا ؟ وهل الإنسان مجبر أو مختار وهكذا جمعوا الآيات التى ظاهرها الخلاف ، وأخذوا يبحثونها البحث العلمى الفلسفى ، ويوازنون فأداهم ذلك إلى الاختلاف فى الحجج والاختلاف فى المذاهب مما كان أساسا من أسس علم الكلام . (٣)

---

١ – سورة النساء آية ٢٦٥ .
٢– سورة النساء آية ٣٩ .
٣– ضحى الاسلام صـ٣-٤ جـ٣ للدكتور أحمد أمين .

المبحث الثاني ثانيا: عوامل نشأة علم الكلام الخارجية

جاء علم الكلام وليد صراع فكرى بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى ، ذلك أن الإسلام قد انتشر فى أقطار حافلة بشتى الديانات ومن ثم وجب استعراض أوجه الخلاف كما صادفه مسلمو القرون الأولى للهجرة ، وكيف عن انبعث عن هذا الخلاف موضوعات علم الكلام .

أولاً : بين الإسلام واليهودية :

١ – التنزية والتشبيه .

اشتقاق لفظ اليهود من هاد الرجل إذا رجع وتاب من ذنبه وذلك لأنهم عندما تابوا ورجعوا من عبادة العجل الذى صنعه لهم السامرى قال موسى عليه السلام داعيا ربه (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك .. " (١) أى رجعنا وتبنا وتضرعنا وكتابهم التوراة أول كتب نزل من السماء لأن ما نزل على إبراهيم ما كان يسمى كتابا بل صحفا . (٢)

تلتقى اليهودية مع الإسلام فى التوحيد والنبوة يقول ابن حزم " أن أهل هذه الملة موافقون لنا فى التوحيد ثم النبوة وبآيات الأنبياء عليهم السلام وبنزول الكتب من عند الله عز وجل " . (٣)

غير أن مفهوم التوحيد متباين فى العقيدتين من جانبين :

الأول : انه ارتبط فى اليهودية بما ورد فى التوراة : خلق الله آدم على صورته (٤)

---

١ - سورة الأعراف آية ١٥٦

٢ - الملل والنحل للشهرستانى جـ١ صـ١٩٢

٣ - الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ١ صـ١٧٧ دار الجيل - بيروت - لبنان تحقيق د/ محمد ابراهيم نصر ، د/ عبد الرحمن عميرة

٤ - سفر التكوين الاصحاح الأول

الأمر الذى جعل تصورهم لله على نحو بشرى إذ جعلوا على الله صفات الانسان الجسمية ، والإنفعالية : وفرغ الله فى اليوم السادس من عمله الذى عمل فاستراح فى اليوم السابع .

وسمعا آدم وحواء صوت الرب ماشيا فى الجنة ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض وتأسف فى قلبه فقال الرب امحو عن وجه الأرض الانسان الذى خلقته إلى آمر ما ذكره سفر الخروج من خرافات وتشبيهات تخلع على الإله صفات البشرية تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا

الثانى : أن الألوهية ارتبطت عند اليهود لعقيدة شعب الله المختار فهو ليس إله البشرية وعليها أن تدين له بالربوبية وإنما هو إله خاص ببنى اسرائيل .

وإذا كان الإسلام قد قابل هذا التصور بفكرة عالمية الدين بما ينطوى عليه من ربوبية الله للبشر جميعا وسواسية الناس جميعا ، فإنه حيث كان المسلمون منتصرين واليهود مغلوبين على أمرهم ، فإن هذا التصور لم يلق اهتمام علماء الكلام بمثل ما لقى تصورهم التشبيه والتجسيم ومن ثم اتهمت فرق المشبهة والمجسمة من المسلمين بالميل إلى اليهودية أو التأثر بها .

٢- إمكان نسخ الشرائع :-

ومعلوم كذلك أن اليهود ينكرون نبوة كل من عيسى ومحمد ، وقد لزم عن هذا الإنكار مشكلة كلامية واعنى بها النسخ إذ أنكر اليهود أن يأتى نبى من بعد موسى ينسخ شريعته ، إذ لا تكون الشريعة إلا واحدة أبتدأت بموسى وتمت به .

ويستندون فى ذلك إلى أسانيد نقلية وعقلية ، أما النقلية فما ورد فى التوراه من أن هذه الشريعة مؤيدة عليكم ولازمة لكم ما دامت السماوات لا نسخ لها ولا تبديل ، وأما العقلية فهو أن النسخ فى الشرائع بداء ، ويقصد

بالبداء الظهور بعد الخلفاء أو الإنتقال من عزم إلى عزم أو من حال إلى حال لحصول شيء لم يكن حاصلا أو لم يكن به الرب عالما ، إنه يستحيل أن يأمر الله بالأمر ثم ينهى عنه ولو كان كذلك لعاد الحق باطلا والطاعة معصية والباطل حقا والمعصية طاعة .

ذهبت معظم طوائف اليهود إلى استحالة نسخ الشرائع فلا يغير الله حكما أنزله ولا ناموسا افترضه ، لقد طلب من الأنبياء من بعد موسى أن يكملوا الناموس ، وقد قال عيس " ما جئت لأبطل التوراة بل جئت لاكملها " وحين ذهبت التوراة إلى أن النفس بالنفس والعين بالعين ولأنف بالأنف والأذن بالأذن والجروح قصاص ، ذهب الا بخيل إذ الطمك أخوك على خدك الأيمن فضع له خدك الأيسر . ([1])

أما رد المسلمين على سندهم النقلى فيتصل برأيهم فى التوراة ونصوصها ، حقيقة لقد وردت آيات فيها مدح التوراة " إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور " ([2]) .

وقد اختلفت أنظار المسلمين إلى التوراة على أقوال ثلاثة ، فقال قوم إنها كلها أو اكثرها مبدلة مغيرة ، وليست هى التوراة التى أنزلها الله على موسى . وتعرض هؤلاء لتناقضها وتكذيب بعضها لبعض .

وذهبت طائفة أخرى من أئمة الحديث والفقه والكلام إلى أن التبديل وقع فى التأويل لا فى التنزيل ، وهذا مذهب البخارى قال فى صحيحه " يحرفون الكلم عن مواضعه " ([3]) أى يتأولونه على غير تأويله وهذا هو ما اختاره الرازى فى تفسيره ، وحجتهم فى ذلك أن التوراة قد طبقت مشارق

---

١ - الملل والنحل للشهرستانى جـ١ صـ١٩٤ .

٢ - سورة المائدة آية ٤٦ .

٣ - سورة النساء آية ٤٦

الأرض ومغاربها ومن الممتنع أن يقع التواطوء على التبديل والتغيير في جميع نسخها ([1])

ويستندون في ذلك أيضا إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد " .

وذهبت طائفة ثالثة إلى أنه قد زيد فيها وغير ألفاظ يسيرة ، ولكن أكثرها باق على ما أنزل عليه ، والتبديل في يسير منها جدا . وممن اختار هذا القول ابن تيمية في كتابه " الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح " . ([2])

وقد جادل المتكلمون اليهود لإبطال سندهم العقلي ، إذ لا يفيد النسخ البداء على الله ، فإن من تدبر أفعال الله تعالى كلها وجميع أحكامه يعلم أنه تعالى يحى ثم يميت ثم يحى ، وينقل الدول من قوم أعزة فيذلهم ، ومن قوم أذلة فيعزهم وليس معنى النسخ الا أن يأمر الله عز وجل بأن يعمل عمل ما مدة ثم ينهى عنه بعد انقضاء تلك المدة أن الشرائع أوامر في وقت ممدود فإذا انقضى الوقت عاد الأمر منهيا أو المنهى مباحا .

وإذا كان النسخ من حيث صلته بالبشر مراعاة مصالح متجددة فإنه من جهة الله منزل الشريعة لا يعد تحولا أو تبديلا وإنما هو تكميل جاءت : التوراة بالقصاص وتلك أحكام السياسة الظاهرة العامة وطالب للا بخيل بالصفح وذلك حكم من أحكام السياسة الباطنة الخاصة ثم جاءت الشريعة الأخيرة – شريعة محمد – بالأمرين جميعا :

أما القصاص ففي قوله تعالى " كتب عليكم القصاص " ([3])وأما العفو ففي قوله تعالى " وأن تعفوا أقرب للتقوى " ([4])جاء القرآن إذن بأحكام

---

[1] ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين جـ١ صـ٣٤٥ . ٣٤٦ الهيئة المصرية العامة للكتاب
[2] المصدر نفسه جـ١ صـ٣٤٦ .
[3] البقرة اية ١٧٨
[4] البقرة اية ٢٣٧

السياستين جميعا القصاص وفى ذلك تحقيق السياسة الظاهرة والعفو وفيه إشارة إلى تحقيق السياسة الباطنة وقد قلا عليه السلام " هو أن تعفو عن ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك " . (١)

ويلتمس المتكلمون من نصوص التوراة ما يدعم حجة المسلمين بصدد نبوة عيسى ومحمد ، يقول الشهرستانى " واعلم أن التوراة قد اشتملت على دلالات وآيات تدل على كون شريعة نبينا المصطفى عليه السلام حقا وكون صاحب الشريعة صادقا بالرغم مما حرفوه وغيروه وبدلوه إما تحريفا من حيث الكتابة والصورة وإما تفسيرا من حيث التفسير والتأويل ، وأظهرها ذكر إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل ، ودعاؤه فى حقه ذريته وأجابه لارب تعالى إياه إنى باركت على إسماعيل وأولاده وجعلت فيهم الخير كله وسأظهرهم على الأمم كلها وسأبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتى واليهود معترفون بهذه القضية إلا أنهم يقولون أجابه بالملك دون النبوة والرسالة " . (٢)

وقد ورد فى التوراة أن الله تعالى جاء من طور سيناء وظهر بساعير وعلن بفاران وساعير جبال بيت المقدس التى كانت مظهر عيسى عليه السلام وفاران جبال مكة التى كانت مظهر المصطفى صلى الله عليه وسلم . ولما كانت الأسرار الإلهية والأنوار البانية فى الوحى والتنزيل والمناجاة والتأويل على مراتب ثلاث مبدأ ووسط وكمال والمجئ أشبه بالمبدأ والظهور أشبه بالوسط والإعلان أشبه بالكمال ، عبرت التوراة عن طلوع صبح الشريعة والتنزيل بالمجئ من طور سيناء وعن طلوع الشمس بالظهور على ساعير

---

١ الملل والنحل للشهرستانى جـ١ صـ١٩٥ .
٢ الملل والنحل جـ١ صـ١٩٣

وعن بلوغ درجة الكمال بالإستواء والإعلان على فاران وفى هذه الكلمات إثبات نبوة المسيح عليه السلام والمصطفى محمد صلى الله عليه وسلم . (١)

فكان لابد من علم يجلى عقيدة التوحيد الصحيحة أمام غزو فكرى يهودى عنيف تسللت بعض إسرائيلياته وتشبيهاته لبعض الفرق الإسلامية الغالية ، بل إننا نجد أن بعض كتب التفسير قد امتلأت بالإسرائليات وقد كان أثر الفكر اليهودى واضحا لدى غلاة الشيعة بالذات القائلين بالرجعة وكذا اليهود يقولون برجعة عزيز وهارون .

ويبين الإمام الأشعرى مدى تأثر الروافض فى رجعة الأموات بالأثر اليهودى فيقول : "اختلفت الروافض فى رجعة الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة وهم فرقتان : فالفرقة الأولى منهم يزعمون أن الأموات يرجعون إلى الدنيا قبل يوم الحساب وهذا قول الأكثر منهم ، وزعموا أنه لم يكن فى بنى إسرائيل شىء إلا ويكون فى هذه الأمة مثله وأن الله سبحانه قد أحيا قوما من بنى إسرائيل شىء إلا ويكون فى هذه الأمة مثله وأن الله سبحانه قد أميا قوما من بنى إسرائيل بعد الموت فكذلك يحى الموتى فى هذه الأمة ويردهم إلى الدنيا قبل يوم القيامة .

والفرقة الثانية منهم وهم أهل الغلو ينكرون القيامة والآخرة ويقولون ليس قيامة ولا آخرة وإنما هى ارواح تتناسخ فى الصور فمن كان محسنا جوزى بأن ينقل روحه إلى جسد لا يلحقه فيه ضرر ولا ألم ومن كان مسيئا جوزى بأن ينقل روحه إلى أجساد يلحق الروح فى كونه فيها الضرر والألم وليس شىء غير ذلك وأن الدنيا لا تزال أبدا هكذا " . (٢)

وأثر اليهودى عبد الله بن سبأ لدى غلاة الشيعة معروف عند الباحثين وطائفة الغرابية من علاة الشيعة متأثرون بكراهية اليهود لجبريل عليه السلام

---

١ المصدر السابق جـ١ صـ١٩٤

٢ مقالات الإسلاميين للأشعرى جـ١ صـ١١٩

ولهذا فإن الغرابية تزعم أن جبريل غلط في طريقه مذهب إلى محمد لأنه كان يشبهه وقالوا كان أشبه من الغراب بالغراب .

وزعموا أن عليا كان الرسول وأولاده من بعده رسل . هذه الطائفة تقول لأتباعها " العنوا صاحب الريش " يعنون به جبريل عليه السلام . (١)

ثانيا : بين الإسلام والمسيحية :-

أما عن أهم المسائل التى أثرت فيها المسيحين فى علم الكلام الإسلامى فلعل أبرزها كما يرى الدكتور حسام الدين الألوسى .

مسألة البحث في قدم الصفات أو حدوثها عند متكلمينا ومحاولة القول بأنها هى ذاتها كرد فعل على فكرة الأقانيم . بينما تظهر فكرة قدم الصفات التى هى ليست نفس الذات كبديل وشبيه لفكرة الأقانيم وكذلك القول بصفات فعل وصفات ذات .

وفى قول المرجئة بأن للعذاب والنار فى الآخرة نهاية أن هذا القول هو قول آباء الكنيسة الشرقية ، وهذا قول يعارض رأى الكنيسة الغربية التى ترى خلود عذاب النار .

ولا يستطيع الباحث أن يفضل هذا التشابه بين فكرة الغلاة عن على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وبين المسيح كما نجده عند المسيحين فإن فكرة ألوهية على ورجعته وقيامة بمعجزات تشبه معجزات المسيح وفكرة المهدى لأن تكون ذات أثر مسيحى إلى جانب الآثار الأخرى .

بالإضافة إلى تأثير المسيحية فى التصوف . خصوصا فكرة الحب حيث يرى جولد زيهر أن الرجعة أصلها يهودى مسيحى مشترك بالاضافة إلى تأثير المسيحية فى التصوف خصوصا فكرة الحب .

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادى صـ١٥٢ تحقيق طه عبد الرءوف مطبعة الحلبى .

وكذلك يعزو البعض مثل أدم التشبيه عن بعض المشبهة والحلولية إلى التأثير المسيحى وكذلك فعل مؤرخونا القدامى كما نجد ذلك فى معظم كتب الفرق .

ومن هنا كان على علماء الكلام الإسلاميين دور هام فى تنقية الفكر الإسلامى من شوائب ولوثات لا تمت إلى دين التوحيد بصلة ومن هنا كان الصراع قويا بين العقيدة الإسلامية وعقائد الكتابيين يقول الدكتور التفتازانى " ونتيجة لذلك الخلاف الواضح بين عقائد الإسلام وعقائد الأديان السماوية الأخرى ، ولما أظهره بعض المسلمين لاذين سبق انتماؤهم إلى تلك الديانات من شبهات كان لابد للمسلمين من الدفاع عن العقائد الاسلامية والدخول فى صراع عقائدى مع اليهود والنصارى . وطبيعى أن يحاول كل فريق عندئذ أن يظهر على الفريق الآخر بالحجة .

وهنا ظهرت حاجة المسلمين منذ أواخر العصر الأموى إلى الاطلاع على المنطق اليونانى للإستعانة فى الرد على اليهود والنصارى الذين كانت ثقافتهم يونانية فكان ذلك كله من الأسباب التى دعت إلى وجود علم الكلام باعتباره العلم المدافع عن العقائد الإسلامية بالحجج العقلية " (١)

ثالثا : أثر الديانات القديمة فى نشأة الفكر الكلامى :

وإذا انتقلنا إلى أثر الفرس فى نشأة الفكر الكلامى والفلسفى لدى المسلمين نلاحظ أن المسلمين حينما فتحوا بلاد الفرس واختلطوا بأهلها وجدوا بها فكرا وثنيا وحضارة وثنية واضحة ومن المعلوم عن الفكر الإسلامى الصحيح أنه يرفض ما لا يناسبه ولا يتناسب مع عقيدة التوحيد . ولقد أثر الفكر الغنوصى (٢) الفارسى لدى الزنادقة وغلاة فرق الشيعة والقرامطة

علم الكلام وبعض مشكلاته للدكتور التفتازانى صـ٢٢

٢ الغنوص : أو الغنوسيس كلمة يونانية الأصل معناها المعرفة غير أنها أخذت بعد ذلك معنى اصطلاحيا هو التوصيل بنوع من الكشف الى المعارف العليا أو هو تذوق تلك المعارف تذوقا مباشرا بأن تلقى فى النفس إلقاء فلا تستند على الإستدلال أو البرهنة العقلية نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ١ صـ١٨٦ د / النشار .

والباطنية لدرجة أن المهدى طارد أتباع هده الفرق فى كل مكان ولعل الفكر الغنوصى كان أحد الأسباب لإستخدام أسلوب التأويل الغريب والمتطرف لدى بعض فرق الغلاة والجماعات التى تدعى أحيانا تأويلاً باطنيا وتأملاً باطنيا و ذوقاً غنوصياً صرفاً .

وبهذا نرى أن الديانات القديمة كان لها أثر فى نشأة علم الكلام وقد أوضح ذلك دى بور حين قال " أن ما جاء للمسلمين من الحكمة الهندية والفارسية كان أهم من كل ما ورثوه من العقل السامى وتستيطع أن تتبين فى شيء من اليقين ما أخذه المسلمون مباشرة عن الفرس والهنود .

ففى بلاد الفرس قام مذهب الإثنينية ومن المحتمل أن تكون تعاليم الفرس الدينية قد أثرت فى الخلافات الكلامية فى الإسلامية تأثيرا مباشرا أو عن طريق المانوية أو الفرق الغنوسطية الأخرى . (١)

وحكى ابن الجوزى مذهب الثنوية فقال " هم قوم قالوا أن صانع العالم اثنان فاعل الخير ، وفاعل الشر وأن الله لا يوصف إلى بالنفى دون الإثبات وأن العالم لا يفنى " . (٢)

ومذهب الدهرية صار دينا ظاهرا يجاهر الناس بالإعتراف به فى عهد يزدجرد الثانى من الدولة الساسانية هو أعظم من ذلك تأثيرا فى المفكرين الذين لا يتصل تفكيرهم بالدين . . ولكن متكلمى الاسلام أنكروا هذا المذهب انكارهم للمادية ، والكفر بالخالق وما إليهما ، ولم يكن أصحاب المذهب المثالى من الفلاسفة أقل انكارا له من المتكلمين . (٣)

---

١ - الغنطوسية : جماعات دينية فلسفية ظهرت فى القرنين الأول والثانى للميلاد ولهم نزعة صوفية . . تجمع بين مختلف المذاهب وتحاول التوفيق بين جميع الأديان وتمزج الدين بالفلسفة . تاريخ الفلسفة فى الإسلام صـ١٥ بالهامش لديبور ترجمة د/ محمد عبد الهادى أبو ريدة الناشر مكتبة النهضة المصرية الطبعة الخامسة

٢ - تلبيس ابليس صـ٧٦

٣ تاريخ الفلسفة فى الإسلام صـ١٥-١٦ ترجمة د/ محمد عبد الهادى أبو ريدة

وكان من أهم عوامل نشأة علم الكلام التصدى لهذه التيارات العاتية ومقاومتها . يقول المسعودى " وكان الخليفة المهدى أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب فى الرد على الملحدين . . وأقاموا البراهين على المعاندين وأزالوا الملحدين فأوضحوا الحق للشاكين " (١) وكانت مهمة المعتزلة مدافعة الثنوية والزنادقة والرد عليهم .

رابعًا : الترجمة : بواعث الترجمة .

وهى من أهم العوامل التى ساعدت على نشأة علم الكلام ولذلك يبين الشهرستانى أثر الترجمة اليونانية وصلتها بعلم الكلام فيقول " طالع شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين نشرت أيام المأمون ، فخلطت مناهجها بمناهج الكلام وأفردتها فنا من فنون العلم وسمتها باسم الكلام . . .

أما رونق الكلام فابتداؤه من الخلفاء العباسيين : هارون ، والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل وانتهاؤه من الصاحب ابن عباد وجماعة من الديالمة " . (٢)

فالترجمة فى بدايتها أدت إلى خلط مسائلها بقضايا علم العقيدة ثم لعلم الكلام طلاوه بمقاييس الفلسفة فى العصر العباسى .

يقول الإمام محمد عبده " تفرقت السبل باتباع واصل وتناولوا من كتب اليونان مالاق بعقولهم وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبتة العلم بدون تفرقة بينَ ما كان منه راجعا إلى أوليات العقل ، وما كان سرابا فى نظر الوهم ، فخلطوا بمعارف الدين ما لا ينطبق على أصل من أصول النظر ولجوا فى ذلك حتى صارت شيعهم تعد بالعشرات أيدتهم الدولة العباسية وهى فى ريعان القوة فغلب رأيهم وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب .

---

١ - المسعودى مروج الذهب جـ٢ صـ٤٠١ .

٢ - الملل و النحل للشهرستانى جـ١ صـ٣٧

فأخذ التمسكون بمذاهب السلف يناضلونهم معتصمين بقوة اليقين ، وان لم يكن لهم عضد من الحاكمين .

عرف الأولون من العباسيين ما كان من الفرس فى إقامة دولتهم وقلب دولة الأمويين ، واعتمدوا على طلب الأنصار فيهم ، وأعدوا لهم مناصب الرفعة بين وزرائهم وحواشيهم . . . وكان فيهم المانوية واليزدية ومن لا دين له وغير أولئك من الفرق الفارسية ، فأخذوا ينفثون من أفكارهم ويشيرون بحالهم وبمقالهم إلى من يرى آرائهم أن يقتدوا بهم فظهر الإلحاد وتطلعت رءوس الزندقة حتى صدر أمر المنصور بوضع كتب لكشف شبهاتهم وإبطال مزاعمهم . " [١]

وقد بدأت الترجمة على يد حكيم آل مروان خالد بن يزيد وكان له همة ومحبة للعلوم يقول ابن النديم " كان خالد بن يزيد بن معاوية " المتوفى عام ٨٥هـ - ٧٠٤ م " خطر بباله صناعة الكيمياء . فأمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر . وقد تفصح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليوانى والقطبى إلى العربى وهذا أول نقل كان فى الاسلام " . [٢]

وقد أهتم العلماء بترجمة المنطق فكان أول العلوم المترجمة .

يذكر المؤرخون استنباطا من مظاهر الحياة العقلية فى آخر الدولة الأموية وأول قيام الدولة العباسية أن الأسباب فى ترجمة المنطق أيام المنصور ترجع إلى كثرة التناظر والجدل الدينى بينهم من جهة وغيرهم من أهل الكتاب من اليهود والنصارى من جهة أخرى .

فقد ألجأهم هذا الإشتباك فى الجدل إلى الاطلاع على منطق اليونان كى يسترشدون أن فى تنظيم الحجج وترتيب البراهين حتى يجاروا الطرف

---

١ رسالة التوحيد للامام محمد عبده صـ١٥-١٦ .

٢ الفهرست لإبن النديم صـ٣٣٨-٣٤٠ دار المعرفة

الآخر وهو اليهود والنصارى ، إذ كان معروفا عنهم أنهم متثقفون بالثقافة الإغريقية التى فى مقدمتها المنطق ، كما لوحظ حسن استخدامهم لأساليب الحجاج والمجادلة وإلى دخول كثير من عقائد الفرس وأقوالهم الدينية فى الجماعة الاسلامية وقد سلك الفرس فى تأييد عقائدهم مسلك الأمية الصناعية المؤسسة على المنطق الإغريقى فحمل ذلك علماء الاسلام على أن يسلكوا نفس طريقتهم فى معارضتهم بعد اتقانها . ولكى يتمكنوا من إجادتها عمدوا إلى المنطق اليونانى يستمدون منه حاجتهم .

وإذا كان المسلمون منذ آخر عصر الدولة الأموية قد رأوا أسلوب حججج المعارضين من أهل الديانات الأخرى ورأوا طريقتهم فى الجدل وأدركوا من أجل ذلك حاجتهم فى الوقوف على صنعة المعارضين كى يجازوهم فى طريقة الإقناع أو الإلزام . فإن شخص المنصور بما له من سلطان وبما يحكى عنه من تمكن حب العلم والدين فى نفسه كان العامل الرئيس فى ترجمة المنطق أيام خلافته . (١)

ورغبة المسلمين فى الدفاع عن العقيدة كانت أساس علم الكلام عندهم ، كما كانت السبب فى نشأته عند غيرهم أيضا . والمنطق اليونانى هو أول فرع من فروع الفلسفة بمعناها الخاص كان له الإتصال بعلم الكلام الإسلامى كما كان شأنه مع كلام غيرهم كذلك ، وما تركه من أثر إيجابى فيه ، ولم يزل باقيا فى كتبه حتى الآن . (٢)

وكانت فائدة الفلسفة فى هذا المقام كما يقول ابن خلدون (شحذ الذهن فى ترتيب الأدلة والحجج لتحصيل ملكة الصواب والجودة فى البراهين . .) وما تحدث فيه المتكلمون فليس بحثا عن الحق . إنما هو التماس حجة عقلية ، تعضد عقائد الإيمان ومذاهب السلف فيها ، وتدفع شبه أهل البدع عنها ،

---

١ - الجانب الإلهى من التفكير الاسلامى صـ١٦٨ د/محمد البهى مكتبة وهبة الطبعة السادسة
٢ - المصدر السابق صـ١٦٨ .

الذين زعموا أن مداركهم فيها عقلية . . والمتكلمون إنما دعاهم إلى ذلك – أى إلى الحجاج العقلى الفلسفى – كلام أهل الإلحاد فى معارضات العقائد السلفيه بالبدع النظرية؛ فاحتاجوا إلى الرد عليهم من جنس معارضتهم) . (1)

وكما يقول جوستاف جرونيباوم (كان القائمون بعلم الكلام يعلمون بأدوات إغريقية فكانت المصطلحات الإغريقية والمناهج الإغريقية والمسائل الاغريقية هى الموجهة لمحاولاتهم وجهودهم ولكنهم كانوا يسلمون بالمقدمات الأساسية الإسلامية التى كان الفلاسفة يرفضونها " . (2) ويقول ديبور (رأينا فيما تقدم أن الحركة الكلامية فى الإسلام تأثرت بالفلسفة تأثرا قويا فالمتكلمون من المعتزلة بل من خصومهم أخذوا من الفلاسفة آراءهم ومعظم الأدلة التى كانوا يؤيدون بها مذاهبهم أو يحاربون بها مذاهب خصومهم وهم لم يأخذوا إلا ما احتاجوا إليه أما غيره فلم يتعرضوا له أو هم حاولوا إبطاله " . (3) ريقول (أن علم الكلام الإسلامى أفاد من الفلسفة اليونانية لؤيل نظافه العقلى على أساس من المسلمات القرآنية " . (4)

أدوار الترجمة :-

قسم الأستاذ سنتلانا فى " محاضراته " الحقبة التى ترجمت فيها الكتب اليونانية إلى العربية ثلاثة أدوار .

الدور الأول :

فيبدأ من خلافة المنصور إلى آخر عهد الرشيد أى من سنة ١٣٦هـ – إلى سنه ١٩٣ هـ وفى الدور ترجم كلية ودمنة من الفارسية ، والسند هند من الهندية ، وترجمت بعض كتب أرسطو طاليس فى المنطق وغيره وترجم كتب

---

١ - مقدمة ابن خلدون صـ٥١٩، ٤٩٥ ، ٤٩٦ .
٢ حضارة الإسلام صـ٤١٢ .
٣ - تاريخ الفلسفة فى الإسلام صـ٣١٦ – ٣١٧
٤ - دراسات فى حضارة الإسلام صـ٢٧٦ .

المجسطى فى الفلك ومن أشهر المترجمين فى هذا الدور ابن المقفع وجورجيس بن جبرائيل ويوحنا ابن ماسوية وكلاهما كان طبيبا نصرانيا .وفى هذا الدور اتصلت المعتزلة بالكتب التى ترجمت فنجد الأولين منهم كالنظام عرف ارسطو وعرف بعض كتبه فى الفلسفة وتأثرت أبحاثهم بالمنطق ، وتكلموا فى الطفرة والجوهر والعرض ، وما إلى ذلك وكان كلامهم فى هذا قبل المأمون مما يدل على اتصالهم بالفلسفة من أول عهد الترجمة

الدور الثانى : من عهد المأمون من سنة ١٩٨هـ إلى سنة ٣٠٠ هـ وأشهر المترجمين فى هذا الدور يوحنا أو يحى البطريق – مولى المأمون – وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب وترجم كثيرا من كتب أرسطو والحجاج بن يوسف بن مطر الوراق الكوفى عاش سنة ٢١٤ وقسطا ابن لوقا البعلبكى وحنين بن اسحاق توفى نحو سنه ٢٦٠ وابنه اسحاق بن حنين توفى سنه ٢٩٨ وعنى بكتب الفلسفة عناية ابيه بالطب .

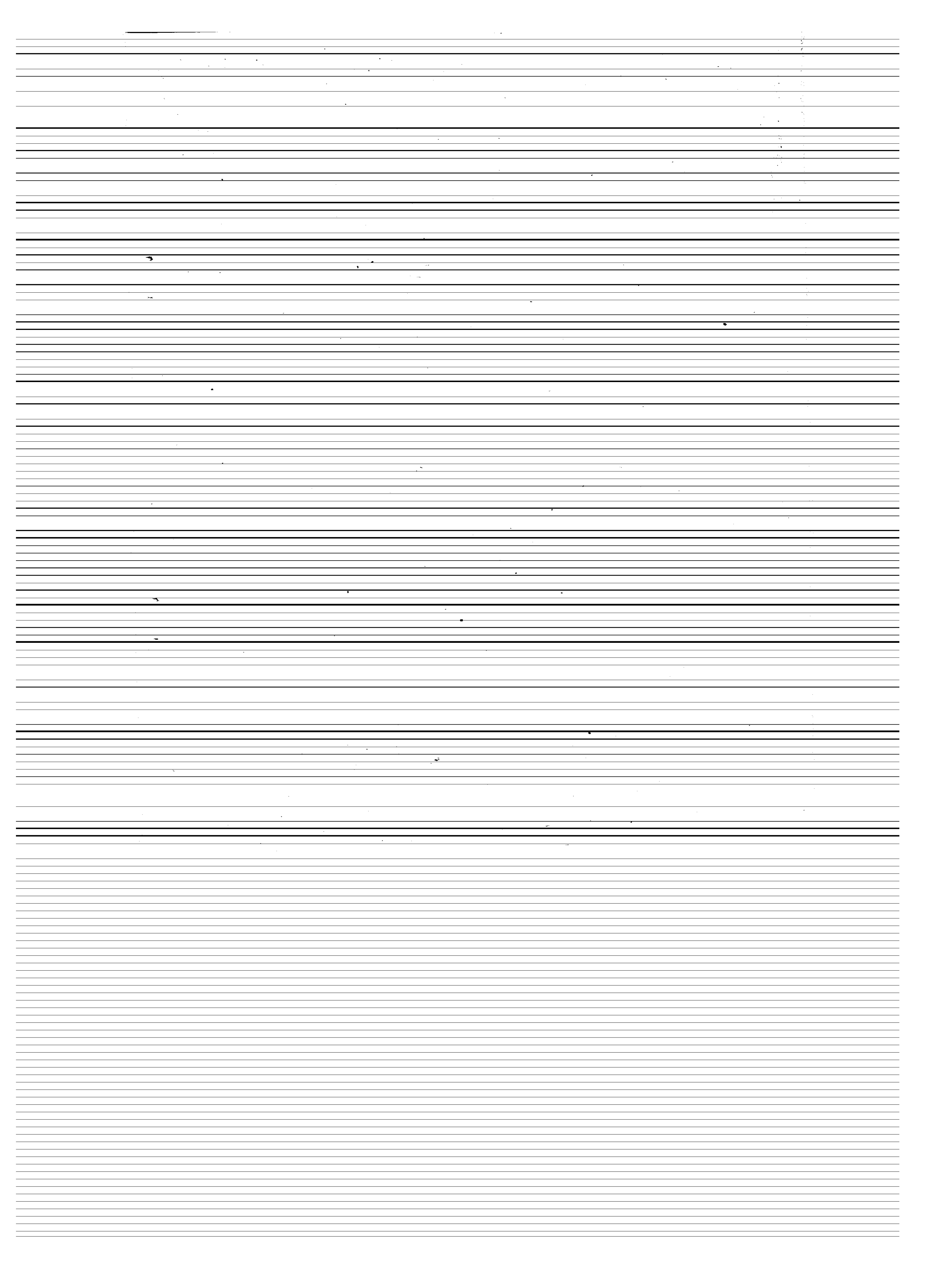
وقد ترجم فى هذا الدور أهم الكتب اليونانية فى كل فن فأعيدت ترجمة المجسطى والحكم الذهبية لفيثاغورس ، وجملة مصنفات لبقراط وجالينوس وكتاب طسماوس لأفلاطون وكتاب السياسية المدنية لأفلاطون وكتاب النواميس له أيضا وكتاب المقولات لأرسطو

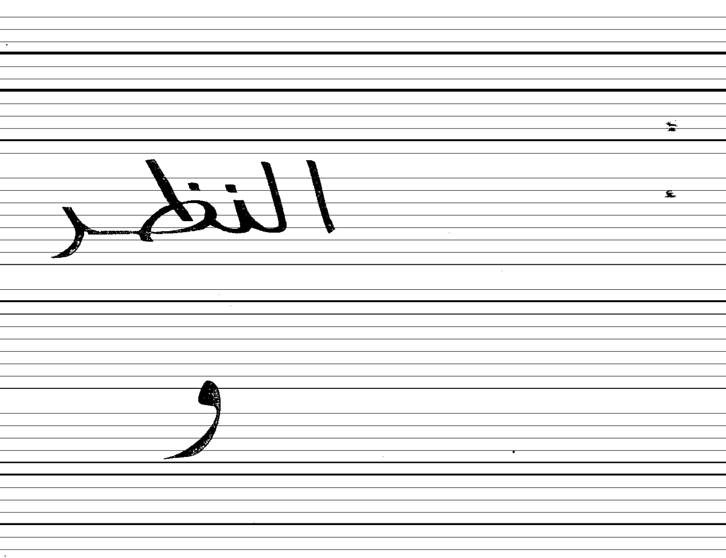
كل ذلك على يد حنين بن إسحاق ومدرسته ، وترجمت أغلب كتب أرسطو على يد إسحاق بن حنين .

الدول الثالث : من أتى بعد هؤلاء ومن أشهر المترجمين فيه متى ابن يونس كان فى بغداد سنة ٣٢٠ ، وسنان بن ثابت بن قرة مات سنة ٣٦٠ ويحى بن عدى سنة ٣٦٤ وابن زرعة سنة ٣٩٨ ، وأهم ما ترجموا الكتب المنطقية والطبيعية لأرسطو وتفسيرها (١)

ضحى الإسلام للدكتور احمد أمين جـ١ صـ٢٨٢ – ٢٨٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب

وهكذا فقد كانت الترجمة إحدى البدايات لمعرفة المسلمين علوم الأوائل ، وبعد ذلك بدأوا فى مناقشة هذه العلوم وأخذوا منها ما يوافق عقيدتهم ورفضوا كل ما يخالف الدين الإسلامى ومن هنا كانت معرفتهم بالمنطق آداة ساعتدهم على معرفة صحيح العلم والفكر من فاسده واستطاعوا أن يتكلموا بعمق وفكر ويجادلوا عن علم وهدى ، وذلك لتسلحهم بما عند الخصوم من جدل وفكر ، واستخدامهم هذا الفكر فى الدفاع عن العقيدة ضد خصومها .




النظر
و
التقليد

النظـــر والتقليـــــــد

أولا : النظر فى اللغـــة :ـ

النظـــر فى اللغـــة لفظـــة مشتركة بين معان كثيرة ..

فقد يذكر ويراد به تقليب البصر والبصيرة لادراك الشئ ورؤيتـــه ، وقد يذكر ويراد به الانتظار ، يقال نظرت فلانــا ، وانتظرتـــه ؛ بمعنى واحـــد ، ومنه قوله تعالى : " انظرونـــــا نقتبس من نوركم " (١)

قال الزجاج : معناه : انتظرونا ، وقال الفـــراء : تقول العرب انظرونـــى أى : انتظرنـــى قليـــلا ..

وقد يذكر النظر ويراد به العطف والرحمة ، والاحسان ، قال تعالى : " ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامـــة " (٢) قال ابن الاثير : معنى النظر هنا : الاحسان والرحمـــــة والعطف ، وقد يذكر ويراد به المقابلة ؛ تقول العرب : دور آل فلان تنظـــر الى دور آل فلان ؛ أى هى بازائهـــا ومقابلـــــة لها ، وتنظـــر كتنظـــر ، وتقول العرب دارى تنظر الى دار فـــلان ، أى تقابلهـــا ، وقيل اذا كانت محازيـــة ، وحـــى نظر ، أى ـ متجاورون ينظـــر بعضهم بعضـــا .

---

(١) سورة الحديد آية ١٣ ؛ (٢) سورة آل عمران آية ٧٧ .

وقد يذكر النظر ويراد به التأخير ، وفى التنزيل العزيز قوله تعالى : "وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة .."(١) ، فالنظرة بكسر الظاء : اسم من الانتظار ، وهو الامهال والتأخير .

وقد يذكر ويراد به التفكر بالقلب ، قال تعالى : أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت .."(٢) أى أفلا يفكرون فى خلقها ، والنظر يقع على الاجسام والمعانى ، فما كان بالابصار فهو للأجسام ، وما كان بالبصائر كان للمعانى .(٣)

وبهذا نرى أن مادة النظر قد وردت فى اللغة بمعان كثيرة فجاءت بمعنى تحديق البصر نحو الشئ التماسا لرؤيته ، وجاءت بمعنى الفكر فى الشئ والتأمل فيه ، وجاءت بمعنى الانتظار والتأخير ، وجاءت بمعنى المقابلة والمجاورة .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٠ . (٢) سورة الغاشية آية ١٧ .

(٣) ابن منظور : لسان العرب ج ٦ ص ٤٤٦٥ وما بعدها ، دار المعارف . وانظر المعجم الوسيط ج ٢ ص ٩٣١ - ٩٣٢ ، والمفردات للراغب الاصفهانى : ص ٤٩٧ - ٤٩٨ . تحقيق : محمد سيد كيلانى - دار المعرفة ، بيروت . وانظر تفسير الوسيط للواحدى : ج ١ ص ٣٩٧ .

وهذه المعانى التى اشتملت عليها مادة النظر انما تتميز بعضها من بعض بما يقترن بها من القرائن ، وينضاف اليها من الشواهد ، فان النظر اذا قيد بالعين لا يحتمل غيره ، واذا قيد بالقلب لا يحتمل الا التفكير ..

ثانيا : مفهوم النظر عند المفسرين :-

والنظر عند المفسرين يأتى بمعنى الاعتبار ، قال الرازى عند تفسير قوله تعالى " أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم .." (١) " ان العاقل من اعتبر بغيره ، فان الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء الحاضرين من الكفار ، وأقوى آثارا فى الارض منهم .. ، فلما كذبوا الرسل أهلكهم الله بضروب الهلاك معجلا ، حتى أن هؤلاء الحاضرين من الكفار يشاهدون تلك الاثار ، فحذرهم الله من مثل ذلك بهذا القول .. " (٢)

وقال القرطبى عند تفسير قوله تعالى " أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم .. " (٣) " أى ألم يسر هؤلاء فى أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا بهم فينظروا " بقلوبهم " كيف كان " ، آخر أمر الكافرين قبلهم .. " (٤)

(١) سورة غافر آية ٢١ (٢) تفسير الرازى جـ ٢٧ صـ ٥٤ .
(٣) سورة محمد آية ١٠ (٤) تفسير القرطبى جـ ٩ صـ ٦٣٨٥ .

وقال عند تفسير قوله تعالى "قل انظروا ماذا في السماوات والارض وما تغني الايات والنذر عن قوم لا يؤمنون".(١)

"أمر للكفار بالاعتبار والنظر في المصنوعات الدالة على الصانع والقادر على الكمال..".(٢)

ويأتي النظر بمعنى التأمل ، والتفكر ، قال القرطبي : عند تفسير قوله تعالى : "أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج..".(٣) ، "نظر اعتبار وتفكر".(٤)

وقال البيضاوي عند تفسير قوله تعالى : "أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت".(٥) : " نظر اعتبار الى الابل كيف خلقت خلقا دالا على كمال قدرته ، وحسن تدبيره ، حيث خلقها لجر الاثقال الى البلاد النائية فجعلها عظيمة باركة للحمل ناهضة بالحمل منقادة لمن قادها..".(٦)

---

(١) سورة يونس آية ١٠١ .
(٢) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٣٣١٤ .
(٣) سورة ق آية ٦ .
(٤) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٦٤٠٤ .
(٥) سورة الغاشية آية ١٧ .
(٦) تفسير البيضاوي ج ٢ ص ٥٥٥ .

ويأتى النظر عند المفسرين بمعنى الفكر عجائب الصنع، ليعلم أنه لابد له من فاعل لا يشبهه شىء.(١)

وبهذا نرى أن مفهوم النظر عند المفسرين قد اشتمل على التفكر والاعتبار بأحوال الامم الماضية الذين كذبوا رسلهم، فأهلكهم الله بعذاب الاستئصال، وأيضا اشتمل على التدبير فى دلائل الافاق والانفس (*) للوصول الى معرفة الله تعالى.

ثالثا : النظر فى اصطلاح المتكلمين :-

وأما المتكلمون فقد انقسموا ازاء النظر الى فريقين :-

الفريق الأول :-

يجعل النظر عاما وشاملا لكل تأمل عقلى يؤدى الى علم محقق أو مظنون..

فيقول الباقلانى : " انه الفكر الذى يطلب به علم أو غلبة ظن.. "(٢)

ويرى الجوينى كذلك : " أن الفكر قد يكون لطلب علم أو ظن، فيسمى نظرا وقد لا يكون فلا يسمى به كأكثر حديث النفس.(٣)

---

(١) تفسير القرطبى ج ١ ص ٦٧٩ (٢) شرح المواقف ج ١ ص ١٨٩.

(*) قال تعالى " سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق " (سورة فصلت : آية رقم ٥٣).

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ١٩٦.

وهذا الفريق يجعل النظر والفكر واحدا ، وليس هـــذا بدقيق ، فان النظر والتفكر ربما يختريان لكن الفكر الذى هو ثمرة النظر والتفكر بنتاج لهما يختلف بالطبع عنهما .

أما الفريق الثانى :ـ

فهو أدق بالقطع عن الاول لأنه راعى أن النظر أداة ، منهجية لتحصيل علم يقينى ، حيث يقوم الناظر أو المتأمل بترتيب أمور معلومة ليتوصل بها الى أخرى .

يقول صاحب المواقف " النظر هو ترتيب أمور معلومة أو مظنونة للتأدى الى آخـر .."(١)

وهو نفس ما يتجه اليه الرازى اذ يقول : " النظر ترتيب تصديقات ليتوصل بها الى تصديقات آخـــر .."(٢)

وكان دور السيد الجرجانى بين هذا الفريق هو الشرح لحركة العقل فى صعوده نحو المطلوب على سلم الأداة المنهجيــة المعنيــة بالنظر فيرى أن الحركة التى يسلكها الفكر للوصول الـــى المطلوب ، حركتان : الاولى : ينتقل فيها الفكر من المطلوب ، والشعور به على وجه ناقص الى مبادئه ، ثم تأتى الحركة الثانيـــة من المبادىء الى المطلوب المشعور به على الوجه الاكمل .."(٣)

(١) المصدر السابق ج١ ص١٩٦ .
(٢) الرازى : محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ص٤٠ الناشر مكتبة الكليات الازهريـة .
(٣) شرح المواقف ج١ ص٢٠٢ .

مادة النظر فى القرآن الكريم وصيغها :-

لقد وردت مادة النظر فى القرآن الكريم مائة وتسعة وعشرين مرة ، وقد جاءت بصيغ مختلفة ، فجاءت بصيغة الماضى فى ثلاث مرات وذلك قوله تعالى "نظر"(١)

وجاءت بصيغة المضارع سبعة وخمسون مرة ، مثل قوله: "أنظر" ، "ولتنظر" ، و" تنظرون" ، و" ننظر" ، و" فينظر.."(٢)

كما جاءت بصيغة الامر ثمان وأربعون مرة ، وهذا مثل قوله : "انظروا"(٣)

وكذلك وردت مادة النظر فى القرآن الكريم مشتقة من اسم الفاعل ، واسم المفعول ، والمصدر احدى وعشرين مرة ، مثال ذلك "ناظرة"(٤) ومثل قوله " منظرون"(٥) ومثل :

---

(١) فى سورة التوبة آية ١٢٧ ، وسورة الصافات آية ٨٨ وسورة المدثر آية ٢١ .

(٢) سورة الاعراف آية ١٤٣ ، وسورة الحشر آية ١٨ ، وسورة الواقعة آية ٨٤ ، وسورة البقرة اية ٥٠ ، وآية ٥٥ وسورة آل عمران آية ١٤٣ ، وسورة النمل آية ٢٧ ... الخ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٣٧ ، وسورة الانعام آية ١١ ، وسورة الاعراف آية ٨٦ ، ١٨٥ ، وسورة يونس آية ١٠١ ، وسورة النمل آية ٦٩ الخ .

(٤) سورة النمل آية ٣٥ ، وسورة القيامة آية ٢٣ .

(٥) سورة الانعام آية ١٥٨ .

" نظـــرة " (١) ، ومثـل قوله " المنظرين " (٢)

هل الامر بالنظر عند المفسرين للوجوب أم لا ؟ :ـ

ذهب المفسرون الى أن الامر بالنظر واجب فى قولـه تعالى : " سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين " (٢) وقوله " قل سيروا فى الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين " (٣) وقد فرقوا بين قوله " فانظروا " وبين قوله " ثم انظروا " ، فقوله : " فانظروا " يدل على أنه جعل النظر سببا عن السير فكأنــــه قيل سيروا لأجل النظــر ، ولا تسيروا سير الغافلين ، وأمـــا قوله " سيروا فى الارض ثم أنظروا " ، فمعناه اباحة السير فى الارض للتجارة وغيرها من المنافع ، وايجاب النظر فى آثار الهالكيـــن ، وعطـف الامر بالنظر على الامر بالسير " بثـم " لتباعـد مابيـــن الواجـب والمباح . (٥)

---

(١) سورة الصافات ٨٨ ، والبقرة آية ٢٨٠ .
(٢) سورة الاعراف آية ١٥ .
(٣) سورة النحـل آيـة ٦٩
(٤) سورة الانعـام آية ١١ .
(٥) تفسير الرازى جـ ١٢ ص ١٧٣ ، وتفسير البيضاوى جـ ١ ص ٣٠٤ وتفسير أبى السعود جـ ٣ ص ١١٤ ، وتفسير النسفى جـ ٢ ـ بهامش الخازن جـ ٦ ص ، وتفسيـر الألوســى جـ ٧ ص ١٠٣ .

وبهذا نرى هؤلاء المفسرين قد بينوا أن الامر بالسير في سورة " الانعام " للندب ، والاباحة ، ولذلك عطف بثم التي تدل على التراخي ، ما بين الواجب والمندوب ، أما في سورة " النمل " فالامر للوجوب ، ولذلك عطف بالفاء التي تفيد التعقيب .

أما ابن المنير (١) فقد انفرد من بين مفسري الاشاعرة برأي : بين فيه أن الامر بالسير في الاتين واحدا ، فقال معقبا على ما سبق : " وأظهر من هذا التأويل أن يجعل الامر بالسير في الآيتين واحدا ليكون ذلك سببا في النظر ، فحيث دخلت الفاء فلاظهار السببية ، وحيث دخلت ثم فللتنبيه على أن النظر هو المقصود من السير ، وأن السير وسيلة اليه لا غير .. " (٢)

---

(١) ابن المنير : هو الامام ناصر الدين أحمد بن محمد المنير الاسكندراني المالكي ، المولود سنة ٦٢٠ هـ ، والمتوفى سنة ٦٨٣ هـ ، طبقات المفسرين : للداودي ص ٨٩ جـ ١ .

(٢) الانتصاف لابن المنير بهامش الكشاف جـ ٢ ص ٧ – ٨ .

هل جاء فى القرآن ما يلزم التفكر؟ :ـ

عندما نمعن النظر فى القرآن الكريم نجد أن الحق سبحانه وتعالى ، يلزمنا بالتفكر والتدبر فى آياته ، قال تعالى: " أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السماوات والارض وما بينهما الا بالحق "(١)

قال القرطبى " انما أمروا أن يستعملوا التفكر فى خلق السماوات والأرض ، وأنفسهم حتى يعلموا أن الله لم يخلق السماوات وغيرهما الا بالحق ".(٢)

وقال تعالى : " وفى أنفسكم أفلا تبصرون "(٣) أى وفى أنفسكم آيات اذ ما فى العالم شئ الا وفى الانسان ، نظير يدل دلالته ، مع ما انفرد به من الهيئات النافعة ، والمناظر البهية ، والتركيبات العجيبة وانتمكن من الافعال الغريبة واستنباط الصنائع المختلفة ، واستجماع الكمالات المتنوعة " أفلا تبصرون " ، تنظرون نظر معتبر.(٤)

---

(١) سورة الروم آية ٨ .

(٢) تفسير القرطبى ج ٧ ص ٥٢٦٤ .

(٣) سورة الذاريات آية ٢١ .

(٤) تفسير البيضاوى ج ٢ ص ٤٢٠ ، وتفسير القرطبى ج ٩ ص ٦٠٤١ .

ومما يلزم التفكر ويدعوا الى التأمل أيضا قوله تعالى "وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون"(١)

قال القرطبي : "قوله "ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون" أي يعتبرون . ومن العبرة في النحل بانصاف النظر والطاف الفكر عجيب أمرها ، فيشهد اليقين بأن ملهمها الصنعة اللطيفة مع البنية الضعيفة ، وحذقها باحتيالها في تفاوت أحوالها هو الله سبحانه وتعالى ."(٢)

وقال البيضاوى : "فان من تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والافعال العجيبة حق التدبر علم قطعا أنه لا بد لها من خالق قادر حكيم .."(٣)

وقوله تعالى : "ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها

---

(١) سورة النحل آية ٦٨ ، ٦٩ .
(٢) تفسير القرطبي جـ ٥ ص ٣٨٦٦ .
(٣) تفسير البيضاوى جـ ٢ ص ٥٦٢ .

وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون ".(١)

وقوله تعالى : " أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والارض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ".(٢)

فهذه الصور التى رسمتها هذه الايات من وجود السماوات وطبقات بعضها فوق بعض، وما يتراءى فيها من شموس وكواكب ، وما هى عليه من نظام دقيق لم يصبه أى خلل أو اضطراب ، ووجود الأرض بما عليها من جبال ، وبحار ، وصلاحيتها تماما لمقام الانسان والحيوان عليها ، واختلاف الرياح من آن لآن ، ونزول المطر الذى به حياة الارض وما عليها من حيوان وانسان حسب نظام خاص ، توقظ الفكر وتدعو الى النظر والتأمل ، وتكون النتيجة أن يصل الانسان بهذا التفكير الى أن لهذا العالم خالقا يستحق وحده أن يكون المعبود .(٣)

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٤ .

(٢) سورة ق الايات ٦ ، ٧ ، ٨ .

(٣) القرآن والفلسفة ص٥٦ د/ محمد يوسف موسى .

وبهذا نرى القرآن الكريم قد دعا الى وجوب الملاحظة والتفكير فيما يحدث المرء ويشاهده ليصل من ذلك الى ما لم يكن يعرفه .

حكم النظر :ـ

ذهب مفسروا الأشاعرة الى أن النظر واجب ، فذكر الرازى والقرطبى والبيضاوى ، انه " لما نزل قوله تعالى :ـ " ان فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب .." (١) قال النبى صلى الله عليه وسلم : " ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها " (٢)

فالامر هنا للوجوب لانه عليه السلام أوعد بترك الفكر فى دلائل معرفة الله تعالى .ولا وعيد على ترك غير الواجب .." (٣)

ثم ان الله تعالى قد حض على وجوب النظر فقال : " أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات وما خلق الله من شئ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون " (٤)

(١) سورة آل عمران آية ١٩٠ (٢) تفسير الرازى جـ ٩ ص ١٣٨ وتفسير القرطبى جـ ٢ ص ١٦٥١ وتفسير البيضاوى جـ ١ ص ١٩٨ .
(٣) العقائد العضدية ص ٦٧ لجلال الدوانى طبعة أولى سنة ١٣٢٢هـ المطبعة الخيرية . (٤) سورة الاعراف آية ١٨٥ .

وقال : " أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت "(١) وقوله : " أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها .. "(٢)

نقد بين القرطبي في تفسيره لهذه الايات أن النظر واجب بقوله " وقد استدل بهذه الايات من قال بوجوب النظر في آياته والاعتبار بمخلوقاته ، قالوا : وقد ذم الله تعالى من لم ينظر ، وسلبهم الانتفاع بحواسهم ، وقال : " لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون .. "(٣)(٤)

فالفكر في هذه الامور هو النظر المأمور به وعلى ذلك درج السلف من غير ترتيب المقدمات على قانون أهل المنطق .

وقد وافق المفسرون في هذا رجال الفرقة في كتبهم نقد صور الباقلاني مذهب الأشاعرة في ايجاب النظر بقوله : " أول ما فرض الله عز وجل على جميع العباد النظر في آياته ، والاستدلال عليه بآثار قدرته ، لأنه سبحانه غير معلوم باضطرار ، ولا شاهد بالحواس ، وانما يعلم وجوده

---

(١) سورة الغاشية آية ١٧ .
(٢) سورة ق آية ٦ (٣) سورة الاعراف آية ١٧٩ .
(٤) تفسير القرطبي جـ ٤ ص ٢٨٥٨ .

وكونه على ما تقتضيه أفعاله بالادلة القاهرة والبراهين الباهرة. (١)

وقد استدل شارح المواقف على وجوب النظر بقوله تعالى " فانظروا الى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها.. "(٢) قائلا : فقد أمر بالنظر في دليل الصانع وصفاته ، والامر للوجوب كما هو الظاهر المتبادر منه.. "(٣)

ويرى الأشاعرة أيضا أن معرفة الله واجبة اجماعا وهى لا تتم الا بالنظر وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب..."(٤)

---

(١) الباقلانى : الانصاف ص٢٢ .
(٢) سورة الروم آية ٥٠ .
(٣) شرح المواقف ج ١ ص ٢٥١ .
(٤) الشامل للجوينى ص ١٢٠ ، وشرح المواقف ج ١ ص ٢٥٢ .

بم يجب النظر :ـ

وإذا تقرر أن النظر واجب فهل وجوبه بالشرع أم بالعقل؟

يرى مفسرو الاشاعرة أن النظر واجب بالشرع ، يقول ابن عطية عند تفسير قوله تعالى : "أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده..."(١) ، وقاعدة المتكلمين أن العقل لايوجب ولا يكلف ، وانما يوجب الشرع ، فالوجه أن يقال أن آدم عليه السلام ، فمن بعده دعا الى توحيد الله تعالى دعاء عاما ، واستمر ذلك على العالم ، فواجب على الآدمى البالغ العاقل أن يبحث عن الشرع الامر بتوحيد الله عز وجل ، وأن ينظر فى الادلة المنصوبة على ذلك بحسب ايجاب الشرع النظر فيها.."(٢)

ويبين القرطبى أيضا أن النظر واجب بالشرع وذلك عند تفسير قوله تعالى : "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا .."(٣) فيقول : "وفى هذا دليل على أن الاحكام لا تثبت الا بالشرع خلافا للمعتزلة القائلين بأن العقل يقبح ويحسن ويبيح ويحظر.."(٤) وقد أكدوا هذه الاية بقوله تعالى "رسلا مبشرين ومنذرين

(١) سورة الانعام آية ٩٠ .

(٢) ابن عطيه : المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ج٦ ص١٠١

(٣) سورة الاسراء آية ١٥ .

(٤) تفسير القرطبى ج٥ ص ٣٩٦٠ .

لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل "(١) وقوله تعالى " ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا ...."(٢) واحتجوا على أن وجوب معرفة الله تعالى لا تثبت الا بالسمع ، وقالوا لان قوله : " لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل " - يدل على أن قبل البعثة يكون للناس حجة فى ترك الطاعات والعبادات ونظيره ما جاء فى الآيتين السابقتين .."(٣)

وهؤلاء المفسرون قد وافقوا رجال المذهب الاشعرى فيما ذهبوا اليه من وجوب النظر بالشرع ..

يقول امام الحرمين الجوينى : " النظر والاستدلال المؤديان الى معرفة الله تعالى واجبان ، ثم الذى اتفق عليه أهل الحق ، أنه لا يدرك وجوب واجب فى حكم التكليف عقلا ، ومدارك - موجبات التكليف الشرائع ، ولا نتوصل بقضية العقل قبل استقرار الشريعة الى درك واجب ولا حظر ولا مباح ولا ندب .."(٤)

---

(١) سورة النساء آية ١٦٥ .
(٢) سورة طه آية ١٣٤ .
(٣) تفسير الرازى ج ١١ ص ١١٢ .
(٤) الشامل فى أصول الدين للجوينى ص ١١٥ .

فقد صرح الجوينى بأن التكاليف الشرعية تجب بالشرع وليس بالعقل حيث لا تتوصل بقضية العقل قبل استقرار الشريعة الى درك واجب ولا حظر ولا مباح ولا ندب ، ثم يقول مؤكدا على وجوب النظر وأن طريقة اتيانه هو الشرع: " النظر الموصل الى المعارف واجب ومدرك وجوبه الشرع ، وجملة أحكام التكليف متلقاة من الادلة السمعية والقضايا الشرعية. (١)

ثم يقول : " وشرط الوجوب عندنا ثبوت السمع الدال عليه ، مع تمكن المكلف من الوصول اليه ، فاذا ظهرت المعجزات ودلت على الرسل الدلالات ، فقد تقرر الشرع واستمر السمع الشئ عن وجوب الواجبات ، وحظر المحظورات ، ولا يتوقف وجوب الشئ على علم المكلف به ، ولكن الشرط تمكن المخاطب من تحصيل العلم به ، فان قيل مالدال على وجوب النظر ، والاستدلال من جهة الشرع؟ قلنا أجمعت الامة على وجوب معرفة البارى تعالى ، واستبان بالعقل أنه لا يتأتى الوصول الى اكتساب المعارف الا بالنظر ، وما لا يتوصل الى الواجب الا به فهو واجب .." (٢)

---

(١) الارشاد للجوينى ص ٨ .
(٢) المصدر السابق ص ١٠ .

وقد أشار الغزالى أيضا الى أن معرفة الله تعالى وطاعته واجبة بايجاب الله تعالى وشرعه خلافا للمعتزلة.(١)

وهكذا فقد قرر الاشاعرة أن النظر واجب بالشرع لابالعقل كما تقول المعتزلة ، وذلك لان العقل لا يستطيع الكشف عن جهة وجوب الصيام والصلاة ، والحج ، ولا يعرف الغرض من ذلك الا بالشرع ، اذن من أين له أن يعلم أن الله تعالى يثبت على المعصية والطاعة ، ولا يعاقب عليها ، مع أن الطاعة والمعصية فى حقه تعالى يتساويان ، اذ ليس له الى أحدهما ميل ولا به لأحدهما اختصاص وانما عرف تمييز ذلك بالشرع ..

أول واجب على المكلف :-

اختلف العلماء فى أول واجب على المكلف ، هل هو النظر والاستدلال ، أو الايمان الذى هو التصديق الحاصل فى القلب الذى ليس من شرط صحته المعرفة ؟ ...

وقد انقسم مفسرو الاشاعرة ازاء هذه المسألة الى فريقين :-

(١) احياء علوم الدين للغزالى ص ١٩٠٢ طبعة الشعب .

الفريق الأول :ـ

يرى أن النظر والاستدلال هو أول واجب على المكلف ، فيقول الرازى ، والبيضاوى عند تفسير قوله تعالى : " يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون.. " (١) : (وتدل الاية على أن الطريق الى معرفة الله تعالى والعلم بوحدانيته ، واستحقاقه للعبادة هو النظر والاستدلال..) (٢)

وأما الفريق الثانى :ـ

فيرى أن الايمان هو أول واجب على المكلف ، يقول القرطبى مدللا على ذلك : (...ان الايمان يصح باليقين الذى قد يحصل لمن هداه الله بالتقليد ، وبأول وهلة من الاعتبار بما أرشده الله الى الاعتبار به فى غير آية. (٣)

ثم استدل على من قال : " ان النظر والاستدلال أول الواجبات باجماع المسلمين فى جميع الاعصار على تسمية العامة ، والمقلد مؤمنين قائلا " فلو كان ماذهبوا اليه صحيحا لما صح أن يسمى مؤمنا الا من عنده علم بالنظر

(١) سورة البقرة آية ٢١ (٢) تفسير الرازى جـ ٢ صـ ٩٥ ، وتفسير البيضاوى جـ ١ صـ ٣٢ .

(٣) تفسير القرطبى جـ ١ صـ ٢٨٥٨ .

والاستدلال ، وأيضا فلو كان الايمان لا يصح الا بعد النظر والاستدلال لجاز للكفار اذا غلب عليهم المسلمون أن يقولوا لهم لا يحل لكم قتلنا لان من دينكم أن الايمان لا يصح الا بعد النظر والاستدلال فأخرونا حتى ننظر ونستدل ،وهذا يؤدى الى تركهم على كفرهم وألا يقتلوا حتى ينظروا ويستدلوا." (١)

ثم استدل القرطبى أيضا : بأن الايمان أول واجب على المكلف بقوله عليه السلام أمرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فاذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحق الاسلام وحسابهم على الله .." (٢)

ثم قال : (وكان شيخنا القاضى) أبو جعفر أحمد ابن محمد السمنانى يقول : " أول الواجبات : الايمان بالله ورسوله وبجميع ما جاء به ، ثم النظر والاستدلال المؤديان الى معرفة الله تعالى ، فيتقدم وجوب الايمان بالله تعالى عنده على المعرفة بالله ، وهذا أقرب الى الصواب وأوفق بالخلق ، لان أكثرهم لا يعرفون حقيقة المعرفة والنظر والاستدلال .." (٣)

---

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٨٥٨ .
(٢) صحيح البخارى بحاشية السندى ج ١ ص ١٣ ، كتاب الايمان باب " فان تابوا وأقاموا الصلاة .."
(٣) تفسير القرطبى ج ٤ ص ٢٨٥٨ .

كما اختلفت آراء رجال المذهب أيضا فى أول واجب على المكلف ، فذهب الاشعرى الى أن أول واجب على المكلف هو معرفة الله تعالى ، اذ هو أصل المعارف الدينية ، وعليه يتفرع كل واجب من الواجبات الشرعية .

ويرى الاستاذ ابو اسحاق الاسفرايينى أن أول الواجبات هو النظر الموصل للمعرفة .(١)

ويرى الباقلانى أن أول الواجبات هو النظر والاستدلال.(٢)

وقال امام الحرمين الجوينى : " أول مايجب على العاقل البالغ باستكمال سن البلوغ أو الحلم شرعا هو القصد الى النظر ، وذلك لان النظر لا يأتى الا بعد القصد اليه ، ومعنى القصد الى النظر تفريغ القلب عن الشواغل التى تعوق النظر .(٣)

وفيما ذكره الجوينى يدل على أن القصد الى النظر أسبق من النظر .

---

(١) شرح المواقف ج ١ ص ٢٧٦ ، وشرح العقائد العضدية ص ٦٩ . (٢) الانصاف للباقلانى ص ٢٢ .

(٣) الارشاد للجوينى ص ٣ ، والعقائد العضدية ص ٦٩ .

رأى السلف فى المسألة :ـ

أما السلف فقد ذهبوا الى أن الايمان هو أول واجب على المكلف ، وقد عبر عن ذلك شارح الطحاوية قائلا :ـ " ان أول واجب على المكلف شهادة أن لا اله الا الله لا النظر ولا القصد الى النظر ، كما هى أقوال أرباب الكلام المذموم ، بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان .. "(١)

وقال ابن تيمية : " أن الايمان أول واجب على المكلف لا النظر ولا مطلق العلم به ، وكذلك بنيت عقيدة أهل السنة على ذلك .. "(٢)

هـذا : وقد اتفق الفريق الثانى من المفسرين مع ما ذهب اليه السلف من أن الايمان هو أول واجب على المكلف وذلك على نحو ما ذكرت سابقا .

وهذا الرأى هو الاقرب للصواب ، والأولى بالقبول ، وهو أول ما دعت اليه الرسل عليهم السلام ، قال الله تعالى :

(١) شرح الطحاوية فى العقيدة السلفية ص ٢٠ ـ تحقيق أحمد محمد شاكر دار التراث .

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ ٢ صـ ١ ـ ٢ بالهامش .

" لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره .. "(١) وقال هود عليه السلام لقومه : " اعبدوا الله ما لكم من اله غيره .. "(٢) وقال صالح عليه السلام لقومه " اعبدوا الله ما لكم من اله غيره "(٣)، وقال شعيب عليه السلام لقومه : " اعبدوا الله مالكم من اله غيره "(٤) ..

وقال تعالى : " ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت.. "(٥)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ عندما بعثه الى اليمن : " انك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فلكن أول ما تدعوهم الى أن يوحدوا الله، فاذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات : فى يومهم وليلتهم.. "(٦)

وهذا أقوى دليل على أن التوحيد الذى هو اخلاص العبادة لله وحده لا شريك له هو أول واجب على المكلف ..

---

(١) سورة الاعراف آية ٥٩ (٢) سورة الاعراف آية ٦٥
(٣) سورة الاعراف آية ٧٣ (٤) سورة الاعراف آية ٨٥ .
(٥) سورة النحل آية ٣٦ .
(٦) صحيح البخارى بحاشية السندى ج ٤ ص ٢٧٣ - كتاب التوحيد - باب دعاء النبى صلى الله عليه وسلم - أمته الى توحيد الله عز وجل .

التقليد عند مفسرى الأشاعرة :-

عندما نمعن النظر في آراء المفسرين الأشاعرة حول التقليد نجد أنهم فريقان :-

الاول :-

يرفض التقليد مطلقاً ، يقول الرازى عند تفسير قوله تعالى " واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ... "(١) (ان الله تعالى أمرهم بأن يتبعوا ما أنزل الله من الدلائل الباهرة فقالوا لا نتبع ذلك وانما نتبع آباءنا وأسلافنا : فكأنهم عارضوا الدلالة بالتقليد ، وأجاب الله عنهم بقوله : " أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ")(٢)

ثم قال الرازى : (وتقرير هذا الجواب من وجوه :-

أحدهما :-

أن يقال للمقلد هل تعترف بأن شرط جواز تقليد الانسان أن يعلم كونه محقا أم لا ؟ ، فان اعترف بذلك لم تعلم جواز

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٠ .
(٢) تفسير الرازى جـ ٥ ص ٧ .

تقليده الا بعد أن تعرف كونه محقا ، فكيف عرفت أنه محق بتقليد آخر لزم التسلسل ، وان عرفته بالعقل فذلك كافه فلا حاجة الى التقليد .

وثانيها :-

هب أن ذلك المتقدم كان عالما بهذا الشيء ، الا أنا لو قدرنا أن ذلك المتقدم ما كان عالما بذلك الشيء قط وما اختار فيه البتة مذهبا ، فأنت ماذا كنت تعمل ؟ فعلى تقدير أن لا يوجد ذلك المتقدم ولا مذهبه كان لا بد من العدول الى النظر .

وثالثها :-

أنك اذا قلدت من قبلك ، فذلك المتقدم كيف عرفته ؟ أعرفته بتقليد أم لا بتقليد ؟ فان عرفته بتقليد لزم اما الدور ، واما التسلسل ، وان عرفته لا بالتقليد كنت مخالفا له فثبت أن القول بالتقليد يفضى الى نفيه ، فيكون باطلا .(١)

ثم قال : (انما ذكر الله تعالى هذه الاية عقب الزجر عن اتباع خطوات الشيطان تنبيها على أنه لا فرق بين متابعة وساوس الشيطان ، وبين متابعة التقليد ، وفيه

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ٧ .

أقوى دليل على وجوب النظر والاستدلال وترك التعويل ، على ما يقع فى الخاطر من غير دليل أو على ما يقوله الغير من غير دليل ..."(١)

ثم نجد الرازى أيضا يصرح ببطلان التقليد فيقول عند تفسير قوله تعالى : " انا وجدنا آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مهتدون ..."(٢) (لو لم يكن فى كتاب الله تعالى الا هذه الاية لكفت فى ابطال القول بالتقليد ، وذلك لأنه تعالى بين أن هؤلاء الكفار لم يتمسكوا فى اثبات ما ذهبوا اليه لا بطريق عقلى ، ولا بدليل نقلى ، ثم بين أنهم انما ذهبوا اليه بمجرد تقليد الاباء والاسلاف .."(٣)

والذى دعا هؤلاء الى القول بالتقليد وحملهم عليه انما هو التنعم فى الطيبات ، وحب البطالة ، وبغض تحمل مشاق النظر والاستدلال هو الذى صرفهم الى التقليد ، لقوله تعالى " وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مقتدون .."(٤)

---

(١) المصدر السابق جـ ٥ ص ٧
(٢) سورة الزخرف آية ٢٢
(٣) تفسير الرازى جـ ٢٧ ص ٢٠٧ .
(٤) سورة الزخرف آية ٢٣ .

فالرجوع الى النظر والاستدلال أولى من الاعتماد
على التقليد . يقول الرازي : (وتقرير ذلك من وجهين :

الأول :-

أنه تعالى حكى عن ابراهيم -عليه السلام- أنه تبرأ
عن دين آبائه بناء على الدليل ، فنقول : اما أن يكون تقليد
الاباء في الاديان محرما أوجائزا فان كان محرما فقد بطل
القول بالتقليد ، وان كان جائزا فمعلوم أن أشرف آباء
العرب هو ابراهيم عليه السلام ، وذلك لانهم ليس لهم فخر
ولا شرف الا بأنهم من أولاده ، واذا كان كذلك فتقليد هذا
الأب الذى هو أشرف الاباء أولى من تقليد سائر الاباء ،
واذا ثبت أن تقليده أولى من تقليد غيره فنقول أنه ترك دين
الاباء ، وحكم بأن اتباع الدليل أولى من متابعة الاباء ، واذا
كان كذلك وجب تقليده في ترك تقليد الاباء ووجب تقليده في
ترجيح الدليل على التقليد ، واذا ثبت هذا فنقول فقد ظهر
أن القول بوجوب التقليد يوجب المنع من التقليد وما أفضى ثبوته
الى نفيه ، كان باطلا ، فوجب أن يكون القول بالتقليد
باطلا .

الوجه الثاني :-

في بيان ترك التقليد والرجوع الى متابعة الدليل

أولى فى الدنيا والدين ، أنه تعالى بين أن ابراهيم عليه السلام لما عدل عن طريق أبيه الى متابعة الدليل لا جرم جعل الله دينه ومذهبه باقيا فى عقبه الى يوم القيامة وأما أديان آبائه فقد اندرست وبطلت ، فثبت أن الرجوع الى الدليل يبقى محمود الأثر الى قيام الساعة ، وأن التقليد والاصرار ينقطع أثره ولا يبقى منه فى الدنيا خير ولا أثر ، فثبت من هذين الوجهين أن متابعة الدليل وترك التقليد أولى.(١)

الفريق الثانى :-

وهذا الفريق يتفق مع سابقه فى رفضه التقليد للقادر، ولكنه يجوزه فى الدين وللعامى ، فيقول القرطبى عند تفسير قوله تعالى : " وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون .."(٢) (تعلق قوم بهذه الآية فى ذم التقليد لذم الله تعالى الكفار باتباعهم لآبائهم فى الباطل ، واقتدائهم بهم فى الكفر ، والمعصية ، وهذا فى الباطل صحيح ، أما التقليد فى الحق فأصل من أصول الدين ، وعصمة من عصم المسلمين يلجأ اليها الجاهل المقصر عن درك النظر .. ")(٣)

(١) تفسير الرازى جـ ٢٧ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .
(٢) سورة البقرة آية ١٧٠ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٦٩٨ .

وقال البيضاوى والألوسى : " وفى قوله تعالى : " واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله .. " دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر والاجتهاد وأما اتباع الغير فى الدين بعد العلم بدليل ما أنه محق فاتباع فى الحقيقة لما أنزل الله ، وليس من التقليد المذموم فى شىء . "(١)

وهذا النص الذى ذكراه له جانبان : الجانب الاول منه : يمنع من التقليد للغير ، وذلك لمن قدر على النظر ، والاجتهاد فى الأدلة ، والجانب الاخر : أنه يجوز التقليد لمن لم تتوفر فيه الأهلية للنظر والاجتهاد ، وليس هذا من التقليد المذموم فى شىء .

ولذا نرى القرطبى يبين ذلك أفضل بيان ، فيقول (ان فرض العامى الذى لا يشتغل باستنباط الاحكام من أصولها لعدم أهليته فيما لا يعلمه من أمر دينه ويحتاج اليه ، أن يقصد أعلم من فى زمانه وبلده ، فيسأله عن نازلته فيمتثل فيها فتواه ، لقوله تعالى : " فسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون .. "(٢)

---

(١) تفسير البيضاوى جـ ١ ص ٩٥ وتفسير الألوسى ص ٤٠ ــ ٤١ جـ ٢ (٢) سورة الانبياء آية ٧ .

وعليه الاجتهاد فى أعلم أهل وقته بالبحث عنه حتى يقع عليه الاتفاق من الاكثر من الناس ، وعلى العالم أيضا أن يقلد عالما مثله فى مسألة خفى عليه فيها وجه الدليل والنظر وأراد أن يجدد الفكر فيها ، والنظر حتى يقف على المطلوب ، فضاق الوقت ، وخاف على العبادة أن تفوت أو على الحكم أن يذهب سواء أكان ذلك المجتهد الاخر صحابيا أو غيره ، واليه ذهب القاضى أبو بكر وجماعة من المحققين..(١)

ثم يحدد أوصاف المقلدين الذى قبلوا قول سادتهم وكبرائهم فيما خالفوا فيه الكتاب والسنة واجماع الصحابة ، فكانوا داخلين فيمن ذمهم الله تعالى بقوله : " ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا .." (٢)

وقوله : " انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون .." (٤) ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما أرسلتم به كافرون .." (٤)

---

(١) تفسير القرطبى ج ١ ص ٦٦٩ .

(٢) سورة الاحزاب آية ٦٧ .

(٣) سورة الزخرف آيـة ٢٣ .

(٤) سورة الزخرف آية ٢٤ .

فقد بين الحق سبحانه أن الهدى فيما جاءت به الرسل عليهم السلام وليس قول أهل الاثر فى عقائدهم انا وجدنا أئمتنا وآباءنا والناس على الأخذ بالكتاب والسنة واجماع السلف الصالح من الأمة ، من قول أهل الضلال : انا وجدنا آباءنا وأطعنا سادتنا وكبراءنا بسبيل؛ لأن هؤلاء نسبوا ذلك الى التنزيل ، والى متابعة الرسول ، وأولئك نسبوا فكهم الى أهل الأباطيل ، فازدادوا بذلك فى التضليل ، ألا ترى أن الله سبحانه أثنى على يوسف عليه السلام – فى القرآن حيث قال : " انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالاخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائى ابراهيم ، واسحاق ويعقوب ... "(١)

فلما كان آباؤه عليه وعليهم السلام – أنبياء متبعون للوحى وهو الدين الخالص الذى ارتضاه الله ، كان اتباعه آباءه من صفات المدح .(٢)

وبهذا ترى هؤلاء المفسرين قد وافقوا رجال المذاهب الأشعرى فى أن ايمان المقلد ليس صحيحا ، بل يرون أنه مكلف بالنظر والاستدلال ، الا أنهم يكتفون منه بالدليل

---

(١) سورة يوسف آية ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١ صـ ٧٠٠ .

الاجمالى بحيث اذا قيل ما الدليل على وجود الله سبحانه وتعالى؟ استطاع أن يجيب بأن الدليل على وجوده هذه المخلوقات ، وأما تفصيل الدلائل بحيث يتمكن معه من ازالة الشبهة والزام المعاندين وارشاد المسترشدين ، ففرض كفاية عندهم ، وقد ذكر الفقهاء أنه لا بد أن يكون فى كل حد من مسافة القصر شخص متمكن من معرفة الدلائل التفصيلية ينتسب للدفاع عن العقائد وازالة شبه المنكرين ، والزام المعاندين ، ويحرم على الامام اخلاء مسافة القصر عن مثل هذا الشخص .(١)

اعتراض ورده :-

لذلك لا أرى مبررا للحملة الظالمة التى شنها عليهم الحشوية(٢) ، زاعمين أنهم يرفضون ايمان العوام فى حين أننا لا نرى فى كتب الاشاعرة ما يدل على ذلك بل بعكس ذلك ، نراهم يصححون ايمان المقلد ، ولا يكلفونه الا بمعرفة الدليل الاجمالى ، حتى لا ينزل الى حضيض التقليد المحض ،

---

(١) العقائد العضدية ص ٦٨ .

(١) ظهر اصطلاح الحشوية كما يروى - فى مجلس الحسن البصرى ، اذا عرض عليه جماعة من الرواة بضاعتهم فى الحديث فصاح فى اتباعه ردوا هوءلاء الى حشا الحلقة أى جانبها فسموا حشوية (مقدمة تبيين كذب المفترى ص ١٠ - ١١ ، ونشأة الفكر الفلسفى للنشار جـ ١ ص ٢٨٦) .

ولا يمكن لنسف أن يقبل شخص لا يستطيع أن يستدل على وجود الله تعالى بوجود الكون .

وكذلك اعترضوا على الأشاعرة قائلين : "بأن النظر في معرفة الله وصفاته وأفعاله والعقائد الدينية بدعة في الدين ، اذ لم ينقل عن النبي عليه الصلاة والسلام والصحابة الاشتغال بالنظر فيما ذكر ولو كانوا قد اشتغلوا به لنقل الينا لتوفر دواعي النقل كما نقل اشتغالهم بالمسائل الفقهية .."(١)

وقد رد الأشاعرة على هذا الاعتراض بقولهم : "ماذكرتم من عدم النقل ممنوع بل تواتر أنهم كانوا يبحثون عن دلائل التوحيد والنبوة وما يتعلق بهما ، ويقررونهما مع المنكرين لهما ، فان أهل مكة كانوا يحاجون النبي صلى الله عليه وسلم ، ويوردون عليه الشبه والشكوك ويطالبونه بالحجة على التوحيد والنبوة حتى قال الله تعالى في حقهم" بل قوم خصمون.."(٢) وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يجيبهم بالايات الظاهرة والدلائل الباهرة ، والقرآن مملوء من البحث عن تلك الدلائل التي يتوصل بها الى العقائد الدينية واثباتها عند الخصم كقوله تعالى " لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا.."(٣)

---

(١) شرح المواقف جـ ١ ص "٦٣" .

(٢) سورة الزخرف آية ٥٨ (٣) سورة الانبياء آية ٢٢ .

وكان الصحابة ببركة صحبة النبى صلى الله عليه وسلم مستغنين عن ترتيب المقدمات ، وتهذيب الدلائل ، على الوجه الذى ينطق على القواعد المدونة ، ولكنهم كانوا عالمين بالدلائل الاجمالية بحيث لم تكن الشبه والشكوك متطرقة الى عقائدهم بوجه من الوجوه .."(١)

والواقع أن هذه الحملة على الأشاعرة حملة ظالمة لا أرى لها داعيا ، ولان تراوح الأشاعرة بين بعض التشدد فى ايمان المقلد ، كما نجده عند عبد القاهر البغدادى ، وفرط السماحة والتيسير على العوام ، كما نجده عند الغزالى ، الا أنهم لا يذهبون فى تشددهم الى المدى الذى قال به المعتزلة الذين هم أجدر بمثل هذه الحملة من الاشاعرة.

---

(١) شرح المواقف جـ ١ ص ٢٦٤ .

كيفية حصول العلم بعد النظر :ـ

لا شك أن النظر هو الذى يؤدى الى العلم الكسبى كما أن العلوم الضرورية تحدث فى النفس وتلزمها من غير أن تجد الى الانفكاك عنها سبيلا ، ولكن العلم الذى يحصل بعد النظر هل هو بطريق العادة أو بطريق الوجوب ؟

يرى الأشاعرة أن العلم الذى يحصل بعد النظر يحصل بطريق العادة بناء على أن جميع الممكنات مستندة الى الله ابتداء ، وأنه تعالى قادر مختار ، ولا علاقة بين الحوادث الا باجراء العادة بخلق بعضها عقيب بعض . (١)

ويقول شارح المواقف (ولا شك أن العلم بعد النظر ممكن حادث محتاج الى المؤثر ولا مؤثر الا الله تعالى ، فهو فعله الصادر عنه بلا وجوب منه ولا عليه وهو دائم أو كثيرى فيكون عاديا ..) (٢)

فالعلم عند الاشاعرة يأتى عقيب تمام النظر بطريق اجراء العادة أى تكرر ذلك دائما من غير وجوب ، بل مع جواز أن لا يخلقه عن طريق خرق العادة وذلك لما فيه

---

(١) شرح المواقف جـ ١ ص ٢٤٢ (٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٤٣ .

من استناد جميع الممكنات الى قدرة الله تعالى واختياره ابتداء وأثر المختار لا يكون واجبا."(١)

لكن الباقلانى له رأى آخر انفرد به عن شيخه الأشعرى يقول فيه : "ان النظر يستلزم العلم بطريق الوجوب من غير أن يكون النظر علة أو مولدا أى أنه لم يقل كما قال الاشعرى أن العلم يحصل بعد النظر بطريق العادة ، وأما دليله على أن العلم يحصل بعد النظر بطريق الوجوب ، فلأن نعلم ضرورة أن من علم أن العالم متغير وكل متغير حادث واجتمع فى ذهنه هاتان المقدمتان على هذه الهيئة ، امتنع أن لا يعلم أن العالم حادث ، والعلم بهذا الامتناع ضرورى ، وكذا فى جميع اللوازم مع الملزومات ، وأما دليله على أن العلم غير متولد من النظر فلاستناد جميع الممكنات والحوادث الى الله تعالى ابتداء فيكون العلم عقيب النظر واقعا بقدرته تعالى لا بقدرة العبد.(٢)

ويظهر أن فكرة الباقلانى هذه قد راقت للأشاعرة من بعده ، فأخذ بها امام الحرمين الجوينى ، ثم تابعها الامام الرازى فى ذلك ، وصرح الامام الغزالى بأن هذا هو

---

(١) شرح المقاصد للتفتازانى ج ١ ص ٢٦ .

(٢) المواقف ج ١ ص ٢٤٦ .

مذهب أكثر الأشاعرة ، وأما ما ذهب اليه الامام الأشعـــرى من أن حصول العلم بعد النظر عادى فلم يأخذ به الا بعض الاشاعرة .(١)

وذهب المعتزلة الى أن حصول العلم بعد النظر بطريق التوليـد ، وذلك أنهم لما أثبتوا لبعض الحوادث مؤثرا غيـــر الله تعالى قالوا الفعل الصادر عنه اما بالمباشرة ، واما بالتوليد . ومعنى التوليـد عندهم أن يوجب فعل لفاعله فعلا آخر كحركة اليـد والمفتاح ، فان حركة اليد أوجبت لفاعلهـا ، حركة المفتاح ، فكلتاهما صدرتا عنه ، الاولى بالمباشرة ، والثانية بالتوليد ، والنظر فعل للعبـد مباشرة يتولـد منه فعل آخر هو العلـــم بالمنظـور فيـه .(٢)

وقد ورد صاحب المواقف على المعتزلة فى قولهم بالتوليـد قائـلا : " واعلم أن تذكر النظر لا يولـد العلم عندهم فقـاس الأصحاب ابتـداء النظر بالتذكر الزاما لهم حيث قالوا النظـــر المعاد لا يولـد العلم اتفاقا ، فوجب أن يكون النظر المبتـدأ كذلك ، اذ لا فرق بينهما يعود الى استلزام العلم بالمنظـور فيه .(٣)

(١) الباقلانى وآراؤه الكلامية ص ٢٦٢ ـ د / محمد رمضان عبد الله بغداد ـ مطبعة الامة سنة ١٩٨٦م .

(٢) المواقف جـ ١ ص ٢٤٣ (٣) نفس المصدر جـ ١ ص ٢٤٣ـ٢٤٤

وذهب الفلاسفة الى أن حصول العلم بعد النظـــر بطريق الاعداد فان المبتدأ الذى تستند اليه الحوادث فـى عالمنا هذا موجب عندهم بطريق الفيض ، من العقل الفعـــال عند استعداد النفس لقبول الفيض ، فالنظر ، يعد الذهـــن اعدادا تاما ، والنتيجة تفيض من ذلك المبتدأ وجوبا عقليا .(١)

رأى السلف فى هذه المسألة :ـ

ويمثل ابن تيمية رأى السلف فى هذه المسألة فنـــراه يعلق على هذه المذاهب قائـلا : فأما قول القائلين بـــأن ذلك بفعل الله فهو صحيح بناء على الله هو معلم كل معلـم وخالق كل شئ لكن هذا الكلام مجمل ليس فيه بيـان ، وأمـا قول القائلين بالتولد : فبعضـــه حق وبعضــه باطل ، فان كـان دعواهم أن العلم المتولد هو حاصل بمجرد قدرة العبد فذلـك باطل قطعا ، ولكن هو حاصل بأمرين :قـدرة العبـد ، والسبب الاخـر كالقوة التى فى السهم والقبول الذى فى المحل ولا ريب أن النظر هو سبب ، ولكن الشأن فيما به يتم حصول العلـــم ، وأما زعم المتفلسفـة أنه بالعقل الفعال فمن الخرافات التـــى لا دليل عليهـا .»(٢)

---

(١) المواقف جـ ١ ص ٢٤٦ ، ونقض المنطق لابن تيمية ص ٣١ .
(٢) نقض المنطق لابن تيمية ص ٣١ ـ ٣٢ .

وبعد أن علق ابن تيمية على تلك الاراء بما يدل على الدقة والعمق فى البحث نراه يبين أن النظر المفيد للعلم هو ما كان فى دليل هاد والدليل الهادى هو كتاب الله وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فان الذى جاءت به الشريعة من نوعى النظر هو مايفيد وينفع ويحصل الهدى وهو بذكر الله تعالى وما نزل من الحق ، فاذا أراد النظر والاعتبار فى الادلة المطلقة من غير تعيين مطلوب ، فذلك النظر فى كتاب الله وتدبر آياته كما قال تعالى : " قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم .. "(١)

وقال : " وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم .. "(٢) وقال " هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين .. "(٣)

فالناظر فى الدليل الهادى بمنزلة المترائى للهلال قد يراه ، وقد لا يراه ، لعشى فى بصره ، وكذلك أعمى القلب ، وأما الناظر فى المسألة فهذا يحتاج الى شيئين : الى أن يظفر

(١) سورة المائدة آية ١٥ ، ١٦ (٢) سورة الشورى آية ٥٢ .
(٣) سورة آل عمران آية ١٣٨ .

بالدليل الهادى ، والى أن يهتدى به وينفع ، فأمره الشرع بما يوجب أن ينزل على قلبه الاسباب الهادية ، ويصرف عنه الاسباب المعوقة ، وهو ذكر الله تعالى والغفلة عنه.."(١)

ومما يوضح ذلك أن الطالب للعلم بالنظر والاستدلال ، والتفكر والتدبر ، لا يحصل له ذلك ان لم ينظر فى دليل يفيد " العلم بالمدلول عليه ، ومتى كان العلم مستفادا بالنظر ، فلابد أن يكون عند الناظر من العلم المذكور الثابت فى قلبه مالا يحتاج حصوله الى النظر ، فيكون ذلك المعلوم أصلا وسببا للفكر الذى يطلب به معلوم آخر ، ولهذا كان الذكر متعلقا بالله لأنه سبحانه هو الحق المعلوم وكان التفكر فى مخلوقاته ، كما قال الله تعالى " والذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والارض"(٢)

وهكذا نرى السلف قد التزموا منهج القرآن الكريم فى دعوته الى النظر فى آيات الله تعالى المتلوة وذلك لان القرآن قد حوى من تفاصيل معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته شيئا عظيما ، وهذا هو الطريق الموصل الى معرفة

---

(١) نقض المنطق ص ٣٢ - ٣٤ .
(٢) سورة آل عمران آية ١٩١

الله تعالى بوضوح ويسر ، بعيدا عن تعقيدات المتكلمين وأدلتهم الصماء التى لا تفيد العقيدة شيئا ، بل ولا تصلح الا للخاصة ، أما العامة فلا تفيدهم شيئا ، بل انها تعكس صفو فطرتهم ، النقية ، اذن علينا أن نتبع منهج السلف الصالح ، نهج الحق .



الأسماء

و

الصفات

الأسماء والصفات

أسماء الله عز وجل هي الحسنى أثبتها الله تعالى لنفسه وأثبتها له عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وآمن بها جميع المؤمنين .

قال تعالى : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون بما كانوا يعملون » .

وقال تعالى : « قل ادعوا الله أو ادعو الرحمن أيًا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى » وقال تعالى : « الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » .

وفى البخارى ومسلم والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان لله تسعا وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة . وهو وتر يحب الوتر .. » وزاد الترمذى الأسماء .

وأسماء الله الحسنى ليست بمنحصرة فى التسعة والتسعين المذكورة فى حديث أبى هريرة ولا فيها استخرجه العلماء من القرآن بل ولا فيما علمته الرسل والملائكة وجميع المخلوقين . ففى مسند الإمام أحمد وغيره الحديث بسنده إلى إبن مسعود رضى الله عنهُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ... أسألك بكلِ اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك ان تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ونور صدرى وُجلاء حزنى وذهاب همى ... » .

دلالة الأسماء

واعلم أن دلالة أسماء الله تعالى حق على حقيقتها بأنواع الدلالة فدلالة اسمه تعالى الرحمن على ذاته عز وجل دلالة مطابقة وعلى صفة الرحمة . دلالة تضمنية . وعلى الحياة وغيرها دلالة التزامية [١]

---

(١) بتصرف من معارج القبول حافظ حكمي جـ ١ صـ٦٦

كما يجب العلم بأن من أسماء الله عز وجل مالا يطلق عليه إلا مقترنا بمقابله فإذا أطلق وحده أوهم نقصا تعالى الله عن ذلك .

فمنها . المعطى المانع والضار النافع والقابض الباسط والمعز المذل والخافض الرافع .

فلا يطلق على الله عز وجل . المانع الضار القابض المذل الخافض كلا على انفراده .

بل لابد من إزواجها بمقابلاتها إذ لم تطلق فى الوحى إلا كذلك .

ومن ذلك المنتقم لم يأت فى القرآن إلا مضافا إلى ذو كقوله تعالى : « عزيز ذو انتقام) أو مقيدا بالمجرمين كقوله تعالى : « إنا من المجرمين منتقمون » كما أنه قد ورد فى القرآن أفعال أطلقها الله عز وجل على نفسه على سبيل الجزاء العدل والمقابلة .

وهى فيما سبقت فيه مدح وكمال . لكن لا يجوز أن يشتق له تعالى منها أسماء ولا تطلق عليه فى غير ما سبقت له الآيات .

كقوله تعالى : « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم »

وقوله تعالى : « ومكروا ومكر الله »

وقوله تعالى : « نسوا الله فنسيهم »

وقوله تعالى : « وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون الله يستهزىء بهم » .

قال ابن القيم: « إن الله تعالى لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع والإستهزاء مطلقا ولا ذلك داخل فى أسمائه الحسنى . ومن ظن من الجهال المصنفين فى شرح الأسماء أن من أسمائه تعالى الماكر المخادع المستهزىء الكائد فقد فاه بأمر عظيم ... وهذا جهل عظيم . فإن هذه الأفعال ليست ممدوحة مطلقاً بل تمدح فى موضع وتذم فى موضع فلا يجوز إطلاق أفعالها على الله تعالى مطلقا فلا يقال إنه تعالى يمكر ويخادع ويستهزىء ويكيد .

فكذلك بطريق الأولى لا يشتق له منها أسماء يسمى بها بل إذا كان لم يأت فى أسمائه الحسنى المريد والمتكلم ولا الفاعل ولا الصانع لأن مسمياتها تنقسم إلى ممدوح ومذموم وإنما يوصف بالأنواع المحمودة منها كالحليم والحكيم والعزيز والفعال لما يريد فكيف يكون منها الماكر والمخادع والمستهزىء ...) .

ومن هذا فإن المسلم لا يسّم الله تعالى إلا بما سمى به نفسه فى القرآن وما ورد عن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الإلتزام بذكر الإسم فيما ورد فيه إن كان مفرداً أو مضافا أو مقابلة كما أن اشتقاق أسماء من أفعاله لم يرد بها المشرع .

والوقوف عند ذلك لا مشاحة فى أنه الإيمان والسمع والطاعة كما أنه إجماع المؤمنين والعقلاء فى صدر الإسلام .

أما البحث فيما وراء ذلك . أو أن الأسماء مشتقة من صفات الذات كاشتقاق الصفة أو الإسم كصفة القادر والعالم من القدرة والعليم أو أن هذه الصفة أو الإسم عين المسمّى أو قائم به أو هى هو أو غيره إلى غير ذلك من الأبحاث والإختلافات فهذا ما نقطع بأنه أمر لاحق بالصدر الأول ونعنى بهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كما أن هذه المباحث فى الأسماء والصفات جعلت من تابع الصحابة فى الإيمان بها كما وردت يطلق عليهم السلف لأهل السنة كما يطلق عليهم الجماعة .
وأن من زاد على ذلك وأطلق عليه من الأسماء بما يتفق وما يقول ويذهب إليه فى ذلك يأخذ اسما آخر .

يقول ابن حزم فى إطلاق الصفة من الإسم ولله دره :

« وأما إطلاق لفظ الصفات لله تعالى عز وجل فمحال لا يجوز لأن الله تعالى لم ينص قط فى كلامه المنزل على لفظة الصفات ولا على لفظ الصفة ولا حفظ عن

النبى صلى الله عليه وسلم بأن الله تعالى صفة أو صفات .

ولاجاء قط ذلك عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ولا عن أحد من خيار التابعين ولا عن أحد من خيار تابعى التابعين . ومن كان هكذا فلا يحل لأحد أن ينطق به . ولو قلنا إن الإجماع قد يتفق على ترك هذه اللفظة - أى صفة لصدقنا فلا يجوز القول بلفظ الصفات ولا إعتقاده بل هى بدعة منكرة ....(١) » .

تقسيم الصفات

إذا كان لله تسعا وتسعين اسما ذكرت فى القرآن فإن اسم الله هو الجامع للأسماء كلها ولهذا تضاف الأسماء الحسنى كلها إليه فيقال : الرحمن الرحيم العزيز الغفار القهار من أسماء الله تعالى ولا يقال الله من أسماء الرحمن .

وقد قسم العلماء صفات الله التى بلغوا بها إلى ثلاث عشرة إلى ثلاثة أقسام وهى :

١ - الصفات النفسية :

ومعنى الصفة النفسية : أن الوصف بها يدل على نفس الذات دون معنى زائد عليها وهى صفة واحدة . الوجود .

٢ - الصفات السلبية :

ومعنى الصفة السلبية أنها تنزه الله تعالى وتنفى عنه أمورا لا تليق بذاته وجلاله وهى أيضا صفات عدمية ليست موجودة ولذلك يبدأ تعريفها بكلمة عدم

---

(١) الفصل ابن حزم جـ ٢ صـ ١٢٠ و ١٢٢ وقد أورد ابن حزم على من استشهد بورود لفظة الصفة فى حديث الرسول عن سورة . قل هو الله أحد بأنها صفه الرحمن .بأن الراوى وهو سعيد بن أبى هلال انفرد بها وليس بالقوي كما أنها خبراً حاد ومع ذلك فهى خبر خاص عن سورة كما أنه تعجب من اقتصار القائلين بها وهم المعتزلة ومنعهم من القول بأنها نعوت وسمات ولافرق بين هذه الألفاظ لا فى لغة ولا فى معنى ولا فى نص ولا فى إجماع .

مثل القدم . فنقول هو عدم أولية الوجود .

وهذه الصفات خمس وهى . القدم . البقاء . المخالفة للحوادث والقيام بالنفس . والوحدانية .

٣ – صفات المعانى :

وهى سبع صفات الحياة . القدرة . الارادة . العلم . السمع . البصر . الكلام (١) (محل الخلاف والتفريق) .

بالنسبة للصفات نزيد بيانا يتضح منه أين الخلاف الذى أوجد فرقا فالصفات منها : –

١– سلبية لفظا ومعنى كقوله تعالى «ليس كمثله شىء فى صفة المخالفة للحوادث

٢ – صفات سلبية معنى إيجابية لفظا . كالقدم . والوحدانية وهذه محل إتفاق بين الفرق لم يشذّ واحد منهم عن القول بها إلا من جانب الحق وهم المشبهة » (٢) .

٣ – صفات إيجابية لفظا ومعنى وهى القدرة. الإرادة العلم وغيرها من الصفات التى توجب معنى تتصف به الذات وهذه محل خلاف.وتعرف بصفات المعانى (٣) .

صفة الذات وصفة الفعل

ذكر البيهقى فى كتاب الاعتقاد، فلله « عز اسمه » أسماء وصفات ، وأسماؤه صفاته وصفاته أوصافه وهى على قسمين :

أحدهما : – صفات ذات والأخر صفات فعل

١ – صفات الذات ما يستحقه فيما لم يزل ولا يزال وهو على قسمين أحدهما عقلى . والآخر سمعى .

(١) انظر فى العقيدة الإسلاميه والأخلاق محيى الدين الصافى وآخرين حـ١ صـ ٣٤ .

(٢) انظر ابن قيم الجوزية عصره ومنهجه . دعبد العظيم عبد السلام .صـ ٣٣٦ .

(٣) المرجع السابق صـ ٣٣٦ .

فالعقل : ما كان طريق إثباته أدلة العقول مع ورود السمع به وهو على قسمين :

أحدهما : ما يدل خبر المخبر به عنه ووصف الواصف له به على ذاته كوصف الواصف له بأنه شيئ ، ذات ، موجود ، قديم ، إله ، ملك ، قدوس جليل عظيم عزيز ، متكبر ، والاسم والمسمى في هذا القسم واحد [1] .

والثاني : ما يدل خبر المخبر به عنه ووصف الواصف له به على صفات زائدة على ذاته قائمات به. وهو كوصف الواصف له بأنه حى .عالم. قادر .مريد. سميع. بصير متكلم ، باق .

فدلت هذه الاوصاف على صفات زائدة على ذاته . قائمة به كحياته وعلمه . وقدرته . وإرادته . وسمعه . وبصره . وكلامه . وبقائه . والاسم في هذا القسم صفه قائمة بالمسمّى .

لايقال إنها هي المسمى ولا أنها غير السمى .

واما السمعي : فهو ماكان طريق إثباته الكتاب والسنة فقط ، كالوجه .واليدين . والعين . وهذه أيضاء صفات قائمه بذاته .

لا يقال فيها إنها هي المسمى ولاغير المسمى ولا يجوز تكييفها .

فالوجه له صفة . وليست بصورة . واليدان له . صفتان . وليستا الجارحتين والعين له صفة وليست بحدقة . وطريق إثباتها له . صفات ذات وورود خبر الصادق به .

٢ - واما صفات فعله : فهي تسميات مشتقة من أفعاله ورد السمع بها مستحقة له فيما لايزال . دون الأزل. لأن الأفعال التى اشتقت منها لم تكن في الأزل وهو كوصف الواصف له بأنه . خالق. رازق. محيى. مميت. منعم.مفضل. فالتسمية في هذا القسم إن كانت من الله عز وجل ، فهي صفه قائمه بذاته ، وهو كلامه، لا يقال

---

(١) الاعتقاد للبيهقي ص٧٠ . وهذا تقسيم ضابط من البيهقي ولايعني اعتقاده لذلك ولذلك استدرك المحقق نقال بالهامش القديم وكذا الأبدى . من اصطلاحات الفلاسفة والمتكلمين ولم يرد فيهما دليل صحيح وفى الشرع ماهو أبلغ منهما. فالأول يقابل القديم والآخر يقابل الأبدى. وشتان مابينهما وبين ما اصطلحوا عليه.

إنها المسمى ولا غير المسمى ، وان كانت التسمية من المخلوق فهى فيها غير المسمى » [١]

وهذا التقسيم للصفات من قبل البيهقى وهو من أهل السنة لبيان قول أهل السنة المتأخرين .

أما قول أهل السنة المتقدمين فقد ذكر القول :

ومن أصحابنا من ذهب الى أن جميع أسمائه لذاته. الذى له صفات الذات وصفات الفعل فعلى هذا. الاسم والمسمى فى الجميع واحد .والله أعلم وعلى هذه الطريقة يدل كلام المتقدمين من أصحابنا .

أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى أن الحسن بن رشيق أجازه. حدثنا سعيد بن أحمد بن زكريا اللخمى حدثنا يونس بن عبد الأعلى قال : سمعت الشافعى يقول: اذا سمعت الرجل يقول : الاسم غير المسمى فاشهد عليه بالزندقة. قال الشيخ: وقد قال الشافعى فى كتاب الإيمان . مادل على أنه لايقال فى أسماء الله تعالى إنها أغيار » .

أهل السنة والصفات

فى رسالة لأبى الحسن الأشعرى [٢] بعنوان .أصول أهل السنة والجماعة والمعروفة باسم رسالة أهل الثغر. ما أجمع عليه اهل السنة فى الصفات.

يقول ؛ « وأجمعوا على أنه تعالى لم يزل . موجودا . حيا . قادرا . عالما. مريدا . متكلما . سميعا . بصيرا . على ما وصف به نفسه. وتسمىً به فى كتابه

---

(١) الاعتقاد . للبيهقى صـ ٧١ ، ٧٢ .

(٢) أبو الحسن الأشعرى . ولد سنه ٢٦٠هـ وتوفى ٣٢٤ سنة هـ وقد كان فى بداية حياته معتزليا ثم ترك الاعتزال وجادل المعتزلة وأعلن رجوعه إلى مذهب أهل السنة والمحدثين والفقهاء ، وأهل السنة لايجدون فيما ذهب اليه كبير خلاف بينهم ويستشهدون بأقواله فى هذه الرسالة وقد استشهد ابن تيمية بها وكذلك ابن القيم انظره هذه الرسالة تحقيق د. محمد السيد الجلبند فى المقدمة لها و صـ ١٤ .

وأخبرهم به وسوله . ودلت عليه أفعاله . وأن وصفه بذلك لايوجب شبهه لمن وصف من خلقه بذلك . من قبل أن الشيئين لا يشتبهان بغيرهما ولا باتفاق أسمائهما . وإنما يشبهان بأنفسهما .

فلما كانت نفس البارى تعالى غير مشبهة بشئ من العالم بما ذكرناه آنفا لم يكن وصفه بأنه حيّ قادر. وعالم. يوجب تشبهه بمن وصفناه بذلك منا وإنما يوجب اتفاقهما فى ذلك اتفاق حقيقة إلى القادر والعالم. وليس اتفاقهما فى ذلك يوجب تشبيها بينهما .

ألا ترى أن وصف البارى عز وجل بأنه موجود ووصف الإنسان بذلك لا يوجب تشابها بينهما. وإن كانا قد اتفقا فى حقيقته الموجودة. ولو وجب تشابههما بذلك لوجب تشابه البياض والسواد بكونهما موجودين فلما لم يجب بذلك بينهم تشابها- وإن كانا قد اتفقا فى حقيقة الموجود - لم يجب أن يوصف البارى عز وجل بأنه حيّ . عالم . قدير . ووصف الإنسان بذلك تشابههما . وإن اتفقا فى حقيقة ذلك .

وإن كان الله عز وجل لم يزل مستحقا لذلك. والإنسان مستحقا لذلك عند خلقه وخلق هذه الصفات فيه [١] " .

وقول أبى الحسن الأشعرى عن الاتفاق فى حقيقة الوجود ربما يوهم معنى غير مقصود وهو الاتفاق فى كنه الوجود ولذلك بين الوجودين بعد ذلك وشتان بين الوجود لله ووجود أى موجود سواه .

---

(١) المصدر السابق .

قدم الصفات

يقول الأشعرى : " وأجمعوا - أى أهل السنة - على إثبات حياة لله عزوجل لم يزل بها حيًا . وعلما لم يزل به عالما. وقدرة لم يزل بها قادرا وكلاما لم يزل به متكلما . وإرادة لم يزل بها مريدا وسمعا وبصرا . لم يزل بهما سميعا وبصيرا .

وعلى أن شيئا من هذه الصفات لايصح أن يكون محدثا. إذ لو كان شيئا منها محدثا لكان تعالى قبل حدثها موصوفا بضدها. ولو كان كذلك يخرج عن الأهلية وسار إلى حكم المحدثين. الذين يلحقهم النقص ويختلف عليهم صفات الذم والمدح وهذا يستحيل على الله عز وجل وإذا استحال ذلك عليه وجب أن يكون لم يزل بصفة الكمال. إذا كان لايجوز عليه الانتقال من حال من الكمال " (١)

الصفات حقيقة لامجازا.

" وأجمعوا على أن صفته عزوجل لاتشبه صفات المحدثين . كما أن نفسه لاتشبه أنفس المخلوقين. واستدلوا على ذلك بأنه لو لم يكن له عز وجل هذه الصفات لم يكن موصوفا بشيء منها فى الحقيقة. ومن لم يكن له فعل لم يكن فاعلا فى الحقيقة. ومن لم يكن له إحسان لم يكن محسنا .... وإن وصف بشيء من ذلك مع عدم الصفات التى توجب هذه الأوصاف له لايكون مستحقا فى الحقيقة وإنما يكون وصفه مجازا أو كذبا .... فوجب إثبات هذه الصفات التى اشتق له عز وجل الأوصاف من أخص أسمائها (٢) " .

---

(١) أصول أهل السنة والجماعة صـ ٦٧ - ٦٨ .

(٢) المصدر السابق واستدل علماء السلف بموقف الأشعرى هذا على أن صفات الله عز وجل حقيقة لامجازا ونبهوا إلى مخالفة متأخرى الأشاعرة لذلك. انظر هامش صـ ٦٩ .

ويقول الأشعري :" وأجمعوا على وصف الله تعالى بجميع ما وصف به نفسه ووصفه به نبيه من غير اعتراض فيه . ولا تكييف له . وأن الإيمان به واجب وترك التكيف له لازم " (١) .

ولو أجرينا تلك القاعدة على كل الصفات وكما نقل عن مالك رضى الله عنه في الاستواء والاستواء غير مجهول - أي في اللغة - والكيف غير معقول. والسؤال عنه بدعة كذلك في النزول . والمجيء وباقي الصفات .

يتضح لنا إذن أن حاصل مذهب السلف أمران

١ - تنزيه الله عن مشابهة الحوادث أخذا بالأية :" ليس كمثله شيء " .

٢ - الأخذ بظاهر الآيات وعدم تأويلها خوفا من أن يقولوا في آيات الله مالم يقصده الله. فهم يؤمنون بها كما وردت دون تأويل لها.

هذا وقد سار على ذلك إبن تيمية حديثا وسرد في كتابه . الرسائل والمسائل الآيات والأحاديث في العرش واستواء الله عليه وفق هذين الأصلين واستدل بكلام الإمام. أبوعثمان اسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني. النيسابوري وهو من أئمة أهل السنة كذلك البيهقي وابن عبد البر. وتابع ابن تيمية بعد ذلك ابن القيم في كتابه . اعلام الموقعين. يقول ابن القيم : " وقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيمانا. ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال بل كلهم على إثبات مانطق به الكتاب والسنة. كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم. لم يسوموها تأويلا ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلا . ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها بل تلقوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالإيمان

(١) المصدر السابق

والتعظيم "(١) .

وبهذا تكون قد ذكرنا أصول أهل السنة وأنهم عند التحقيق الامتداد الأسلم للعقيدة الإسلامية التزاما بالقرآن الكريم والسنة النبوية وسلفا لأئمة الهدى فى ذلك وبالتالى فان غير الواقفين عند ذلك ينظر إليهم أهل السنة بأنهم خارجون عن المنهج وموضوع الخروج ومقداره هو الذى يحدد صفة الخارجين أو المخالفين وقد كان فى أمر الصفات مذاهب لغير أهل السنة ولذلك حرصنا على التوسع فيها لأنها ستكون عونا على معرفة المخالف وبها يتضح كثير من الفرق - والله أعلم.

زيادة مفيدة

ذكر الشيخ محمد الأمين الشنقيطى فى بحث له لآيات الأسماء والصفات شبهة المؤولين . للاستواء على أنه بمعنى الاستيلاء حتى لايشبه الله الحوادث فى الجهة والتحيز اللازمين على القول بالاستواء .

يقول :" الذى يقول مثلا. لوكان مستويا على العرش لكان مشابها للحوادث لكنه غير مشابه للحوادث. ينتج فهو غير مستو على العرش. هذه النتيجة الباطلة تضاد سبع آيات من المحكم المنزل - أى الآيات التي ورد فيها كلمه استوى -

ولكننا نقول فى مثل هذا على طريق المناظرة والجدل المعروف عند المتكلمين نقول: هذا قياس استثنى فيه نقيض التالى.

فأنتج منه نفيض المقدم - هو لوكان مستويا - حسب مايراه مقيم هذا الدليل ونحن نقول : إنه تقرر عند عامة النظار أن القياس الاستثنائى المركب من شرطية متصلة لزومية . يتوجه عليه القدح من ثلاث جهات : -

(١) الرسائل والمسائل ابن تيميه ١-٣ صـ ٢٢٠ - ١٢٢ الاعتقاد البيهقى صـ ١١٢ - ١١٩ الملل والنحل حـ ١ صـ ٩٢ الفرق بين الفرق البغدادى صـ ٣٢٣ - ٣٢٤ وانظر ابن قيم الجوزيه عصره ومنهجه . عبد العظيم عبد السلام حـ ١ ٣٥١ وانظر نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام د.على سامى النشار حـ ١ صـ ٢٦٥ - ٢٧٣ .

١ - يتوجه عليه من جهة استثنائيته .

٢ - ويتوجه عليه من جهة شرطيته . إذا كان الربط بين المقدم والتالى ليس بصحيح .

٣ - ويتوجه عليه القدح من جهتهما معا.

وهذه القضية كاذبة الشرطية فالربط بين مقدمها وتاليها كاذب كذبا بحتا ولذلك جاءت نتيجتها مخالفة لسبع أيات.

وإيضاحه أن نقول : قولكم لو كان مستويا على العرش لكان مشابها للحوادث . هذا الربط بين لو . واللام . كاذب .

بل هو مستو على عرشه. كما قال من غير مشابهة للحوادث.كما أن سائر صفاته واقعة كما قال من غير مشابهة للخلق.

ولا يلزم من استوائه على عرشه كما قال أن يشبه شيئا من المخلوقين فى صفاتهم البتة بل استواؤه صفة من صفاته. وجميع صفاته منزهة عن مشابهة الخلق. كما أن ذاته منزهة عن مشابهة ذوات الخلق ويطرد هذا فى مثل هذا ..(١)

أما استحالة إدراك حقيقة الكيف بالنسبة لصفات الله عز وجل فيقول الشيخ الشنقيطى :

الثالثة : " أن تقطعوا أطماعكم عن إدراك حقيقة الكيفية لأن إدراك الكيفية مستحيل وهذا نص عليه فى سورة (طه) حيث قال : " يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما " .

فقوله يحيطون به . فعل مضارع والفعل الصناعى . الذى يسمى بالفعل المضارع وفعل الأمر والفعل الماضى.

بنحلّ عند النحويين عَن. مصدر وزمن كما قال ابن مالك فى الخلاصة :

---

(١) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات صـ ٢٣ .

المصدر اسم ما سوى الزمان من : مدلولى الفعل كأمْن من أمن وقد حرر علماء البلاغة فى مبحث الاستعارة التبعية أنه أى الفعل ينحل عن مصدر وزمن ونسبة .

فالمصدر كامن فى مفهومه إجماعا. فيحيطون فى مفهومها. الإحاطة فيتسلط - أى يقع - النفى على المصدر الكامن فى الفعل - وهو هنا . الإحاطة . فيكون معه كالنكرة المبنية على الفتح فيصير المعنى لا إحاطة للعلم البشرى برب السموات والأرض .فينفى جنس أنواع الإحاطة عن كيفيتها.

فالإحاطة المسندة للعلم منفية عن رب العالمين . فلا يشكل عليكم بعد هذا صفة نزول ولا مجىء ولا صفة يد ولا أصابع ولا عجب ولا ضحك لأن هذه الصفات كلها من باب واحد .

ثم يقول فالآية " ليس كمثله شيء وهو السميع البصير " أولها تنزيه بلا تعطيل آخرها إيمان بلا تمثيل (١) .

١ - أهل السنة (السلف)

حين نقول أهل السنة أو منهج السلف فإن المقصود بذلك صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والنبى بين أظهرهم والوحى يتنزل وحالهم إيمانا وقلبا ووجدانا وعقلا ودراية سمعنا وأطعنا ،تصديقا ويقينا .واقتداؤهم بالرسول فى ذلك قولا وفعلا وعملا ونهيا فهم إذن يمثلون الإسلام فى عهده الأول وهو المتدفق المتلألىء كالنجوم الزاهرة يقتدى بها.وكل من تبعهم وتابعهم إلى آخر الزمان ومن حيث المصطلح الإسمى يقول الدكتور / مصطفى حلمى :

" فمن حيث المصطلح أصبحت ، السلفية ، علما على أصحاب منهج الإقتداء بالسلف من الصحابة والتابعين من أهلَ القرون الثلاثة الأولى . وكل من تبعهم من الأئمة ...

وقد ظهر المصطلح فى مقابل انحرافات كانت تأخذ مجراها فى تاريخنا العقدى والثقافى فبدأ التمييز بين المثبتين للصفات الإلهية وبين النافين لها كما ذكر . الشهرستانى. وظهر أيضا للتعبير عن أهل الفقه والحديث للمفارقة الواضحة بينهم وبين المتكلمين أو الصوفية أو الفلاسفة .

كما أصبح علما فى العصر الحديث على أهل التوحيد منذ حركة محمد بن عبد الوهاب "[١] .

والبغدادى يذكر أهل السنة على أنهم الفرقة الثالثة والسبعون الناجية فيقول : " فأما الفرقة الثالثة والسبعون فهى أهل السنة والجماعة من فريقى الرأى والحديث دون من يشترى لهو الحديث ، وفقهاء هذين الفريقين وقراؤهم ومحدثوهم. ومتكلموا أهل الحديث منهم كلهم متفقون على مقالة واحده فى توحيد الصانع .

---

(١) السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفه الغربيه د مصطفى حلمى صـ ٥ و ٧ باختصار قواعد المنهج السلفى مصطفى حلمى صـ ١٦٣ - ١٧٠ .

وصفاته . وعدله . وحكمته وفي أسمائه وصفاته وفى أبواب النبوة. والإمامة . وفى أحكام العقبى . وفى سائر أصول الدين وإنما يختلفون فى الحلال والحرام من فروع الأحكام وليس بينهم فيما اختلفوا فيه منها تضليل ولاتفسيق . وهم الفرقة الناجية ويجمعها الإقرار . بتوحيد الصانع وقدمه وقدم صفاته الأزلية (١)

" وإجازة رؤيته من غير تشبيه ولاتعطيل، مع الإقرار بكتب الله ورسله وتأييد شريعة الإسلام. وإباحة ما أباحه القرآن وتحريم ماحرمه القرآن مع قبول ماصح من سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،واعتقاد الحشر والنشر وسؤال الملكين فى القبر. والإقرار بالحوض والميزان .

فمن قال بهذه الجهة التى ذكرناها ولم يخلط إيمانه بها بشىء من بدع . الخوارج والروافض والقدرية . وسائر أهل الأهواء . فهو من جملة الفرقة الناجية إن ختم الله له بها.

ودخل فى هذه الجملة . جمهور الأمة وسوادها الأعظم من أصحاب مالك . والشافعى . وأبى حنيفة . والأوزاعي . والثورى . وأهل الظاهر" (٢)

الأصول التى اجتمع عليها أهل السنة ذكر البغدادى هذه الأصول فقال :" قد اتفق جمهور أهل السنة والجماعة على أصول من أركان الدين .

كل ركن منها يجب على كل عاقل بالغ معرفة حقيقته ولكل ركن منها شعب وفى شعبها مسائل اتفق أهل السنة فيها على قول واحد . وضللوا من خالفهم فيهما .

(١) وأول الأركان التى رأوها من أصول الدين إثبات الحقائق والعموم على الخصوص والعموم .

---

(١) الفرق بين الفرق صـ ٢٦ .

(٢) المصدر السابق صـ ٢٧ و ٢٨ والمراد بأهل الظاهر أتباع داود بن على بن خلف الأصبهانى ترفى ٢٧٠ هـ الفرق بين الفرق صـ ٣٢٣ .

(٢) الركن الثانى : هو العلم بحدوث العالم فى أقسامه. من أعراضه وأجسامه
(٣) والركن الثالث: فى معرفة صانع العالم وصفات ذاته.
(٤) والركن الرابع: فى معرفة صفاته الأزلية.
(٥) والركن الخامس: في معرفة أسمائه وصفاته
(٦) والركن السادس: فى معرفة عدله وحكمته.
(٧) والركن السابع: فى معرفة رسله وأنبيائه .
(٨) والركن الثامن : فى معرفة معجزات الأنبياء . وكرامات الأولياء .
(٩) والركن التاسع : فى معرفة ماأجمعت الأمة عليه من أركان شريعة الإسلام.
(١٠) والركن العاشر : فى معرفة أحكام الأمر والنهى . والتكليف .
(١١) والركن الحادى عشر : فى معرفة فناء العباد وأحكامهم فى المعاد."[١]
(١٢) والركن الثانى عشر : الخلافة والإمامة وشروط الزعامة .
(١٣) والركن الثالث عشر : فى أحكام الإيمان والإسلام فى الجملة .
(١٤) والركن الرابع عشر : فى معرفة أحكام الأولياء ومراتب الأئمة الأتقياء .
(١٥) والركن الخامس عشر : فى معرفة أحكام الأعداء من الكفر وأهل الأهواء .

فهذه أصول اتفق أهل السنة على قواعدها . وضللوا من خالفهم فيها .
وفى كل ركن منها مسائل أصول ومسائل فروع . وهم مجمعون على أصولها .
وربما اختلفوا فى بعض فروعها إختلافاً لا يوجب تضليلاً ولا تفسيقاً [٢] .

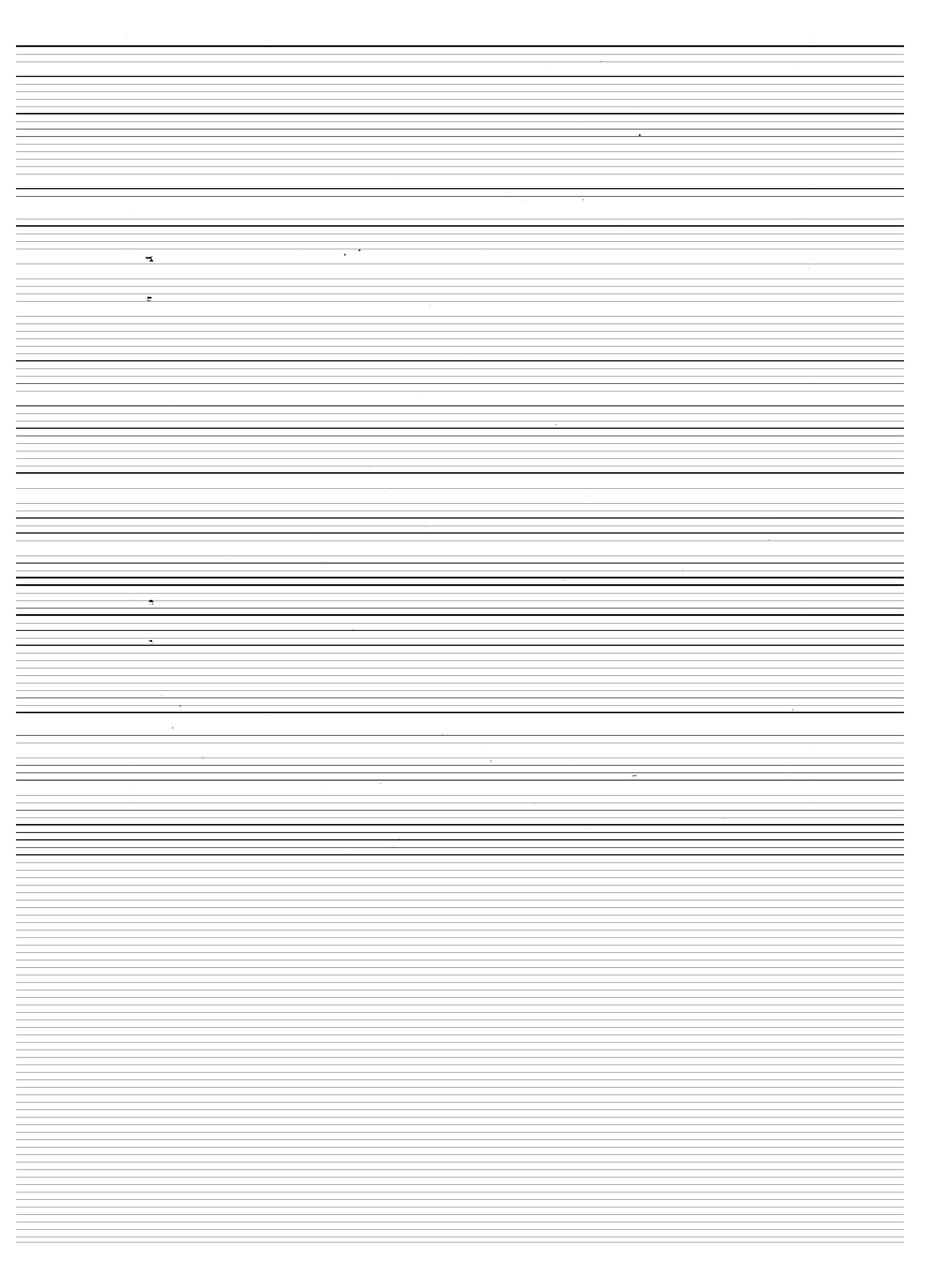
ولعل قول البغدادى بذكره تلك الأركان على أنها أركان الإيمان وأن العلم بها واجب على كل بالغ عاقل مكلف يعنى بها الإجمال لا التفصيل خاصة بالنسبة للسواد الأعظم من المسلمين الذين لا يشتغلون بالعلم والتفقه فيه وهم غالبية سواد الأمة .

---

(١) الفرق بين الفرق صـ ٣٢٣ . (٢) المصدر السابق صـ ٣٢٤ .

الفصل الثاني

وجود الله تعالى



وجود الله تعالى :

لم تنل قضية من القضايا كل هذا الاهتمام لدى الباحثين والمفكرين مثل قضية الألوهية فلقد شغلت الفكر الإنساني عبر مراحله المختلفة واحتلت مكانا كبيرا في أبحاث الدارسين سواء أكان الدافع لدى الباحث ترسيخ العقيدة أم مجرد تحليل للوجود ورده إلى مصدره الأصل؟[1] وعلى الرغم من أن هذه المسالة أوضح من أن يبرهن عليها لكونها غريزة فطرية، إلا أنه وجد من أنكرها ؛ الأمر الذي حدا بالعلماء بإثباتها من خلال أدلة نقلية وأخرى عقلية.

فمن حيث الأدلة النقلية نجد أن القرآن الكريم لفت الأنظار للتأمل في شواهد هذا الكون التي تشهد بوجود الله ، ونوع بين هذه الأدلة فدلائل في السماوات ، وأخرى في الأرض وثالثة في الأنفس...الخ وجعلها على درجات متفاوتة لتناسب كل العقول ومن بين هذه الأدلة التي ساقها القرآن ما يعرف بدليل "الإتقان والإبداع" قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[2].

---

(١) انظر: المنهج في إثبات الصانع بين السلفية والمتكلمين د/ حسن محرم – صـ ٣. دار الطباعة المحمدية ط١ ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م.
(٢) سورة المؤمنون الآيات ١٢-١٤.

وقال تعال : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾[١].

ولـــم يكتف بهذا الدليل بل أشار إلى دليل آخر أوضح من خلاله عنايـــته بهذه المخلوقات الأمر الذي يؤكد ألوهيته ووجوده وهذا الدليل هو ما يعرف بدليل العناية.

قـــال تعالـــى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾[٢].

ولم يكتف بذلك بل ذكر أدلة أخرى كثيرة، ونوع فيها وأفاض في الحديث عنها[٣].

أمـــا من حيث الدليل العقلي : فمعلوم أن عقيدة الألوهية هي غاية الفلـــسفة وتاجهـــا الأعلى، وكانت منذ بدء الحياة الفكرية إحدى الشواغل

---

(١) سورة الغاشية الآيات ١٧-١٩.
(٢) سورة فاطر الآية ٤١.
(٣) لمزيد من التفصيل لهذه الأدلة انظر: قضية الألوهية في الفكر الإسلامي د/ محمد العدل الباز ١٠٤-١٢٤ الدار الإسلامية للطباعة والنشر ١٤١٦هـ-١٩٩٦، منهج السلف في إثبات وجود الله د/ محمد حسين الغزالي مؤسسة النجوم الهاشمية صـ٨١-١٣١. ط الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٨ ففيها تفصيل لهذه الأدلة، وعرض لها باستفاضة.

العويصة التي هزت أعماق العقل البشرى..وراح يسأل من أين العالم؟[1].

وحـــاول أن يجـــد حـــلا لهذه المسألة على الرغم من كونها أمرا غيبـــيا، وقد سلك العلماء مسالك متعددة للاستدلال على وجود الله تعالى، ومـــن هذه المسالك ما سلكه المتكلمون والفلاسفة. يقول الشهر ستانى وقد ســـلك المتكلمون طريقين في إثبات الصانع تعالى : طريق الحدوث وهو الاستدلال بالحوادث على محدث صانع، وسلك الأوائل طريقا آخر، وهو الاستدلال بإمكان الممكنات على مرجح لأحد الطرفين[2].

أمـــا الفلاســـفة فقد استدلوا على وجود الله بطريق الإمكان، إلى جانب استدلالهم بعدة أدلة أخرى. وفيما يلي عرض موجز لأدلة وجود الله تعالى.

وقـــبل الحـــديث عن أدلة وجود الله عند مفكري الإسلام أرى من الأهمـــية الإشارة إلى ضرورة الإيمان بوجود الله تعالى وذلك على النحو التالي :

ضرورة الإيمان بوجود الله تعالى :

الإيمـــان بوجود الله ضرورة من ضرورات الحياة التي لا تستقيم حـــياة الإنـــسان إلا بهـــا ومـــن هنا كان الإيمان بوجود الله تعالى لازما للإنسان، ويؤكد ذلك حاجة الإنسان إليه من عدة نواح نعرض لأهمها على النحو التالي :

---

(١) انظر: مشكلة الألوهية .د/محمد غلاب صـــ١٣ دار إحياء الكتب العربية ط٢ ١٣٧١هـــ-١٩٥١م.

(٢) انظر: نهاية الإقدام للشهر ستانى صـــ١٢٤-١٢٥.

(١) الضرورة الدينية :

يعد الإيمان بالغيب ضرورة دينية، وذلك للمنافع المترتبة عليها، ومن أهمها:

أ- الفوز في الدنيا والآخرة :

قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾[١].

أي : أنهم على كرامة ورحمة وبيان نزل من ربهم، وهم الناجون من السخط والعذاب،ويقال: أولئك الذين أدركوا ووجدوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا"[٢].

من هنا كان الإيمان بالغيب ضرورة إسلامية، لأن إنكاره يعني وصف صاحبه بالإلحاد وخروجه من رضوان الله إلى سخطه واستحقاقه عذابه.

ب- أنه ركن من أركان الإيمان :

قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝ ﴾[٣].

(١) سورة البقرة الآيتان ٣-٥.
(٢) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس جـ١ صـ ٣.
(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٥.

فهذه الآية فصلت أركان الإيمان وأوضحته ولا يسمى المرء مؤمنا إلا بالإقرار بهذا الركن.

(٣) الضرورة البشرية :

يعد الإيمان بالغيب ضرورة بشرية من ضرورات الحياة التي لا تستقيم الحياة إلا بها؛ ذلك لأن الإنسان كائن متدين لديه استعداد للخير والشر، ولا تستقيم حياته إلا بما يلزمه ويحتاج إليه وهو التدين أو العقيدة.

ففي الطبع الإنساني جوع إلى العقيدة تماما كجوع المعدة إلى الطعام، فالروح تجوع كما يجوع الجسد، وإن طلب الروح لطعامها كطلب الجسد لطعامه، لا يتوقف على جودة الغذاء وعلى حلاوة المذاق؛ بل يتوقف على شعور الغريزة بالحاجة إليها والرغبة فيها(١).

نعم قد تأتي فترات يشعر فيها المرء أن الإنسانية فقدت صوابها، وتخلت عن ميثاق ربها ولم يعد لها عقيدة تسير على ضوئها، ولكنها ليست سوى لحظة من لحظات الضعف والإعراض عن منهج الله وسرعان ما تعود إلى سابق عهدها.

فالتدين مغروس في النفوس وبالتالي فإن الإيمان بالغيب أمر ضروري لتستقيم الحياة على نهج ربها وبغيره " تفقد البشرية عنصرا رئيسيا في تكوينها يجعلها تقع في التيه وتتخبط في الضلال"(٢).

ومما يؤكد أهمية الغيب في هذه الناحية هو إقبال الناس ورغبتهم في معرفة مستقبلهم الذي هو من الغيب" فهذه الرغبة وهذا الإقبال يعبران عما في النفس البشرية من نزوعها إلى شيء ضروري لها تحاول معرفته والوقوف عليه " (٣).

وما نراه من اندفاع الناس حول قراءة الكف، والفنجان وغيرهما لهو خير شاهد على تهافت الناس على معرفة المستقبل الذي هو من الغيب يقول أحد الباحثين:

---

(١) انظر: الله. كتاب في نشأة العقيدة الإلهية -للعقاد صـ ١٤ دار المعارف ط ٧ سنة ١٩٧٦م.
(٢) الإيمان بالغيب. بسام سلامه صـ ١٦ . مكتبة المنار – الأردن ط ١ ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣م.
(٣) نفس المصدر صـ ٦٩.

هناك حاجة ماسة إلى الحياة الأخرى من نواح عديدة أهمها :
الجانب النفسي : وإذا كان هناك من ينكرها ويعللون ذلك بأنها من اختراع الناس أملا منهم في إيجاد عالم آخر مستقل عن حدود هذا العالم ، وعن مشكلاته مليء بالأفراح فإن هذه الفكرة تدل على وجود الآخرة لأن تطلع الإنسان نسبيا إلى عالم آخر دليل على أن مثل ذلك موجود في الحقيقة ؛ أو على الأقل خليق بأن يوجد وهذا المطلب النفسي يؤكد علاقة مصيرنا بهذه الحقيقة، وعلى ضرورة الإيمان بالغيب من الناحية البشرية[1].

فالإيمان بالغيب ضرورة تحتمها الحياة النفسية لبنى الإنسان، والإنسان إذا أظلمت عليه السبل، وضاقت عليه الدنيا، رجع إلى صوت الفطرة، ويتضرع إلى الله وحده رجاء إذهاب عنه ما هو فيه فتدركه عنايته لا محالة قال تعالى ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾ [2].

٣ – الضرورة الاجتماعية :

إن هذه الضرورة لها صلة وثيقة بالضرورة البشرية؛ ذلك أن المجتمع الإنساني مكون من مجموعة من البشر الأمر الذي يؤكد العلاقة بينهما.

وإذا كان الإيمان بالغيب ضرورة بشرية فإنه أيضا ضرورة اجتماعية لا غنى عنها، ولم لا؟ والمجتمع الذي يريد أن يحافظ على بقائه لابد له من الإيمان بالغيب.

" فالأسرة كشكل من أشكال المجتمع لا تتم الصلة المعقولة بين أفرادها بشكل سليم إلا إذا كان أفرادها يؤمنون بالغيب، وهانحن أمام حقائق وواقع الأسرة التي ابتعدت عن الدين، واقتربت من المادة بل

---

(١) انظر: الإسلام يتحدى وحيد خان صـ ٩١ ترجمة ظفر الإسلام خان، مراجعة د /عبد الصبور شاهين المختار الإسلامي ط ٣ سنة ١٩٧٢.
(٢) سورة الإسراء الآيتان ٦٧-٦٨.

عاشــت فــيها، نجد أن هذه الأسرة قد انحلت وفقدت الرباط بين أفرادها والسبب هو طغيان التفكير المادي على الأفراد"[1].

إن الإنسان إذا فقد الإيمان بالغيب فإنه يصاب بأمراض كثيرة يفقد معهــا إنــسانيته، وتتوارى معها كرامته كما تنهار قوته، وبالتالي يخسر مجتمعه الاستفادة منه ومن طاقته.

" فالإنــسان ينشد الكرامة، وينشد معها القوة تجاه الطبيعة، وتجاه الأحــداث القــوة أمام طغيان الغير وشهوات النفس على حد سواء. القوة علــى تحقيق الغايات وأداء الواجبات. القوة التي تعوض الفرد عن ضعفه الجسدي، وعجزه الخلقي وقصور الذاتي إزاء الأقدار وإزاء الموت وإزاء المجتمع بقواه الكبيرة المتنوعة"[2].

وكــل هــذا رغبة منه في تحقيق السعادة للنفس والسكينة لها في الدارين، وهذا لا يتأتى إلا إذا كان الإنسان مؤمنا بالغيب؛ فالإنسان إذا فقد الإيمــان بالغيب تعطلت قواه الفكرية والمادية والأدبية وصار عبئا على الآخرين، لا حاجة إليه ولا رغبة فيه.

فالإيمان بالغيب هو الأمل في هذه الحياة؛ كما أنه الضياء لمسيرة الإنسان وبه السعادة الكاملة، وبدونه تصبح الحياة جحيما لا يطاق [3].

فهــو الــذي ينظم العلاقات بين الناس، وينظم شئونهم وأحوالهم وبالتالي تستقيم حياتهم.

٤- الضرورة الأخلاقية :

من المعلوم أن من أكرم الفضائل وأحسن الشمائل خلق يتخلق به الإنسان ليعلو به درجات عن درك الحيوانية والاتصاف بالهمجية.

---

(١) الإيمان بالغيب. بسام سلامه صـ ٧١.
(٢) الإيمان والحياة / يوسف القرضاوى صـ ٤٧ مؤسسة الرسالة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧.
(٣) في نور العقيدة د/محمد المسير صـ ١٠٦ ط١ دار الطباعة المحمدية.

" فالإنسان والحيوان كلاهما يتكون من لحم، ودم ، وعصب إلا أن الإنسان يتميز بالفهم والخلق فإذا ما انعدم انعدمت الفروق بينهما لذلك كانت الأخلاق هي روح الحياة الإنسانية وضوء عينها وقبس النور في هذا الوجود المظلم[1].

ولما كان الأمر على هذا النحو كان الإيمان بالغيب ضرورة أخلاقية، وذلك أن الإيمان بالغيب ضرورة بشرية، ومن مستلزمات البشر الأخلاق فلا تستقيم حياتهم إلا بها فلا يوجد إنسان على ظهر الأرض إلا ويتصف بخلق ما حسنا كان أو سيئا فإن كان حسنا أثنى الناس عليه، وإن كان سيئا ذمه الناس وتركوه. وبالتالي فهو لا يرى لكيانه وزنا ولا لوجوده قيمة فيعمل على تعديل سلوكه، ولا ينجح في ذلك إلا من كان مؤمنا بالغيب.

ولهذا قال رسول الله ﷺ : " إن أثقل شيء في الميزان يوم القيامة الخلق الحسن " [2].

وعن أبي إمامة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه " [3].

وتتأكد الضرورة الأخلاقية للإيمان بالغيب لتصحيح مسار العلاقات والصلات الاجتماعية بين الناس التي تقوم على أساس " المحبة في الله ذلك المبدأ الذي يتسامى على أهواء النفس ودنايا المادة، فتنزوي الأحقاد وتنأى الخصومات ويعيش الناس عبادا لله إخوانا، وعلى هذا المبدأ آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار " [4].

---

(١) دراسات أخلاقية د / الطنطاوى فراج صـ ٥ ط ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م.
(٢) أبو داود ك الأدب باب في حسن الخلق جـ ٤ صـ ٢٥٣ حديث رقم ٤٧٩٩ دار الريان للتراث.
(٣) أبودود ك الأدب (ب) حسن الخلق جـ ٤ صـ ٢٥٤ حديث ٤٨٠٠.
(٤) في نور العقيدة د/محمد المسير صـ ١١٢.

٥- الضرورة السياسية :

إن الإســلام باعتباره دينا إلهيا فإنه يلزم الحاكم أن يسوس رعيته بما يرضى الله تعالى فلا يحق له أن يفصل الدين عن الدولة كما حدث في أوروبا، كما لا يحق له الحكم بغير ما أنزل الله تعالى كما لا يجوز له بأي حال من الأحوال أن يخطو خطوة واحدة دون أن تكون بحثا عن رضا الله تعالــى ولا يتأتــى ذلك إلا إذا كان هذا الحاكم مؤمنا بالغيب ويشهد لذلك مــا فعله النبي ﷺ وأصحابه من بعده ففي الحديث : " .... والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " [١].

وهاهو أبو بكر لما ولى الخلافة يصعد المنبر ويخطب في الناس قــائلا : " إنمــا أنا متبع ولست بمبتدع فإن استقمت فتابعونى وإن زغت فقوموني " [٢].

هــذا وقــد تواتــرت الأخــبار عن عمر وعدله مع رعيته ومع غيــرهم [٣] وكل هذا خوفا من يوم آت فيه يلقون الله ويجازيهم بالإحسان إحسانا وبالإساءة إساءة وهذا لا شك أنه من الغيب.

إن ممــا يدعــو أيــضا إلى الإيمان بالغيب من الناحية السياسية الأوضاع الحالية وما نشاهده ونسمعه من قتل وتشريد واغتصاب واحتلال فــإن هــذه المآسي تدعو إلى الإيمان بالغيب الذي يرد الظلم ويمنع البغي ويقــضى على الفساد ويكون هذا عن طريق علم الإنسان بأن هناك ثوابا وعقابا سؤالا وحسابا وحشرا ونشرا وهذا لا شك في أنه في الغيب.

---

(١) البخاري ك الحدود باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان م ٤ جـ ٨ ص ـ ٥٧٣ حديث رقم ١٦٣٥، مسلم ك الحدود باب قطع السارق الشريف وغيره م ٦ جـ ١١ صـ ١٨٨ حديث ١٦٨٨.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ صـ ٣٤٢ ط. دار الفكر ط٢ /١٣٨٧ هـ.

(٣) انظر: مناقب أمير المؤمنين لابن الجو زى تحقيق . على محمد عمر ١٠٧ – ١١٣طبعة خاصة من مكتبة الخانجى لمكتبة الأسرة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب ضمن مهرجان القراءة للجميع صيف٢٠٠٠.

٦- الضرورة الاقتصادية :

ممـــا لا شك أن المجتمعات البشرية في أمس الحاجة إلى الإيمان بالغــيب لتحقيق الناحية الاقتصادية على النحو المشروع مما يدعونا إلى الإيمان بالغيب وجعله أمرا ضروريا من الناحية الاقتصادية.

فالسرقة لم تنتشر إلا في المجتمعات التي طغت عليها المادة، وأن ما حدث من سرقة في المجتمع الإسلامي مثلا يعد حوادث فردية لا تذكر إذا مـــا قيست بما يحدث الآن وبخاصة إذا راعينا المساحة وعدد السكان، ولا ننسى أن جميع النواحي تتكامل فإذا لم يكن هناك ظلم للأفراد من قبل الدولـــة والمجـــتمع لا ينـــسى الفـــرد. فـــإن هـــذا الفـــرد لا ينزل إلى السرقة إلا إذا كان من اللصوص السارقين الذين يحبون هذا الأمر[1].

وعلـــى هذا فإن العقوبة الإلهية تكون لأصحاب هذه الأيدي فيأمر بقطعهـــا عقابـــا لها وزجرا لغيرها قال تعالى : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٣٨﴾ ﴾[2].

وفي الحديث : " والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها "[3].

---

(١) انظر: الإيمان بالغيب بسام سلامة صـــ ٨١.
(٢) سورة المائدة الآية ٣٨.
(٣) الحديث سبق تخريجه انظر صـــ٢٨ من البحث.

ومع هذا فإن الإسلام لا يقطع اليد الجائعة إذا امتدت لتأكل ، ويدل على ذلك موقف عمر بن الخطاب في عام المجاعة عندما عفا عن السارق وأسقط حد السرقة [1] .

كما أن احتكار الطعام والدواء عن الناس وغيرهما وحبسه عنهم حتى ترتفع الأسعار لا يلجأ إليه إلا من غابت عنه عقيدة الرزق.وهي من الغـيب، فمـع أنه حرام لما فيه من ضرر بالناس وإضرار باقتصاديات المجـتمع إلا أنه حيلة يلجا إليها أصحاب النفوس المريضة التي استولت عليهم شهواتهم ، واستحكمت فيهم نزواتهم وما وصلوا إلى هذا إلا نتيجة للإعراض عن التسليم بالغيب والإيمان به.

وانتـشار الربا الآن في كثير من المجتمعات التي استحلته نتيجة لعـدم رضاها بأن ما قدر لها ستناله لا محالة ، لكن ما عليها إلا أن تأخذ بالأسـباب تاركـة تحقيقها إلى مسبب الأسباب وهو الله تعالى، ولهذا ذم الإسـلام الـربا وهاجمه واعتبره جريمة كبرى يعاقب عليها قال تعالى :

﴿ ... وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ... ﴾ [2].

وقـال تعالـى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [3] .

وفـي الحـديث : " اجتنـبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكـل الـربا وأكـل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات " [4].

---

(١) انظر: أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم تحقيق وتعليق عصام الدين الضبابطي جـ٣ صـ ١١ ط دار الحديث ط٣ ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٧٥.
(٣) سورة آل عمران الآية ١٣٠.
(٤) البخاري ك الوصايا (ب) قوله تعالى "إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما " م٢ جـ ٤ صـ ٣٩٩ ح ٩٦٤، مسلم. ك الإيمان . باب بيان الكبائر وأكبرها م١ جـ٢ صـ ٨٥ح "٨٩" واللفظ للبخاري.

واتصاف الأفراد بالاعتدال في كل شيء أمر مطلوب لتتحقق المودة، ويعم الخير ويقضي على كل شر. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾[2].

فالإيمان بالغيب ضرورة اقتصادية ليتحقق بين الناس العدل ويعيش الجميع في أمن واطمئنان بعيدا عن مشكلات وعوائق الحياة.

٧- الضرورة القانونية:

من بين الأشياء التي تجعل الإيمان بالغيب أمرا ضروريا لابد منه الضرورة القانونية فالقانون الذي يأخذ به الناس في حياتهم لابد من وجوده ووجود من يوجده، والبشر عاجزون عن ذلك لأن الذي يضع هذا القانون لابد وأن يكون عالما بأحوال البشر وما يناسبهم.

والأمر لو وكل إلى الإنسان نفسه ما استقامت الحياة؛ لأنه ليس في وسع العالم البشرى أن يضع القواعد التي يتم بها نظام العيش في هذه الحياة، كما لا يستطيع العقل الإنساني تحديد الصلة والعلاقة بينه وبين الناس، والقوانين والضوابط التي تكفل له أداء مهمته في هذه الحياة.

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٩.
(٢) سورة الإسراء الآية ٢٧.

لهــذا كان الإيمان بالغيب ضرورة قانونية، لأن الذي وضع هذا القانون الذي يحكم العلاقة بين الخالق والمخلوق، وبين ما يعيش معه على هــذه المعمــورة هو الله خالق العباد العالم بما ينفعهم وما يضرهم ، قال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [1].

ومــن هــنا كــان التوجيه الإلهي بقصر الحكم عليه وحده. فقال تعالـــــى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [2].

فالقوانــين مهما أحكمت لا تستطيع أن تسيطر على قوى الإنسان الداخلية ؛ ثم إن القانون يحتاج إلى إنسان يقوم على حمايته وتنفيذه، وهذا الإنــسان بــدوره يحــتاج إلى حماية لأنه لن يكون معصوما[3] وبالتالي فالإيمان بالغيب هو الذي يقوم بزرع القيم والمبادئ داخل النفس البشرية، كمــا أنــه دافــع قوى لاحترام القوانين والنظم والتشريعات من هنا كان الإيمان بالغيب ضروريا من هذه الناحية.

٨- الضرورة العقلية :

مــن بــين الــضروريات التي توجب الإيمان بالغيب الضرورة العقلية ، فالله منحنا العقل لنميز به بين الصالح والطالح ، والحق والباطل، وإذا كانــت طبــيعة العقل تقتضى منا المحافظة على الضرورات السابقة كان الإيمان بالغيب أمرا ضروريا من الناحية العقلية،خصوصا وأن العقل الإنــساني له حدوده التي لا يمكن أن يتخطاها أو يتجاوزها بأي حال من الأحوال وذلك نظرا "لعجزه عن إدراك كل الحقائق بل بعضها هذا فضلا

---

(١) سورة الملك الآية ١٤.
(٢) سورة يوسف الآية ٤٠.
(٣) انظر: في نور العقيدة د/ محمد الميسر صـــ ١١٠.

عـــن إدراكه لرأس الغيبيات وهو الله تعالى...كما أنه لا يملك حجة واحدة تنفي الإيمان بعالم الغيب " (١).

هـــذه هي أهم الضرورات التي توجب على الإنسان الإيمان بعالم الغـــيب ، لتـــستقيم حـــياته ويعلو بنفسه عن مدارك الحيوانية ، ومستوى الشهوانية.

أولا: أدلة وجود الله عند السلف :

من الممكن أن نحدد هوية المذهب السلفي دون عناء، فهو المذهب الذي يؤمن بظاهر النص دون خوض أو تأويل خوفا من ابتداع في الدين؛ لهـــذا لا عجب أن نرى أدلتهم لم تخرج عن نصوص الشرع الحكيم، وقد ارتـــضى الـــسلف هـــذه الأدلة لخلوها من الأقيسة المنطقية، وبعدها عن التعقيد. مما يجعلها مألوفة لدى النفوس مؤثرة في القلوب.

١- الدليل الفطري :

هـــو أحد الأدلة التي استدل بها السلف وله ما يؤيده في نصوص الشرع.

قـــال تعالـــى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٢). ذلـــك إن الـــتدين والاحتياج إلي قوة عظمى فطرة بشرية مغروزة في طباع البشر غير أن هذه القوة العظمى تختلف من عصر إلي عصر ، فهناك من جنح بها عن الطـــريق الصواب ، وهناك من وصل إلي الحق وهو الله تعالى، غير أن

---

(١) انظر: الإيمان بالغيب بسام سلام صـــ ٨٦-٨٧.
(٢) سورة الروم الآية ٣٠.

كليهما رجع هذا العالم إلي صانع ، ومدبر اختلفت كيفيات تصوره من بيئة إلي أخرى ، ومن زمن لآخر .

يذكـــر الإمـــام الغزالـــي إلي أن قضية الوجود الإلهي فطري في النفس البشرية ، ويستدل لذلك بقول الله تعالى : ﴿ ... أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ [1] ، ثم عقب عليها قائلا : ولهذا بعث الأنبياء صـــلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلي التوحيد ليقولوا : (لا إله إلا الله) ومـــا أمروا أن يقولوا لنا إله وللعالم إله ، فإن ذلك كان مجبولا في فطرة عقـــولهم من مبدأ نشوئهم وفي عنفوان شبابهم ؛ ولذلك قال(ﷻ) : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ... ﴾ [2]. وقال تعالـــــــــى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [3] ، فـــإذن فـــي فطرة الإنسان وشواهد القرآن ما يغني عن إقامة البرهان.

---

(١) سورة إبراهيم . جزء آية (١٠) .
(٢) سورة الزمر . جزء آية (٣٨) .
(٣) سورة الروم . جزء آية (٣٠) .

ثم بين الغزالي أن استدلاله على وجود الله لا يتناقض مع الفطرة فهو يستدل من باب الاستظهار والإقتداء بالعلماء .

ومـــن هنا فإن كون الوجود الإلهي فطرة في النفس البشرية ليعد دليلا من أقوى الأدلة على وجود الله .

وذلـــك لأن الإيمان بوجود الله شعور يستوي فيه الحفاة العراة في صــحاري أفريقية وجزائر المحيط وفلاسفة اليونان في الماضي وفلاسفة الإفــرنج الآن ، وقــد عــرف في الفريقين من قدماء الأمم كالمصريين والكلدانـــين والهنود كما هو معروف في هذا العصر ؛ ومثل هذا الاتفاق بـــين الـــشرقي والغربـــي والـــشمالي والجنوبـــي في جميع الأزمان من غير تواطؤ ولا تقليد ولا تلقين لا يعقل إلا أنه فطري في البشر .

ومعنى ذلك أنه لا يوجد إنسان على وجه الأرض يجهل أن هناك وراء الكـــون قوة محركة وخالقة حتى الملحدين والماديين الذين ينكرون وجود الله بألسنتهم تنطلق فطرتهم بإثبات وجود الله .

واسأل ملحدا : من الذي خلق الكون ؟ يقول لك : الطاقة أو المادة أو الطبيعة . ثم اسأله مرة ثانية عن صفات المادة والطاقة والطبيعة تجده يخلـــع عليها صفات الإله من الأزلية والأبدية واللاتناهي والقدرة . وتلك هـــي فـــي النهاية صفات الله (ﷻ) مما يؤكد أن النفس البشرية مفطورة على معرفة الله (ﷻ) .

وذلك لأن المنكر لوجود الله عقلا معترف بوجود الله إيمانا فطريا ، وإلا لما حاول الإنكار ؛ لأن إنكاره يقوم على إبطال إثبات الموجود ، إذ الموجـــود ثابـــت وهـــو يحاول إنكاره ، ومن ثم فلا شك في أن في هذا اعترافا بثبوت وجوده ، ولذا فقد هم محاولا إنكاره كموجود ، ونفيه كثابت ، ولم يحاول إثباته كمعدوم ، وعلى هذا النحو يكون المنكرون لوجود الله هم من المثبتين رغم أنفهم وإعلانهم الإنكار .

وقـــد وضـــح القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هذه الحقيقة وأعلنها جلية : فقد بينها الله في آيات كثيرة من القرآن الكريم نقتصر على

بعضها ، قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

ويلاحظ في هذه الآية عدة أمور منها :

* أن الفطرة مضافة في الآية إلي الله فاطرها سبحانه ، وفي هذا من تشريفها وتوكيد تمامها وكمالها ما فيه .
* ثم هي الفطرة الله الناس عليها ....
* أن التعبير في الآية بلفظ ﴿ النَّاسِ ﴾ على الجمع بدلا من لفظ ﴿ الإنسان ﴾ على المفرد أصرح وأوضح في الدلالة على أن الإسلام قد أنزله الله طبق فطرة الإنسان فردا وجنسا قبائل وشعوبا أفرادا وجماعات . فلو كان التعبير ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ لكان هناك محل للتساؤل عن المقصود بالإنسان ، أهو آدم أم نسله [....] أما التعبير في الآية بلفظ الجمع فقد منع هذا التساؤل وأوصد دونه الباب ، إذ قد أفاد أن الناس على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم يجدون تمام تحقيق فطرتهم في دين الله ، دين الإسلام .
* أن الآية الكريمة تجعل الإسلام ليس فقط دين الفطرة ، ولكن نفس الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وهذا أوجز تعبير وأوكده وأشمله بتمام انطباق الإسلام على سنن الله التي خلق عليها

---

(١) سورة الروم : جزء آية (٣٠) .

الإنسان ، سواء تعلقت بالبدن أو النفس وبالعقل أو القلب ، وفي الفرد والأسرة والطائفة ، أو في القبائل والأمم والشعوب .

والرسول (ﷺ) عندما واجه مشركي مكة عباد الأصنام سائلا إياهم من خلق السماوات والأرض ؟ وهنا كان النداء والجواب للفطرة .... الله !!! قال الله تعالى :﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ... ﴾ [1] .

كذلك قد عبرت آيات القرآن الكريم عن لجوء الإنسان في وقت الشدة والاضطرار إلي صوت الفطرة وهو اللجوء إلي الله وحده دون سواه ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ... ﴾ [2] .

وكذلك قول الله : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [3] .

وهذا اللجوء المضطر إلي الله يثبت فطرية الوجود الإلهي ، وهناك الكثير من الآيات التي أكدت أن الوجود الإلهي فطري في النفس البشرية .

---

(١) سورة الزمر : جزء آية (٣٨) .
(٢) سورة يونس . جزء آية (١٢) .
(٣) سورة النمل . آية (٦٢) .

وإذا كـــان القرآن الكريم قد أثبت هذه الحقيقة فإن السنة النبوية قد أثبتـــتها أيـــضا وهذا واضح في أحاديث كثيرة ولاسيما حديث : " ما من مولود إلا ويولد على الفطرة ... " [١] ، وفي الحديث الشريف الذي يرويه الرسول عن رب العزة : " ... وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم... " [٢].

وحـــديث الـــسيدة خديجة (رضي الله عنها) لرسول الله (ﷺ) عندما أخبرها بخبر نزول الملك عليه أول مرة ، وذلك في حديث الوحي حينما قالت له السيدة خديجة (رضي الله عنها) : (كلا والله لا يخزيك الله أبـــدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الدهر).

ففـــي هـــذه العـــبارة التاريخية تظهر لنا بطريقة لا تقبل الجـــدل فكـــــرة (فطـــرية الوجـــود الإلهي) فمن الذي أدرى خديجة بالإله الذي تتحدث عنه ؟ إنها الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

يتـــضح مما سبق عن هذه الحقيقة أنها جلية تنطلق بها بكل فطرة نقية.

فهـــذا الدليل مغروز في النفوس، لدى العقول ولذا قيل عنه " بأن دلـــيل الفطرة يؤثره كثيرا على غيره من الأدلة، ويجعله أولاها، وأولها" [٣].

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحة ، وكتاب (تفسير القرآن) باب قوله تعالى : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ (٨ /٣٧٢ فتح الباري) حديث رقم (٤٧٧٥) .

(٢) الحديث أخرجه مسلم ك. الجنة ونعيمها . باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار م٩ جـ١٧ صـ١٩١ حديث رقم (٢٨٦٥).

(٣) دلائل التوحيد جمال الدين القاسمى صـ٤٤ جمعية النشر والتأليف الأزهرية ط٢

٣- الدليل النقلي :

لقـــد استند السلف إلى عدة أدلة نقلية جعلوا منها دليلا على وجود الله تعالى ومن بينها قول الله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (١).

فهــذه الآية مما يستدل بها على وجود الله، وأنه محدث هذا العالم وخالقــه " (٢). ويلاحــظ هنا أن القران يعرض الاحتمالات الممكنة عقلا وهي :

هل يمكن أن تخلق الأشياء من غير علة ؟

هل أن تكون المخلوقات هي الخالقة ؟

هذان الاحتمالان مرفوضان عقلا ،لان الأشياء لا تخلق من غير علة(سبب) ، كما لا يمكن أن تخلق لنفسها .

ويعتمد هذا البرهان علي أن الموجودات لابد لها من موجد في الحــياة يــتوقف علــي غيــره ، ولابــد في النهاية من سبب يوجد هذه الموجودات ، ولا يتوقف وجوده علي وجود سواه ، لأنه قائم بغير حدود في المكان والزمان وهو الله سبحانه وتعالي .

٣-الدليل الكوني أو " دليل النظر في أحوال العالم " :

وهــذا الدليل يقوم على "النظر في أحوال العالم المشاهد وتأملها؛ فــلا يــوجد شئ في الشاهد يجتمع بنفسه ، ويفترق ، ويتقلب أجزاؤه من حال إلى حال ، وفي ذلك دلالة على أن تدبيره بيد غيره " (٣).

---

(٤) سورة الطور الآية ٣٥.
(٢) التبصير في أمور الدين-للأسفرايني . صـــ٩٢ مطبعة الأنوار ط١ ١٣٥٥ هـــ-١٩٤٠م.
(٣) إمام أهل السنة والجماعة أبو منصور الماتريدى وآراؤه الكلامية د/ على عبد الفتاح صـــ١٢٧ مكتبة وهبه ط١ ١٤٠٥-١٩٨٥.

يقـــول ابـــن القيم[١] : وتأمل حال العالم كله علوية وسفلية بجميع أجـــزائه ، تجــده شاهدا بإثبات الصانع ومليكه ... فوجود الله تعالي أظهر للعقـــول ، والفطـــر السليمة من وجود النهار ، ومن لم يجد ذلك في عقله وفطرته فليتهمها [٢].

إن المـــتأمل في هذا الكون الدارس لما تنتشر في جنباته من مواد وأجـــرام الناظر في طبائع هذه المواد وخصائصها وتحركاتهـــا يـــدرك لا يخالجـــه شـــك فيما يدرك أن هذه المواد و تـــلك الأجـــرام محكـــومة بقوانين مضبوطة بأسس يدلان علي مقتن حكيم .

وإلا فمن الذي ضبطها بأسسها وحكمها بقوانينها ؟!

ولقد وجه القران الكريم الانتظار إلي هذا النظام البديع الذي وجد ويسير به العالم لتخذ من هذا الإبداع دليل علي المبدع .

هـــذا وسنكتفي بهذا القليل من الكثير الذي تنزل القران به واتخذه سبيلا مستقيما لإثبات وجود الله سبحانه وتعالي.

(أ) هـــل فكرت في هذه الكواكب السيارة المخترقة أعماق الجو والتي تلتزم مدارا واحدا لا تعدوه يمنه أو يسرة وفي سرعة رهيبة وبقدر معين لا تبطئ وفيه ولا تتعجل .

قـــارن بيـــنهما وبين حركة المرور الأرضية التي ينظمها رجال الـــشرطة علـــي أرضنا هذه وتخيل أن رجال الشرطة تركوا أماكنهم في تنظـــيم المـــرور وتركوا السيارات للشوارع والشوارع للسيارات ، تخيل ما ينتظر من أحداث من جراء هذه السرعة المجنونة.

---

(١) هو شمس الدين أبو عبد الله ابن الشيخ الإمام شرف الدين أبن بكر بن سعيد الشهير بابن قيم الجوزية ولد عام ٦٩١ هـــ وتوفي عام ٧٥١ (انظر الروح لابن القيم تحقيق د/ كمال الجمل مقدمة المحقق صـــ٢ مكتبة الإيمان، ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامي د/ عوض الله حجازي صـــ٤٠-٤٥ دار الطباعة المحمدية ط٣).

(٢) انظر: مدارج السالكين لابن القيم جـــ١ صـــ٣٢-٣٣ ط١ دار المنار.

ثـم تأمل السماء وانظر هذه الإجرام العلوية الضخمة وتفكر في هـذه الكواكب السيارة ثم سل نفسك من الذي إشرف علي تنظيم مسارها في مدارها ؟

ومن الذي حركها في فلكها ؟ والي متي وأين حركتها ؟

إن القـران الكـريم يلفـت نظرك إلي هذا ليضع يدك في النهاية مكوكـبها وحـركها وضـابط مـسارها فـي جـو السماء فيقول لك :

﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِى لِمُسۡتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١).

مـن الـذي هيمن علي نظامها وأشرف عليها في مدارها بل من الذي امسك بأجرامها الهائلة ودفعها تجري بهذه القوة الفائقة ؟

(ب) مـن الذي خلق الليل والنهار وجعل الأول لباسا واسكنا فهو ظـرف الـراحة والـسكون كما أودع في الثاني الضياء والحركة لكسب القوت .

القرآن الكريم يذكرك بمن يفجر ظلام الليل الدامس بضياء النهار الضاحي لتلتمس من ذلك دليلا علي وجود من جعلهما فيقول :

---

(١) سورة يس : آية (٣٨- ٤٠) .

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا

سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً

لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ .

ولــيس تعاقب الليل والنهار بالأمر الهين الذي لا يلفت النظر ألي القدرة ولا يأبه له العقل فلا يكون مسار تساؤل واستفسار ولا دليل إثبات فقــد أثبت القرآن أن في هذا التعاقب ما يدعو إلي التأمل والدهشة ومــا يكــون أثرا من آثار الله الدالة عليه فقال تعالي: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن

جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ

يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن

رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [1].

(جـــ) وهــذا جمع من الآيات يسوقها القران ليتخذ من أحكامها وبديــع صنعها علي وجود الله سبحانه وتعالي فيقول : ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ

---

(١) سورة القصص : آية ٧٢ – ٧٣ .

ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ
يَسۡمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ
بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ
وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ
لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ
بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ
فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ
شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (١)

هذه هي الأدلة التي ساقها السلف الصالح لإثبات وجود الله تعالى، وهي لا تخرج عن الكتاب والسنة، وقد فعلوا ذلك لقربها من العقول وخلوها من التعقيد.

---

(١) سورة النحل : آية (٦٥- ٦٩) .

ثانيا : أدلة وجود الله تعالى عن المعتزلة :

لقد نالت هذه المسألة جانبا كبيرا من جانب المعتزلة وكان اعتمادهم فيها على الدليل العقلي . يقول : القاضي عبد الجبار(١) الدلالة أربعة حجة العقل ، والكتاب ، والسنة والإجماع ومعرفة الله تعالى لا تنال إلا بحجة العقل؛ والسبب في ذلك أن ما عداها فرع على معرفة الله تعالى بتوحيده وعدله، فلو استدللنا بشيء منها على الله وحده ، كنا مستدلين بفرع الشيء على أصله وذلك لا يجوز(٢).

وفيما يلي عرض موجز لأدلة وجود الله تعالى عند المعتزلة :

١- دليل الحدوث : -

لقد أقامت المعتزلة هذا الدليل على أساس تقسيم العالم إلى جواهر وأعراض (٣) وإثبات الحدوث لهما لإثبات المحدث.وبيان ذلك أن الأعراض عند المعتزلة على ضربين مدرك وغير مدرك فالمدركات سبعة أنواع الألوان ، والطعوم والروائح والحرارة والبرودة والآلام والأصوات ... وغير المدركة كالشهوة مثلا وهذه المدركات بنوعيها يجوز العدم والبطلان، والقديم لا يجوز عليه شئ من هذا، فلابد لها من محدث فاعل ومخالف لنا وهو الله تعالى(٤).

---

(١) هو أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمزانى الأسدى أبادى قاضى أصوله ويلقبونه بقاضى القضاة مات بالرى له مصنفات منها الأمالى، تنزيه القرآن عن المطاعن (انظر الأعلام . للزركلى جـ٢ صـ٤٧٦ المطبعة العربية بمصر ١٣٤٧هـ-١٩٢٨م).

(٢) انظر : شرح الأصول الخمسة. للقاضى عبد الجبار-تعليق أحمد بن الحسين-تحقيق د/عبد الكريم العثمان صـ٨٨ نشر مكتبة وهبه ط١ ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م.

(٣) الجواهر: هو القائم بالذات، وقيل هو القابل بالذات والقابل للمتضادات، أما العرض فهو ممكن موجود قائم بمتحيز وهو الجوهر (انظر :مقالات الإسلاميين للأشعرى بتحقيق محمد محى الدين جـ٢ صـ١٨ المكتبة العصرية ١٤١١هـ-١٩٩٠،كتاب التوحيد المحاضرات التي ألقيت في علم التوحيد أ / محمود أبو دقيقة . صـ٢٤ مطبعة ومجلة الإرشاد١٣٥٤هـ -١٩٣٦).

(٤) انظر شرح الأصول الخمسة صـ ٩١-٩٢.

هذا عن حدوث الأعراض. أما عن حدوث الأجسام فالطريق إلى معرفة حدوثها ثلاثة وجوه :

أحدها: أن نستدل بالأعراض على الله تعالى، ونعرفه بتوحيده وعدله، ونعرف صفة السمع ثم نستدل بالسمع على حدوث الأجسام.

الثاني : أن نستدل بالأعراض على الله تعالى ، ونعلم قدمه من خلال إثبات حدوث الأجسام حتى لا يوجب ذلك المماثلة.

الثالث : وهو الدلالة المعتمدة لدى المعتزلة وهي أن الأجسام لم تنفك عن الحوادث ، ولم تتقدمها وما لم يخل من المحدث بتقدمه يجب أن يكون محدثا مثله[1].

وإذا ثبت حدوث الأعراض والجواهر على هذا النحو فلابد لها من محدث يحدثها، إذ لا يعقل أن تكون قد أحدثت نفسها بنفسها وذلك باطل لم يترتب عليه من تقدم الشيء على نفسه ، كما يترتب عليه " أن يصح من الواحد أن يخلق لنفسه ما شاء من المال والبنين والمعلوم خلافه "[2].

لأن هذا غير متحقق في دنيا الواقع فليس هناك محدث لهذه المحدثات سوى الله تعالى .

فأول ما يحصل من العلم بالله تعالى جملة هو العلم بأن هذه الحوادث مفتقرة إلى محدث ما إذ لابد عند العلم بذلك من أن يكون له معلوم وليس معلومه سوى الله تعالى [3].

٣- قياس الغائب على الشاهد :

من بين الأدلة التي ساقتها المعتزلة استدلالا على وجود الله تعالى

---

(١) انظر : شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار صـ٩٥.
(٢) انظر: المصدر السابق صـ١١٩.
(٣) انظر: المحيط بالتكاليف. للقاضي عبد الجبار صـ ٧٥ الدار المصرية للتأليف والنشر.

هـذا الدليل فأصله الشاهد، وفرعه الغائب وعليه الحدوث، وحكمه التعدي مـن الأصـل إلى الفرع هي الحاجة إلى المحدث.... فتصرفاتنا المحدثة محتاجة إلينا بدليل أنها تحدث بحسب دواعينا وتنتهي بحسب كراهيتنا [١].

وإذا كان الأمر كذلك في أفعالنا، فكذلك في الأعراض والأجسام؛ لاحتياجها إلى محدث ولا يجوز أن يكون إلا خالقنا وهو الله تعالى .

ثالثا : أدلة وجود الله عند الأشاعرة :

(١) دليل الحدوث :

لقـد سـلك الإمـام الأشعرى[٢] في إثباته وجود الله تعالى طريقا واضـحا يتميز بالبساطة، والسهولة، والبعد عن الأقيسة العقلية المركبة ، والمعقـدة ممـا يجعلـه قـريبا مـن الفهم حيث يتساوى أمامه العوام ، والخواص[٣].

– يقول الأشعرى : إن سأل سائل ما الدليل على أن للخلق صانعا ؟ قـيل له : ذلك الإنسان الذي تتغير أحواله وتتعدد حالاته، فقد كان نطفة ثم علقة ثم لحما ودما وعظما.....ثم رأيناه طفلا فشابا فشيخا،ويصبح عالما وقد كان جاهلاً. إن هذه الأمور لهي من أعظم ما يستدل بها على وجود الله [٤].

والملاحـظ أن الأشـعرى قـد ذكر الحدوث في طريق هادف له

---

(١) انظر: الكامل في الاستقصاء فيما بلغنا من كلام القدماء –للشيخ مختار بن محمود العجالى المعتزلى صـ١٥٦ تحقيق د/السيد محمد الشاهد–مطابع الأهرام التجارية ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

(٢) الأشعرى هو: على بن إسماعيل بن إسحاق أبو الحسن من نسل الصحابى أبى موسى الأشعرى ولد عام ٢٦٠هـ وتوفي عام ٣٢٤هـ له مؤلفات منها.مقالات الإسلاميين، الإبانة عن أصول الديانة وغيرها(انظر : الأعلام . للزركلى المجلد ٤ صـ ٢٦٣).

(٣) انظر: قضية الألوهية في الفكر الإسلامى د/محمد العدل الباز صـ ١١٢.

(٤) انظر: اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع. الأشعرى صـ١٨–٢٠ جمعه وعلق عليه د/حموده غرابة المكتبة الأزهرية للتراث.

غايـــة، ممـــا يدل على أنه يأخذ في الاعتبار دليل العناية إلى جانب دليل الحدوث "كما يلاحظ عليه في هذا الدليل عدم استخدامه للجوهر والعرض، وإن كـــان كلامه قد اتخذ أساسا للقول بهما، فكان استدلاله قرآنيا كما كان استدلالا كونيا " (١).

– فـــإذا تركنا الأشعرى وجدنا من بعده الباقلانى (٢) يستدل على وجود الله من خلال دليل الحدوث، وقد سلك في ذلك مسلكين :–

أما الأول : فعرض له على نحو ما عرض له الأشعرى (٣).

أما الثانـي : فقد رجع فيه إلى منهجه الكلامي وجعل من حدوث الجواهر والأعراض دليلا على وجود محدث لها(٤).

– أمـــا الإمـــام الجوينى (٥) فقد تابع الباقلانى وساق نفس الدليل لإثبات حدوث العالم، وإن كان بطريقة أكثر دقة وانتظاما. فالعالم بما فيه حادث وهذا الحدوث قام على أصول منها إثبات حدوث الجواهر، وإثبات تعـــرى الجواهر عن الأعراض، وإثبات استحالة حوادث لا أول لها فإذا ثبتت هذه الأصول ثبت وجود محدث لها.

---

(١) انظر: جهود الشيخ/ حسن الجسر الكلامية في الإلهيات، رسالة ماجستير إعداد الباحث/ فتحى عبد الرحمن عطية صـــ ١٠٣-١٠٤ كلية أصول الدين بطنطا. ١٤٢١ هـــ /٢٠٠٠م.

(٢) الباقلانى هو: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر أبو بكر الباقلانى توفي عام ٣٠٤هـــ وهو من أكثر الناس كلاما وتصنيفا في علم الكلام (انظر البداية والنهاية لابن كثير م٦ جـــ١١ صـــ٣٥. وانظر الباقلانى وآراؤه الكلامية د/محمد رمضان صـــ ٣١١ مطبعة الأمة بغداد ١٩٨٦).

(٣) انظر: الإنصاف للباقلانى صـــ ٣٠ مؤسسة الجانحى للطباعة.

(٤) انظر: الباقلانى وآراؤه الكلامية د/محمد رمضان صـــ٣٦١، وراجع تفصيل هذا الدليل في كتاب التمهيد للباقلانى صـــ٤٤ تعليق محمود محمد الخضيرى، د/محمد عبد الهادى دار الفكر ١٣٦٦ ـ١٩٤٧.

(٥) هو عبد الملك بن الشيخ أبى محمد عبد الله بن يوسف الجوينى الملقب بإمام الحرمين ولد عام ٤١٩هـــ وتوفي في ٤٧٨هـــ وكان من كبار الأشاعرة (انظر : الإرشاد للجوينى مقدمة المحقق صـــ ٣-٤ دار الكتب العلمية بيروت).

– أما الإمام الغزالى[١] فقد استدل بنفس الدليل وساقه على النحو التالي "العالم حادث، وكل حادث له محدث إذا العالم له محدث " [٢].

–أمـــا الـــرازى[٣] فقـــد اســـتدل بـــنفس الدليل مضيفا إليه دليل الإمكان[٤].

–هـــذا هو الطريق الأول الذي سلكه الأشاعرة لإثبات وجود الله تعالى.

(٢) دليل الإمكان :

يقـــصد المـــتكلمون بالإمكـــان أن العالم بجميع ما فيه يحتاج في وجوده إلى من يوجده لكونه ممكنا من ثم جعل المتكلمون من إمكان العالم دليلا على وجود الله.

وقـــد علمـــت أن العالم إما جواهر أو أعراض، وقد يستدل على إثـــبات الـــصانع بكل واحد منها إما بإمكانه أو بحدوثه بناء على أن علة الحاجة إما الحدوث وحده ، أو الإمكان مع الحدوث شرطا ، أو شطرا [٥] فهذه وجوه أربعة يستدل بها على وجود الله :

---

(١) هو الإمام محمد بن محمد بن أحمد الغزالى الطوسى ولد عام ٤٥٠ هـــ وتوفي عام ٥٥٠ وكان من أكابر علماء عصره له مؤلفات منها إحياء علوم الدين، محك النظر، وغيرها (انظر الأعلام المجلد السابع صـــ ٢٢ ،فلسفة الأخلاق في الإسلام د/محمد يوسف موسى صـــ١٢٥-١٢٩ مؤسسة الخانجى بالقاهرة ط٢ ١٩٦٣م، الحقيقة عند الغزالى د/سليمان دنيا صـــ ١٥-١٨ دار المعارف ط٥).

(٢) انظر : الاقتصاد في الاعتقاد للغزالى شرح وتعليق د/ محمود عثمان جـــ١ صـــ ٦٢ ط٢ ١٤١٤هـــ/١٩٩٣م.

(٣) هو شيخ الإسلام أبو عبده الله محمد بن عمر بن الحسينى بن الحسن القرشى الرازى المولد الملقب بالفخر ولد عام ٥٤٣هـــ وقيل ٥٤٤هـــ وتوفي عام ٦٥٥ هـــ (انظر موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب جـــ١ صـــ٤٧٢-٤٧٣، اعتقادات فرق المسلمين للرازى بتحقيق طه عبد الرؤوف صـــ٢-٧ مقدمة المحقق).

(٤) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازى تحقيق د/أحمد السقا جـــ١ صـــ١٩ وما بعدها. مكتبة الكليات الأزهرية.

(٥) انظر: شرح المواقف للإيجى جـــ١ صـــ٢ (بدون).

أ- الاستدلال بحدوث الجواهر .

ب- الاستدلال بإمكان الجواهر.

جـ- الاستدلال بحدوث الأعراض .

ء- الاستدلال بإمكان الأعراض .

هذه هي أدلة المعتزلة والأشاعرة والملاحظ ما يلي :

أن الأشـاعرة قـد تابعوا المعتزلة في أن إثبات وجود الله يستدل عليه بالعقل ، كما يستدل عليه بإثبات حدوث العالم، وحدوث العالم يستند إلى إثبات وجود الجواهر والأعراض وحدوثهما، وتقرير أن ما يخلو عن الحوادث فهو حادث.

رابعا : وجود الله عند الماتريدية :

لقد ساقت الماتريدية عدة أدلة لإثبات وجود الله تعالى ومن بينها :

١- دليل الحدوث :

لقـد تحـدث الشيخ أبو منصور عن حدوث العالم كدليل لإثبات وجـود الله تعالى وذلك من خلال انقسامه إلى : حدوث الأعيان وحدوث الأعراض .

- أما حدوث الأعيان : فـيمكن الوقوف عليه من خلال السبل الموصـلة إلى العلم وهي الحواس ، والأخبار ، والنظر . يقول الشيخ : " ثـم السبيل التي يوصل بها إلى العلم بحقائق الأشياء العيان ، والأخبار ، والنظر " [١].

- أما حدوث الأعراض : فـذلك واضح من خلال ما يشاهد في العـالم من حركة وسكون واجتماع وتفرق مما يؤكد حدوثها، فالأعراض

---

(١) كتاب التوحيد. لأبى منصور الماتريدى تحقيق د/ فتح الله خليف صـ٧ دار الجامعات المصرية.

حادثــة وبالتالي في حاجة لمن يحدثها " ثم الدليل على أن للعالم محدثا أنه ثـبت حدوثــه بمــا بينا ، وبما لا يوجد شئ منه في الشاهد يجتمع بنفسه ويفرق ثبت أن ذلك بغيره ، وهو الله تعالى " (١).

وهــذا البرهان مأخوذ من مسلك الخليل إبراهيم عليه السلام وهو بعينه ما استدل به الإيجى لإثبات حدوث العالم، مما يؤكد أن الاتجاه واحد والغاية التي يسعون إليها واحدة فالجميع يستدل بحدوث العالم على وجود الله تعالى.

٣- دليل الإمكان :

من بين الأدلة التي اعتمدت عليها الماتريدية " دليل الإمكان " فقد جعلــت من وجود العالم وما فيه أمرا ممكنا لتركبه وانقسامه، وطالما أن الأمــر كــذلك فلابــد مــن وجود مؤثر يرجح وجوده على عدم وجوده لاســتحالة وجود الممكنات من نفسها وهذا الموجد لابد وأن يكون واجب الوجود بنفسه (٢)

هذه هي الأدلة التي ساقها الماتردية للاستدلال على وجود الله إلى جانب استدلالها بدليل الفطرة حيث إنها قاسم مشترك بين جميع الناس إلى جانب الأدلة النقلية.

الاستدلال على وجود الله عند الصوفية :

يــذهب المتــصوفة إلى أن المعرفة بالله وبغيره ليس طريقها هو الحــس أو العقــل ، ولكن لها طريق آخر هو البصيرة ، وأن السبيل إلى الوصــول إلــى المعارف يكون بتزكية النفس وتطهيرها من الشهوات ، وإقبالها على المطلوب ، والتقرب إلى الله بالطاعات .

---

(١) انظر: نفس المصدر صـ ١٦-١٧.

(٢) انظر : إشارات المرام للإمام البياضى. تحقيق يوسف عبد الرازق صــ ٨٦ مطبعة عيسى البابى الحلبى ط١ ١٣٦٨هـ.

يقول الدكتور / عبد الحليم محمود :

(إن تجـــارب الصالحين ، منذ عصور متطاولة ، دلت على أن تزكية النفس ، وتطهيرها والالتجاء إلى الله والتقرب إليه ، كل ذلك يسمو بالإنسان إلى عالم من الروحانية ، تستشرف فيه النفس إلى الملأ الأعلى ، فتفـــيض علـــيها منه نفحات ، والهامات ، ومعرفة لا تتأتى لذوى النفوس المادية ، الذين شغلوا بالدنيا عن الدين ، وبالمادة عن الله) [١]

ويتحمس الأمام الغزالي لهذا الطريق فيستدل على صحته بالأدلة العقلـــية والنقلـــية فيـــرى إن الدليل القاطع الذي لا يقدر أحد على جحده أمران:

أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب ، وإذا جاز ذلك في النوم ، فلا يستحيل أيضا في اليقظة ، فلم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسات ...

والثاني : إخبار رسول الله (ﷺ) عن الغيب وأمور في المستقبل ، وإذا جـــاز للنبي (ﷺ) جاز لغيره ، إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور ، وشغل بإصلاح الخلق ، فلا يستحيل أن يكون في الوجود شـــخص مكاشف بالحقائق ولا يشغل بإصلاح الخلق وهذا لا يسمى نبيا ، بل يسمى وليا ، فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة ، لزمه ـــ لا محالة ـــ أن يقر بالبصيرة

أو بتعبير آخر أن يقر بباب للقلب ينفتح على عالم الملكوت ، هو باب الإلهام والنفث في الوعي والوحي [٢].

أما شواهد الشرع على هذا الطريق ـــ فيما يرى بغزالي ـــ فمنها:

قـــوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ... ﴾ [٣]

---

١ - قضية التصوف (المنقذ من الضلال مع أبحاث في التصرف ودراسات عن الأمام الغزالي للدكتور / عبد الحليم محمود صـــ ٢٧٤.

٢ - الإحياء للغزالي جـــ ٣ صـــ ٢٥ ، ٢٦ ، المصدر السابق صـــ ٣٤٤ ، ٣٣٥ .

٣ - سورة العنكبوت الآية رقم ٦٩ .

وقوله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ... ﴾ [1] قيل نورا يفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من الشبهات [2].

فالطريق إلى معرفة الله عند الصوفية – كما يصور الإمام الغزالي ليس بترتيب أدلة نظرية ، وإنما يأتي عن طريق الكشف والإلهام بعد (تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنة الهمة على الله تعالى [3] .

خامسا : أدلة وجود الله عند الفلاسفة :

لقد كان من أثر الإيمان بالغيب في قضية الألوهية على الفكر الإسلامي أن تعرض لها الفلاسفة بالبحث والدراسة وساقوا لذلك عدة براهين مختلفة ومتعددة لإثبات هذه القضية ونحن لا نحصي هنا جميع البراهين التي استدل بها الفلاسفة على وجود الله تعالى ، فإنها كثيرة يشابه بعضها بعضا في القواعد ، وإن اختلفت قليلا في التفصيلات والفروع، ولكننا نكتفي منها بأشيعها وأجمعها وأقربها إلى التواتر والقبول[4].

وهذه الأدلة هي :

١-دليل الحدوث .
٢-دليل الإمكان والوجوب .
٣-دليل العناية .
٤- دليل الاختراع .
٥ -دليل الحركة .

---

١ – سورة الأنفال الآية ٢٩ .
٢ – الإحياء جـ ٣ صـ ٢٣ ، ٢٤ نشر دار المعرف – بيروت
(٣) الإحياء جـ٣ صـ ١٩
(٤) انظر: الله كتاب في نشأة العقيدة الإلهية للعقاد صـ١٤٦ -١٤٧ مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

أولاً: دليل الحدوث :

وهذا الدليل انفرد به الكندي[١] عن غيره من الفلاسفة وإن شارك المتكلمين فيه، وهو يعتمد على حدوث العالم يقول الكندي:وليس ممكنا أن يكون جرم بلا مدة، فأنية الجرم ليست لا نهاية لها، وأنية الجرم متناهية، فيمتنع أن يكون جرما لم يزل. فالجرم إذا محدث اضطرارا والمحدث محدث المحدث. والمحدث من المضاف فلكل محدث اضطرار عن ليس... وهو الفاعل الأول وهو ليس بكثير بل واحد [٢].

ثانيا : دليل الإمكان والوجوب :

وهذا الدليل يعد أكثر الأدلة شيوعا وانتشارا لدى الفلاسفة، وخلاصته أن العالم كله ممكن وكل ممكن يحتاج إلى مرجح هذا المرجح لابد وأن يكون واجب الوجود، وقد أشار إليه ابن سينا[٣] في مواضع من كتبه منها "لاشك أن هنا وجودا وكل وجود إما واجب وإما ممكن، فإن كان واجبا قد صح وجود الواجب وهو المطلوب، وإن كان ممكنا فإنا نوضح أن الممكن ينتهي وجوده إلى واجب الوجود " [٤].

وربما يقال : بأن هذا الدليل وجد عند المتكلمين،ووجد عند الفلاسفة فما الفرق بينهما؟

---

(١) هو أبو يوسف بن اسحاق الصباح ولد أواخر القرن الثانى الهجرى وتوفي عام ٢٥١ هـ (انظر: التفكير الفلسفي في الإسلام د/عبد الحليم محمود صـ٢٠٧ - ٢١٠ دار المعارف ط٢)

(٢) انظر: رسائل الكندي الفلسفية . رسالة في وحدانية الله وتناهي جرم العالم صـ ٢٠٦-٢٠٧ تحقيق د/محمد عبد الهادى أبو ريده دار الفكر ١٣٦٩ هـ- ١٩٥٠ م

(٣) هو الشيخ أبو على الحسن ابن عبد الله بن الحسن بن سينا ولد عام ٣٧٠هـ وتوفي في ٣٤٨هـ (عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة صـ ٤٠ - ٤٥ وانظر :في النفس والعقل د/محمود قاسم صـ ٧٦ -٧٧ مكتبة الأنجلو الطبعة الرابعة ١٩٦٩م).

(٤) النجاة لابن سينا تقديم وتعليق د/ ماجد فخري صـ ٢٧١.دار الآفاق. بيروت . ط١ ١٤٠٥ -١٩٨٥م.

والجــواب : أن إمكان المتكلمين قد قام على الإمكان مع الحدوث شــطرا أو شــرطا فهمــا مــتلازمان . بمعنى أن الحدوث مترتب على الإمكـــان، أمـــا إمكان الفلاسفة فقائم على علة الاحتياج حيث إن الموجود ينقسم إلى واجب وممكن . وغير خفي أن الممكن في حاجة إلى غيره .

ثالثا : دليل العناية :

وهــو دلــيل شائع ومنتشر بين المتكلمين والفلاسفة فالنظام الذي يحيط بالعالم دليل على وجود صانع له.

بــل إن فــي إتقان هذا العالم وتدبيره لهو من أوضح الأدلة على وجود الله تعالى وقد أشار الكندي [١] إلى هذا المعنى في رسائله كما أشار إلــيه ابــن سينا [٢] في كتابه الإشارات والتنبيهات من خلال دعوته إلى الــتأمل في الأنفس والآفاق مستشهدا بقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ... ﴾ [٣].

أمــا ابن طفيل [٤] فعرض له من خلال تصفح حي للموجودات، وجعــل من وجودها على هذا النحو من الإتقان والإبداع دليلا على وجود خالق لها لا يرى بالعين[٥].

---

(١) انظر: رسائل الكندي الفلسفية رسالة الإبانة عن العلة الفاعلة القريبة للكون والفساد صـــ ٢١٤ ـ٢١٥.

(٢) انظر الإشارات والتنبيهات لابن سينا. تحقيق د/سليمان دنيا صـــ ٥٤-٥٥ القسم الثالث دار المعارف القاهرة ط٣.

(٣) سورة فصلت الآية ٥٣.

(٤) ابن طفيل هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل لا يعرف تاريخ مولده فكل ما عرف عنه أنه ولد في مطلع القرن السادس عشر الهجري وتوفي عام ٥٨١هـــ (انظر فلسفة ابن طفيل د/ عبد الحليم محمود صـــ١١. دار الكتاب اللبناني ط٣ ١٤١٣هـــ /١٩٩٤م، الميتافيزيقا في فلسفة ابن طفيل د/ عاطف العراقي صـــ٣٦ دار المعارف ط٤ ١٩٩٥م).

(٥) انظر: فلسفة ابن طفيل وقصة حي بن يقظان د/ عبد الحليم محمود صـــ١٢٣

وكـذا أشار إليه ابن رشد [1] في كتابه الكشف عن مناهج الأدلة علي النحو التالي :

إن الله سبحانه وتعالى قد اعتنى بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله . وأن هذا الخلق من قبل الله متوافق مع وجود الإنسان ، ويؤدى إلى صلاح معاشه على ظهر الأرض .

وإذا كـان الأمر كذلك ــ أي إذا كانت الموجودات موافقة لوجود الإنـسان ــ فـإن هـذه الموافقة هي ضرورة من قبل فاعل قاصد لها ، إذ لا يمكن أن تأتى مصادفة أو من قبل نفسها .

ويرى ابن رشد أن هذا الدليل ينبنى على أصلين :

(**أحدهما** : أن جمـيع الموجـودات التـي هاهنا موافقة لوجود الإنسان .

والثانـي : أن هذه الموافقة هي ضرورة من قبل فاعل يقصد لها مريد ، إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق .) [2]

ويشرح ابن رشد الأصل الأول قائلا :

(وأمـا كونها موافقة لوجود الإنسان فيحصل اليقين بذلك باعتبار موافقة الليل والنهار ، والشمس والقمر ، لوجود الإنسان ، وكذلك موافقة الفـصول الأربعـة ، والمكان الذي هو فيه أيضا وهو الأرض ، وكذلك تظهـر موافقة كثير من الحيوانات له، النبات والجماد ، وجزئيات كثيرة مثل الأمطار ، والأنهار ، والبحار . وبالجملة الأرض والنار والهواء) .

وكذلك أيضا تظهر العناية في أعضاء البدن ، وأعضاء الحيوان ، أعني كونها موافقة لوجوده وحياته ، وبالجملة فمعرفة ذلك ــ أعنى منافع الموجـودات ــ داخلـه في هذا الجنس ــ ولذلك وجب على من أراد أن

---

(١) ابن رشد هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ولد عام ٥٢٠ هـ وتوفي عام ٥٩٥ تاركا وراءه تراثا عظيما (انظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء-لابن أبى أصيبعة صـ ٤٨٩. دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٦ ، بين الدين والفلسفة د/ محمد يوسف موسى صـ٢٦ ط دار المعارف).

(١) مناهج الأدلة صـ ٦٠ ، ٦١

يعرف الله تعالى المعرفة التامة أن يفحص عن منافع الموجودات .) [1]

ويشرح ابن رشد الأصل الثاني فيقول :

(إذا نظـر الإنسـان إلى ما فيه ـ العالم ـ من الشمس والقمر وسـائر الكواكب التي هي سبب الأزمنة الأربعة ، وسبب الليل والنهار ، وسـبب الأمطار والمياه والرياح ، وسبب عمارة أجزاء الأرض ووجود الـناس وسـائر الكائنات من الحيوانات والنباتات وكون الأرض موافقة لـسكن الـناس وسائر الحيوانات البرية . وكذلك الماء موافق للحيوانات الماشية ، والهواء للحيوانات الطائرة ، وأنه لو اختل شيء من هذه الخلقة والبنـية لاخـتل وجود المخلوقات التي ها هنا ، علم على القطع أنه ليس يمكـن أن تكـون هـذه المـوافقة التـي في جميع أجزاء العالم للإنسان والحيوان والنبات بالاتفاق ، بل ذلك من قاصد قصده ، ومريد أراده وهو الله عز وجل) [2]

ولمـا كان هذا النوع من الاستدلال قطعي ، وبسيط ـ فيما يرى ابن رشد ـ لذلك ذكره الله في كتابه العزيز .

ويذكـر ابـن رشد الآيات الدالة على العناية ووجود دلالتها على وجود الله فيقول:

(وأمـا هـذا النوع من الاستدلال هو النوع الموجود في الكتاب العزيـز فذلك يظهر من غير آية من الآيات التي يذكر فيها بدء الخلق ، فمنها قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ ﴾ إلـى قوله ﴿ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦ ﴾ [3] .

فإن هذه الآية إذا تؤملت وجد فيها التنبيه على موافقة أجزاء العالم

---

(١) نفس المصدر صـ ٦١
(٢) مناهج الأدلة صـ ١٠١ ، ١٠٢
(٣) سورة النبأ الآية ٦ - ١٦

لوجـــود الإنسان وذلك أنه ابتدأ فنبه على أمر معروف بنفسه لنا ــ معشر الــناس ــ وهـــو أن الأرض خلقت بصفة يتأتى لنا المقام عليها وأنها لو كانت متحركة أو بشكل آخر غير الوضع الذي هي فيه ، أو بقدر غير هذا القدر ، لما أمكن أن نوجد فيها ، ولا أن نخلق عليها ، وهذا كله محصور فـــي قـــوله تعالى " ألم نجعل الأرض مهادا " فما أعجب هذا الإعجاز ، وأفضل السعادة ، وأغرب هذا الجمع ، وذلك أنه قد جمع في لفظ " مهادا " جميع ما في الأرض عن موافقتها لكون الإنسان عليها) [1]

ويـــستنبط ابن رشد وجها آخر من الآية ، وهو سكون الأرض ، يأخذه من قوله تعالى : ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ فيقول :

(لـــو قـــدرت الأرض أصـــغر مما هي كأن كانت دون الجبال لتزعـــزعت من حركات باقي الاسطقات أعنى الماء والهواء ، ولتزلزلت وخرجت من موضعها ، ولو كان ذلك كذلك لهلك الحيوان ضرورة .

فـــإذا مـــوافقة ســـكونها لما هي عليها من الموجودات لم تعرض بالاتفـــاق ، وإنما عرضت عن قصد قاصد ، وإرادة مريد ، فهي ضرورة مصنوعة لذلك القاصد سبحانه وموجودة له على الصفة التي قدرها لوجود ما عليها من الموجودات) [2]

ووجـــود اللـــيل والـــنهار مظهرا آخر من مظاهر العناية الإلهية يستنبطه ابن رشد من قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝ ﴾ [3]

يقول ابن رشد :

(يـــريد الله ســـبحانه أن الليل جعله كالسترة واللباس للموجودات

---

(١) مناهج الأدلة صــ ١٠٢ ، ١٠٣

(٢) مناهج الأدلة صــ ١٠٣

(٣) سورة النبأ الآية رقم ١٠ ، ١١

التي ها هنا من حرارة الشمس ، وذلك أنه لولا غيبة الشمس بالليل لهلكت الموجودات التي جعل الله حياتها بالشمس ... فلما كان اللباس قد يقي من الحر مع أنه سترة ، وكان الليل يوجد فيه هذان المعنيان سماه الله لباسا ، وهذا من أبدع أنواع الاستعارة .

وفي الليل أيضا منفعة أخرى للحيوان وهو أن نومه يكون فيه مستغرقا لمكان ذهاب الضوء الذي يحرك الحواس إلى ظاهر البدن الذي هو اليقظة ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ ﴾ [1] أي مستغرقا من قبل ظلمة الليل) [2]

وآية أخرى يذكرها ابن رشد للدلالة على عناية الله بالإنسان وخلق الموجودات العلوية موافقة لوجوده على ظهر الأرض وهي قوله تعالى :

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾ [3]

فيقول :

فعبر — أي الله — بلفظ البنيان عن معنى الاختراع لها ، وعن معنى الاتفاق الموجود ، والنظام والترتيب . وعبر بمعنى الشدة عما جعل فيها من القوة على الحركة التي لا تفتر عنها ولا يلحقها من قبلها كلال ، ولا يخاف أن تخر السقوف والمباني العالية وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [4]

(وهذا كله تنبيه منه على موافقتها في أعدادها وأشكالها وأوضاعها وحركاتها لوجود ما على الأرض وما حولها فضلا عن أن تقف كلها) [5]

---

(١) سورة النبأ الآية رقم ٩
(٢) مناهج الأدلة صـ ١٠٣ ، ١٠٤
(٣) سورة النبأ الآية ١٣
(٤) سورة الأنبياء الآية ٣٢
(٥) مناهج الأدلة صـ ١٠٤

(وفي قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾ تنبيه على منفعة الشمس الخاصة ، وموافقتها لوجود ما على الأرض . وإنما سمي الله الشمس سراجا لأن الأصل هو الظلمة ، والضوء طارئ على ظلمة الليل ، ولولا السراج ما انتفع الإنسان بحاسة بصره بالليل ، وكذلك لولا الشمس ما انتفع الحيوان بحاسة بصره أصلا وإنما نبه الله على هذه المنفعة للشمس فقط دون سائر منافعها ، لأنها أشرف منافعها وأظهرها.) (١)

(ثم نبه الله تعالى على العناية المذكورة في نزول المطر ، وأنه إنما ينزل لمكان النبات والحيوان ، وأن نزول المطر بقدر محدود ، وفي أوقات محدودة لإنبات الزرع ليس يمكن أن يعرض عن الاتفاق ، بل بين سبب العناية بما ها هنا فقال تعال : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ (٢)

والآيات التي في القرآن في التنبيه على هذا المعنى كثيرة مثل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ﴾ (٣)

---

(١) مناهج الأدلة صـ ١٠٤ بتصرف
(٢) سورة النبأ الآية ١٦
(٣) سورة نوح الآية ١٥ ، ١٦ ، ١٧

ومثل قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ... ﴾ (١)

ولو ذهبنا لنعدد هذه الآيات وتفصيل ما نبهت عليه من العناية التي تدل على الصانع لما وسع ذلك مجلدات كثيرة (٢)

هذا هو دليل العناية الإلهية كما ذكره الفلاسفة وعرض له ابن رشد في كتابه الشهير الكشف عن مناهج الأدلة ..

رابعا : دليل الاختراع :

(يقوم هذا الدليل عند ابن رشد على فكرة أن كل شيء من السماوات والأرض والحيوان والنبات مخترع ، وذلك بدليل المشاهدة ، وبدليل حركات السماوات التي تؤذن بأنها مسخرة لنا ، وكل ما كان كذلك فهو مخترع حتما ، وكل مخترع فله مخترع ضرورة ، فيصبح من هذين الأصلين أن العالم مخترعا) (٣)

وبادئ ذي بدء فإن هذا الدليل – فيما يرى ابن رشد – يتفق مع مقصد الشرع في هذا المجال .

إذ (أن الذي قصده الشرع من معرفة العالم ، هو أنه مصنوع لله تبارك وتعالى ومخترع له ، وأنه لم يوجد عن الاتفاق ومن نفسه) (٤)

ويرى ابن رشد (أن دلالة الاختراع يدخل فيها وجود الحيوان كله ، ووجود النبات ، ووجود السماوات .) (٥)

وينبني هذا الدليل عند ابن رشد على أصلين :

(**أحدهما** : أن هذه الموجودات مخترعة)

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢
(٢) مناهج الأدلة صـ ١٠٤ ، ١٠٥
(٣) بين الدين والفلسفة في رأى ابن رشد وفلاسفة العصر الوسيط د / محمد يوسف موسى صـ ١٥٢
(٤) مناهج الأدلة صـ ١٠٠ من كتاب (فلسفة ابن رشد)
(٥) نفس المصدر صـ ٦١

(وأما الأصل الثاني : فهو أن كل مخترع فله مخترع) [1]

وهـذان الأصلان ـ فيما يرى ابن رشد ـ يوجدان بالقوة في جميع فطر الناس [2].

والأصل الأول معروفا بنفسه في الحيوان والنبات كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾ [3]

فإننا نرى أجساما جمادية ثم تحدث فيها الحياة ، فنعلم قطعا أن ها هنا موجدا للحياة ومنعما بها وهو الله تبارك وتعالى . وأما السماوات فنعلم من قبل حركاتها التي لا تفتر أنها مأمورة بالعناية بما ها هنا ومسخرة لنا ، والمسخر المأمور مخترع من قبل غيره ضرورة [4].

(فباجتماع الأصل الأول مع الثاني يتسنى لنا أن نحكم بأن الموجود فاعلا مخترعا له) [5]

ولهـذا فان ابن رشد يقرر ضرورة معرفة الكائنات حق المعرفة حتى يمكن معرفة الله حق المعرفة ، فبقدر المعرفة بالمخلوق تكون المعرفة بالخالق .

فيقول :

(ولـذلك كان واجبا على من أراد معرفة الله حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات ، لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة الاختراع ، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى :

---

(١) نفس المصدر صـ ٦١
(٢) نفس المصدر صـ ٦١
(٣) نفس المصدر صـ ٦١
(٤) مناهج الأدلة صـ ٦١
(٥) مناهج الأدلة صـ ٦٢ بتصريف

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ... ﴾ (1)

ويذكر ابن رشد الآيات القرآنية التي تتضمن دلالة الاختراع مثل قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ ﴾ (2)

ومثل قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ ﴾ (3)

ومثل قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ... ﴾ (4)

---

(1) الآية ١٨٥ من سورة الأعراف ، مناهج الأدلة صـ ٦٢
(٢) سورة الطارق الآية ٦
(٣) سورة الغاشية الآية ١٧
(٤) سورة الحج الآية ٧٣

ومـــن هـــذا قوله تعالى حكاية عن قول ابراهيم : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [1]

إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى . [2]

وهكـــذا استطاع ابن رشد أن يوفق بين الدين والفلسفة في مجال الاستدلال على وجود الله ، وأن يوجد لنفسه سندا قويا من القرآن الكريم .

فالقول بالعناية والغائية قد قال به فلاسفة آخرون سبقوا ابن رشد سواء عاشوا في المشرق العربي أو المغرب العربي قبل ابن رشد ، ولكن لم يستطع أحد من هؤلاء أن يربط بين العناية والغائية الموجودة في الكون وبين ما جاء في القرآن الكريم من آيات تنبه عليها .

كمـــا لـــم يـــستطع أحـــد من قبل ابن رشد أن يربط بين الغائية والاختراع هذا الربط القوى .

ونحـــن نـــرى أن السبب في هذا هو أن ابن رشد قد تأثر بالقرآن الكـــريم وبالعلـــوم الإسلامية أكثر من تأثره بالفلسفة ، بخلاف غيره من الموفقـــين الآخـــرين فالناظر في القرآن الكريم يجد أن فيه آيات تتضمن الدلالتين معا ــ العناية والاختراع .

أشار إليها ابن رشد بقوله :

(وأمـــا الآيات التي تجمع الدلالتين معا فهي كثيرة .. مثل قوله تعالـــــــى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ إلـــى قـــوله تعالى : ﴿ ... فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [3]

---

(١) سورة الأنعام الآية ٧٩
(٢) مناهج الأدلة صــ٦٣
(٣) سورة البقرة الآية ٢١ ، ٢٢

فإن قوله : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ تنبيه على دلالة الاختراع ، وقوله : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ... ﴾ تنبيه على دلالة العناية ، ومثل قوله : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [1] وقوله تعالى : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [2]

وأكثر الآيات الواردة في هذا المعنى يوجد فيها النوعان من الدلالة [3].

وواضح مما سبق أن ابن رشد كان أقدر من غيره على فهم الدين والفلسفة معا إذ أن فعل الفلسفة ليس شيئا أكثر من النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع [4].

والدين يحث على التفكر والتدبر في المخلوقات للوصول إلى خالقها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ

---

(١) سورة يس الآية ٣٣
(٢) سورة آل عمران الآية ١٩١
(٣) مناهج الأدلة صـ ٦٣
(٤) فصل المقال صـ ١١ من كتاب (فلسفة ابن رشد)

وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ

دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ

لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [١]

ولهذا فإن هاتين الطريقتين ــ كما يرى ابن رشد ــ هما بأعيانهما طريقة الخواص وطريقة الجمهور .

(وإنما الاختلاف بين المعرفتين في التفصيل ، أعني أن الجمهور يقتصرون من معرفة العناية والاختراع على ما هو مدرك بالمعرفة الأولى المبنية على علم الحس ، وأما العلماء فيزيدون على ما يدرك من هذه الأشياء بالحس ما يدرك بالبرهان ، أعني من العناية والاختراع . حتى لقد قال بعض العلماء : إن الذي أدركه العلماء من معرفة أعضاء الإنسان والحيوان هو قريب من كذا وكذا آلاف منفعة) [٢] وإذا كان هذا هكذا فهذه الطريقة هي الطريقة الشرعية والطبيعية ، وهي التي جاءت بها الرسل ، ونزلت بها الكتب ، والعلماء ليس يفضلون الجمهور في هذين الاستدلالين من قبل الكثرة فقط ، بل ومن قبل التعمق في معرفة الشيء الواحد نفسه .

فإن مثال الجمهور في النظر إلى الموجودات مثالهم في النظر إلى المصنوعات التي ليس عندهم علم بصنعتها ، فإنهم إنما يعرفون من أمرها أنها مصنوعات فقط ، وأن لها صانعا موجودا.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٤
(٢) مناهج الأدلة صـ ٦٤

ومـــثال العلمـــاء في ذلك مثال من نظر إلى المصنوعات التي عنده علم بـــبعض صـــنعتها ، وبوجه الحكمة فيها ، ولا شك أن من حالة من العلم بالمـــصنوعات هذه المحال هو أعلم بالصانع من جهة ما هو صانع ، من الذي لا يعرف من تلك المصنوعات إلا أنها مصنوعة فقط [١]

وبحـــق فإننا نستطيع أن نقرر مع ابن رشد أنه (يجب على من كان ولده طاعة الله في الإيمان به والامتثال بما جاءت به رسله أن يسلك هذه الطريقة) [٢] التي بنيت على أصول شرعية تناسب الخاصة والعامة معا .

فالناظر في الانتقادات التي وجهت إلى أدلة المفكرين الذين اهتموا بمسألة إثبات وجود الله .

يلحظ أن ابن رشد كان محقا في كل نقد وجهه لهذا الدليل أو ذاك ، وأن الأدلة التي أحتضنها لها احترامها وسط هذه الانتقادات .

" فكانـــت " مـــثلا بعد أن يحصر الأدلة التي أوردها العلماء في مسألة إثبات وجود الله ، يأتي إلى دليل العناية والغائية الذي احتضنه ابن رشد :

فـــيقول : (إن هـــذا الدليل يستحق أن يشار إليه باحترام في كل وقـــت ، وهو أقدم دليل وأوضحه وأوفقه كذلك بالنسبة إلى العقل الإنسان العام) [٣]

ومـــا هذا إلا لأن ابن رشد ــ فيما نرى ــ قد تأثر بالقرآن الكريم وبالعلـــوم الـــشرعية أكثـــر من غيره من فلاسفة المشرق والمغرب على السواء .

٤- دليل الحركة : المقـــصود بالحـــركة هنا: الحركة بمعناها العام، سواء أكانت حركة من القوة إلى العقل أو حركة من حيز إلى حيز وصاحب هذا الدليل هو أرسطو الفيلسوف اليوناني الشهير [٤]

---

(١) مناهج الأدلة صـــ ٦٤ ، ٦٥ .
(٢) مناهج الأدلة صـــ ٦٤
(٣) الجانب الهي د/ محمد البهي صـــ ٣٧٧ نقلا عن تاريخ الفلسفة لأرجست ميسر
(٤) أرسطو طاليس فيلسوف يوناني شهير ولد عام ٣٧٤ق.م وتوفي عام ٣٢١ بعد أن خلف وراءه تراثا عظيما (انظر : موسوعة الفلسفة د/ عبد الرحمن بدوى جـــ١ صـــ٩٨-٩٩ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط١٩٨٤، أرسطو. عبد الرحمن دوى صـــ٢-٥. مكتبة نهضة مصر ط٢).

يقـــول أحد الباحثين : نظر أرسطو في الكون فرأى أنه في تغير مـــستمر وحركة دائبة، وهذه الحركة لا يمكن أن تكون من ذات المحرك بل من محرك أخر خارج عنها يؤثر ولا يتأثر ولا يخضع للمحركات [١] وكمـــا هو واضح فأرسطو لا يقول بوجود الله مباشرة، وإنما يتحدث عن المحرك الأول، وهو في الإسلام الله تعالى ولا خلاف في ذلك .

وقد اعتمد ابن طفيل هذا الدليل بناء على تصوره للقدم والحدث، من خلال جعل القديم سببا لخروج الحادث [٢]

أمـــا ابن رشد فقد جعل من حركة العالم دليلاً على وجود محرك لا يتحرك ، وهو الله تعالى ، وقد عرض له علي النحو التالي . ويقوم هذا الدلـــيل ــ فـــيما يـــرى ابـــن رشد ــ على القول : بأن (كل متحرك له محرك) [٣]

وملخصة : أن العالم متحرك ، وكل متحرك له محرك ، وهو الله . إذ أنـــه لا يمكـــن أن تكـــون الموجودات بأعيانها محركة لذواتها ، أي لا يكون تحرك الأشياء من غير متـــحرك ، فالمادة الموضوعة للنجار ، وهي الخشب لا يمكن أن تحرك نفسها إذا لم يحركها النجار ولا الأرض يمكن أن يكون منها نبات إن لم يحركها البذر [٤].

(وقـــد أخذ ابن رشد هذا الدليل عن أرسطو ، وهو الذي يتلخص فـــي : أن العالم يتحرك حركة أبدية دائمة ، ويتضمن وجود محرك أول لا يتحرك وغير مادي) [٥].

---

(١) انظر: في الفلسفة الإسلامية وصلتها بالفلسفة اليونانية د/ عوض الله حجا زى وزميله صـــ٧٣ ط١٩٥٩.

(٢) انظر: فلسفة ابن طفيل صـــ ١٢٠-١٢١ المطبعة الأدبية بسوق الخضار القديم، انظر:
ابن رشد وفلسفته الدينية د/ محمود قاسم صـــ ٩٦. مكتبة الأنجلو ط٣ ١٩٦٩ م.

(٣) تهافت التهافت القسم الأول صـــ ١٤٣ تحقيق د/ سليمان دنيا . طبعة دار المعارف الثالثة

(٤) راجع النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد د/ عاطف العراقي صـــ ٢٨٣ ، ٢٨٤

(٥) ابن رشد المفتري عليه د/ محمود قاسم صـــ ٧٩

وليس معنى هذا أن نفصل بين هذا الدليل ، وبين الدليلين السابقين ، فنقول مثلا إن هذا الدليل هو دليل الفلسفة ، وإن الدليلين السابقين هما دليلي الشرع . حقا إن ابن رشد يقرر أن الدليلين السابقين – العناية والاختراع – (هما بأعيانهما طريقة الخواص والجمهور) [١]. وهذه هي سمة الأدلة الشرعية .وأن دليل الحركة خاص بالعلماء وحدهم .

(إلا أننا نجده يرجع دليل الحركة إلى دليل العناية ، وهذا دليل على عمق فكرته عن الحكمة الإلهية ، وعلى مخالفة أرسطو في هذه المسألة ، فهو يسير إذن في الاتجاه العام الذي تقتضيه الروح الإسلامية ، لأنه لا يرى كابن سينا أو أرسطو ، أن حركة الأجرام السماوية ترجع إلى نوع من الشوق إلى التشبه بالمحرك الأول في كماله بأن تتحرك حركة دائرية وهي أكمل أشكال الحركة ، وإنما هي حركة أرادها الله لتحقيق غايات محددة تعود بالنفع على خلقه ، كما أن الأرض على النحو الذي توجد عليه ضروري لبقاء الكائنات الحية) [٢].

فحركات الأجرام السماوية ، وحركة الأرض وما يترتب عليها من اختلاف الفصول والليل والنهار ، وموافقة هذا لحياة الإنسان على ظهر الأرض ، يدل دلالة قاطعة على أن هناك صانعا حكيما أوجد هذه الحركات لتلك الغاية [٣]

هذه هي الأدلة التي استدل بها المتكلمون والفلاسفة. للتدليل على وجود الله تعالى، وكما هو واضح فهي أدلة تقوم على النظر والتأمل في هذا العالم، وقد عرضوا لها بطريقة عقلية صرفة، وقد لجأوا إلى ذلك لمواجهتهم طوائف متعددة وديانات كثيرة لا تعترف إلا بالمنطق العقلي.

ومع هذا فإن محاولات الاستدلال على وجود الله لم تتوقف إلى يومنا هذا، ولن تتوقف إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا ما دام الاستدلال على أمر غيبي.

---

(١) مناهج الأدلة صـ ٦٤

(٢) ابن رشد الفيلسوف المفترى عليه د/ محمود قاسم صـ ٨٤

(٣) انظر: تلخيص كتاب ما بعد الطبيعة لابن رشد صـ٦٢ ط١ ، وانظر ابن رشد وفلسفته الدينيةد/ محمود قاسم صـ٩٦.

المنكرون لوجود الله

وفيه مبحثان :-

المبحث الأول : دوافع الإنكار .

المبحث الثاني : شبه المنكرين لوجود الله والرد عليها .

دوافع المنكرين لوجود الله.

تمهيد:

مما لا شك فيه أن وجود الله تعالى، حقيقة واقعة ، فقد دل عليها النقل والعقل وأقرها أصحاب الفطر النقية، والعقول السليمة، فمن أمعن النظر فى هذا العالم وما حواه من أجناس مختلفة، من سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، وجبال راسيات شامخات، وغير ذلك من المخلوقات التى تشهد بوجود إله قادر أوجد هذه الأشياء، ولئن خفت هذه الآيات على بعض العقول فذلك لضعفها.

وهذه الأدلة واضحة لكل ذى لب سليم، عدا أصحاب الهوى وأتباع الشيطان الذين يلحدون فى آياته ويجادلون فى وجوده بالباطل.

وقبل الحديث عن شبه المنكرين لوجود الله تعالى أقول بأن هذه الطائفة التى أنكرت وجوده تعالى ما هى إلا شر ذمة قليلة آثرت الضلال على الهدى والظلام على النور ووجدت فى كل عصر، وسميت بأسماء متعددة فقد سموا بالماديين لإيمانهم بالمادة وحدها، وقدسوها ونعتوها بصفات الله تعالى ورأوا فيها قدرة على الخلق والإيجاد، "وأثر عنهم لا إله والحياة مادة"(١).

كما سموا كذلك بالحسيين لإيمانهم بالمحسوس المرئى فقط، وما عداه فلا وجود له ولهذا أنكروا ما وراء الطبيعة. "فالفكر الإنسانى لا يدرك سوى الظواهر المحسوسة، وما بينها من علاقات وقوانين "(٢).

---

(١) الشيوعية منشأ ومسلكاً د. دندل جبد صـ ١٨٩. مكتبة المنار ١٤٠٥ هـ -١٩٨٥م ط٣.
(٢) الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه د.محمود عثمان صـ ٨٣ الدار الإسلامية للطباعة والنشر.

وسموا كذلك بالطبيعيين لإيمانهم بالطبيعة وحدها، ورفضهم خضوعها لأى قـوة خارجة عنها وأثر عنهم "إن كل شئ محصور فى الطبيعة وأن كل ما يتخيل وراءها وهم في وهم، وأن الإنسان ما هو إلا ثمرة القوى الطبيعية، وأن طبيعته المعنوية ما هى إلا مظهر من مظاهر طبيعته المادية "(١).

وسموا كذلك بالملحدين لكونهم لحدوا فى آياته أى عدلوا عن الحق وأعرضـوا عنه، وأنكروا وجوده وقالوا بأن "المادة تستطيع أن تصنع الروح وهى تستطيع أن تصنع الله وأن تكون هى الله (٢).

وقبل هذا كله أطلق القرآن عليهم اسم الدهريين لقولهم بأن الدهر هـو المحـى والمميت قال تعالى: ﴿وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومـا يـهلكنا إلا الدهر﴾(٣) .

وإذا كانت كثرة الأسماء تدل على عظمة المسمى وشرفه كما هو الحال بالنسـبة لله تعالى وصفاته؛ فإن الأمر هنا على خلاف ذلك، فكثرة مسمياتهم تدل على قلـة شأنهم، وحقارة منزلتهم، وضيق أفقهم لحصرهم الموجود فى المشاهد المحسـوس، وإنكارهم ما هو أوضح من الشمس فى وسط النار، هذا وقد وجدت هـذه الطائفـة عبر العصور المختلفة وبأسماء كثيرة كما سبق ذكره، لكن يجمعها قاسم مشـترك وهو إنكار العالم الغيبى بما فيه، وعلى الرغم من إنكارهم لوجوده تعالى، فإننـا لا نجد دليلاً واحد يثبتون به قضيتهم، وإنما ساقوا جملة من الشبه نشأت لديهم لضيـق

---

(١) على أطلال المذهب المادى محمد فريد وجدى جـ١ صـ ١٧ ط دائرة المعارف القرن العشرين بمصر ١٩٢١.

(٢) الفلسفة الفرنسية من ديكارت ألى سارتر. جان فال صـ ٥٧ ترجمة فؤاد كامل ـمراجعة د/ فؤاد زكريا. دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٨.

(٣) سورة الجاثية الآية ٢٤.

أفقهم، وظنوا فيها سنداً قوياً لما يدعون، ولكن كيف هذا؟ وما ذكروه من قبيل الأوهام والضلالات التى لا أساس لها من الصحة. فقد رفضوا كل الأدلة التى تدل على وجوده ويريدون "أن يضعوا الله فى المختبر تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.. كما يضعون شيئاً مادياً، إنهم يريدون أن يشاهدوا الله بالمجهر.. ويريدون الإله شيئاً مادياً مجسداً مثلهم"(١).

وفيما يلى عرض لدوافع المنكرين لقضية الألوهية، متبعين ذلك بعرض الشبه والرد عليها من خلال الأدلة والعلمية والنقلية.

دوافع الإنكار:

إن المتتبع للمنكرين لوجود الله تعالى يجد أنهم أنكروا هذه الحقيقة على وضوحها، مدفوعين بذلك بجملة من الدوافع من أهمها ما يلى :-

١-الإلحاد.

الإلحاد طامة كبرى ، ومصيبة عظمى ، وأساس لكل بلوى ، فالملحد لا يؤمن بإله ، ولا يقر برسالة، ولا يرضى برسول، كما أنه لا يعتقد بوجود عالم آخر. بل إن الملاحظ أنه العامل الأكبر فى كثير من ألوان الشرك والانحرافات الفكرية ، وعلى أساسه ظهرت فلسفات إلحادية كالماركسية، والوضعية والوجودية وغيرها وهى "فلسفات ناقصة أو أصول فكرية، وفى المجتمعات الإنسانية مظاهر متعددة لهذه الفلسفات الناقصة" (٢).

---

(١) العقيدة فى ضوء العلم الحديث د. سعد الدين صالح جـ١ صـ ١٦٢ دار الصفا للطباعة ط٢ ١٤٠٧ - ١٩٩١.

(٢) صراع مع الملاحدة حتى العظم د/ عبد الرحمن حبنكه الميدانى ص٣٩٠ دار العلم بيروت ط٤ ع ١٤٠٥ هـ -١٩٨٥ م.

فهو فى واقع الأمر انحراف نادر ومن أهم مظاهره الوقوف عند حدود المـــادة المدركة بالحس المباشر ، أو عن طريق الأجهزة، وتؤدى إلـــى إنكـــار الوحـــى ، وإنكار أى حقيقة من حقائق الغيب التى تأتى بها النبوات . بدعوى أنها غير مدركة بالحس فلا يصح فى نظر الملحدين التسليم بها (١).

وغير خفى أن هذه النظرة أدت إلى وقوع المجتمعات التى تدين بها فى ضـــلال لا مثيل له . فهم يقفون عند حدود المادة وحدها، ولا يعترفون إلا باللذة والغريزة.

وسوف أزيد هذا الدافع وخصوصاً فى موضع آخر أثناء الحديث عـــن دوافـــع منكرى البنوة، على أن أفضل القول فيه من حيـــث تعريفـــه، وتاريخـــه وأســـباب ظهوره، وأثاره وطرق علاجه فى الفصل الأول من الباب الثالث إن شاء الله تعالى

٢-الإيمان بالمحسوس

من بين الدوافع التى دفعت المنكرين إلى إنكار وجود الله تعالى هو قصر نظرهم ، وحصرهم الموجود فى المحسوس ، فما يدركه الإنسان بحاسة ما فهو الموجـــود الحقيقى ، ذلك لأن أصحاب هذا الاتجاه يرون "أن الفكر الإنسانى لا يدرك ســـوى الظواهر الواقعة المحسوسة ، وما بينها من علاقات أو قوانين وأن المثل الأعلـــى لليقين يتحقق فى العلوم التجريبية ، وأنه يجب من ثمة العدول عن كل بحـــث فـــى العلل والغايات، وما يسمى بالأشياء بالذات"(٢).

فالمعرفة اليقينية – هى المعرفة الحسية التى يصل إليها المرء من خلال التجربة لأن العلم" ليس هو علم الوحى ، وليس هو التصور العقلى ، الذى لا أساس له مـــن

(١) انظر: نفس المصدر صـــ٣٩٠.

(٢) المعجم الفلسفى مراد وهبه صـــ٤٧٢ دار الثقافة الجديدة ط٣ .

المادة وإنما العلم هو علم الواقع والطبيعة المشاهدة ،والتصوير المادى أو القائم على أساس مادة "(١).

كما أن الإله الحق هو الذى يخضع للمشاهدة والتجريب – فقوام هـــذا الاتجـــاه الإيمان بالمادة وحدها– لكونها – جوهراً أزلياً أبدياً – محســـوساً يقبـــل التحليـــل والتجريب ، والتركيب وماعداها فلا وجود له لخروجه عن الحس "فكل جزء مـــن أجزاء الكون جسم ، وما ليس بجسم لا يمكن أن يكون جزءاً من هذا الكون "(٢).

فالمادة هى الهيكل الذى يتعبد فيه الماديون ، وهى الإله الذى يقدســـونه والقبلـــة التى يتوجهون إليها . فهذه المادة لم يخلقها الله تعالى ، لانه لا وجود لها، كما أنـــها لم يخلقها الإنسان؛ لأنها قديمة ، أزليه. أبدية، فمنها كل شيء وإليها مرد كل شيء، وهى العلة الخالقة والفاعلة والمدبرة لهذا الكون لا يعتريها هلاك أو تمس بسوء.

"وما العقل والنفس والشعور والوجدان بل الحياة فى الكائنات الحية، سوى نتيجة تفاعلات كيماوية لخواص العناصر المادية والتى تتركب منها تلك الكائنـــات ومـــا الموت والفناء سوى نتيجة خلل، أو عطب يلحق تلك العنـــاصر الماديـــة، فيبطـــل خواصها، وينهى تفاعلاتها، ومادامت المادة أو الطبيعة هى كل شيء فى الوجود فلا مجال للاعتراف بوجود حقائق غيبية، ولا سبيل إلى القول بقوة إلهية" (٣).

فالعام كله مادى محض، ولا وجود لما هو غير محسوس، وقد أشـــار القـــرآن الكريم إلى آيات متعددة بين فيها الأساس الذى يعتمد عليه الماديون.

---

(١) الماركسية دراسة وصفية تحليلية . د/عمارة نجيب صـ٢٢.الدار الإسلامية للطباعة والنشر.

(٢) مدخل إلى الفلسفة د/إمام عبد الفتاح صـ٣٢٦ دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ط٤ ١٩٧٧ .

(٣)الإسلام والفكر المنحرف . د/أحمد عبد الخالق صـ٦٨ دار الهدى للطباعة ط ٤ ١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م.

قال تعالى﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾(١)

والمعنى : لن نؤمن بأنه إله ونعبده- حتى نراه جهرة عيانا فكان جزاؤهم أن أخذتهم الصاعقة، لتعنتهم، وإيمانهم بما هو محسوس فقط(٢).

ولهذا جاءت آيات موسى عليه السلام حسية، وجاءت رسالة عيسى عليه السلام، روحية لإخراجهم مما غرقوا فيه من تيار المادة . وننتهي من هذا كله إلى أن الإيمان بالمحسوس، يمثل "القلق الإنساني فيما فوق المادة، وفوق المعاني النبيلة التي تجعل للحياة قيمة وللإنسانية كرامة، ولأي فرد أملاً ينشده ويسعى إليه، فهي جميعاً من السوفسطائية إلى الوجودية الملحدة أنكرت الخالق، وأنكرت ما وراء المادة، متخذة من الحس والتجربة منهجا تعتمد عليه، فما لا يحس، ولا يخضع للتجربة خرافة من الخرافات وأسطورة من الأساطير" (٣).

وبناءً على هذا فإنه خرافة. لأنه لا يشاهد ولا يحس.

٣- التقليد الأعمى

لقد فطر الله تعالى الناس على الإيمان بوجود خالق لهذا الكون لأحواله مهيمن عليه فكان الإيمان بوجود قوة عليا وراء الطبيعة هو القاعدة والأساس وإذا ما حدث، وشيب هذا لاعتقاد بشيء من الضلال، والانحراف فذلك يرجع إلى الانحراف المفروض بقوة العادات والتقاليد. "فقد فعلت قوة التقاليد والعادات

---

(١) سورة البقرة ٥٥-٥٦.

(٢) انظر تأويلات أهل السنة. للماتريدي جـ١ صـ ١٥٨ - ١٥٩.

(٣)الإسلام والفكر المنحرف. د/ أحمد عبد الخالق صـ ٧٣.

المتوارثة فعل القوة المادية كلما دعا رسول قومه إلى عباده الإله الخالق المنزه، كانت قوة التقاليد تدفع إلى الرد غير المنطقى وغير العملى" (١).

إذاً يجيبون قائلين ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾[٢]

فالإنسان ينشأ فى بيئة يكتسب منها معارفه، ومهاراته وأخلاقه وهذه الأشياء منها "ما هو حق ومنها ما هو باطل، ومنها ما هو صالح، ومنها ما هو فاسد، وبمقتضى نشوئه فى هذه البيئة الاجتماعية يتكون لديه بدافع الإنسانية خلق التعصب لأهله وعشيرته وقومه، والتعصب لجميع ما هو فى بيئته من مفاهيم، وعادات وأخلاق لأنه يتصور أنه بتعصبه هذا يدافع عن كيانه الذاتى ولكنه دفاع ليس فى محله، إذ هو دفاع عن الانحراف"(٣).

ولقد ساق القرآن الكريم آيات متعددة، أبان من خلالها أن دعوى الإنكار ترجع إلى ما هو موروث وقديم، فإذا ما دعاهم رسول إلى عبادة الله تعالى لا يجدوا جواباً إلا أن يقولوا ﴿ ......أنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾(٤) .

٤-الانحراف النفسى

من بين الدوافع التى دفعت المنكرين لإنكار وجود الله تعالى. الانحراف النفسى، وأقصد به الانحراف نزولاً لإرضاء النفس من أجل لذة، لها أو متعة يصيبها.

([١])الماركسية د/ عمارة نجيب صـ٤٢ .

([٢]) سورة البقرة الآية ١٧٠.

([٣])صراع مع الملاحدة حتى العظم-عبد الرحمن حبنكه-صـ٣٨٨ دار العلم دمشق ط٤ ١٤٠٥هـ-١٩٨٥.

([٤])سورة الزخرف الآية ٢٣ .

والمتتبع لأحوال المنكرين يجد أن صنفاً كبير منهم أنكره لا للجهل به فهذا أمـــر مستحيل لكون الله فطر الناس على الاعتراف بوجوده.

قال تعالى: ﴿وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾[1] .

وإنما ضلوا وانكروا وجود الله تعالى إرضاءً لرغبة من رغبات النفس.

"ومتى هرب الإنسان من وجه الحقيقة سعى ينتحل لنفسه مبادئ أخرى باطلـــة ليجعلها في محلها، ثم يكدح كدحاً شديداً ليقنع نفسه وغـــيره بصحتـــها وســـلامتها وضرورة الأخذ بها"(٢) .

وهذا ما يفعله المنكر ويقوم به. فالفطرة الســـليمة، والعقـــول النقيـــة ترفـــض الإعراض عن الحق مهما كانت الأهواء، ولكن سلطان الهوى يدخل على النفـــوس الضعيفة وينحرف بها عن طريق الحق وهذا الانحراف يأخذ صوراً متعددة منها.

أ-الهوى والشهوات

من الأمراض التي تصيب النفس . وتؤدي بها إلى الهلاك، واتباع الشيطان قـــال الله تعالى ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين﴾(٣) .

فسياق الآية يوضح أن الهوى والشهوات من أسباب الإعراض عن الله تعـــالى، وإنكاره ولذا حكم عليهم بالخسران.

---

(١)سورة الأعراف الآية ١٧٢ .

(٢)صراع مع الملاحدة عبد الرحمن حبنكه صـــ٣٩١.

(٣)سورة الروم الآية ٢٩ .

ب–اتباع الظن

أحد العوامل النفسية التى دفعت المنكرين لرفض الألوهية " فقد رسخ فى أذهـــان الناس أن الأكثرية لا تخطىء، وقد سيطرت هذه الفكرة على العقول قبل الإســـلام . فلما جاء القرآن نبه العقول إلى أخطاء هذا الوهم (١)

وقد أشار القرآن الكريم إلى هدم هذه الفكرة فقال تعالى: ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله...... ﴾ [٢].

فلا يصح للإنسان أن يقبل رأيا أو يسلم بفكرة لمجرد ظنه أن قبول جمع بها دليل على صحتها.

ج–الإنكار لقلة العون.

ويكفى مثال واضح لموقف شعيب مع قومه عندما دعاهم للإيمان بـــــالله فكـــان جوابهم ﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز﴾ [٣].

د– الطاعة العمياء للسادة والكبراء. فكثير من ألوان الانحراف النفسى يـــأتى من هذا الطريق، وقد حذر الله من اتباع أمثال هؤلاء. ويكفى هنا ما ذكره الله فـــى شأن اتباع فرعون قال تعالى ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وســـلطان مبيـــن إلـــى فرعون وملائه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد﴾(٤).

---

[١]العقيدة فى ضوء العلم الحديث د/ سعد صالح جـــ١ صـــ٥٤ دار الصفا للطباعة ط ١٤١١٢هـــ– ١٩٩١م .

[٢] سورة الأنعام الآية ١١٦ .

[٣]سورة هود الآية ٩١ .

[٤]سورة هود الآيتان ٩٦–٩٧ .

المبحث الأول: - شبه المنكرين لوجود الله تعالى والرد عليها له.

١- شبهة المصادفة:

إن المتأمل فى حال العالم يجد أنه اشتمل على نظام دقيق، وإتقان بديع يشهدان بعظمة الخالق ووجوده، ففى هذا العالم ترتبط الأسباب فيه بالمسببات وتتقدم المقدمات النتائج الأمر الذى يعطى اعتقاداً جازماً بوجود صانع مهيمن على هذا العالم بما فيه.

ومع هذا فقد وجدت شرذمة قليلة أنكرت وجود الله تعالى بدعوى أن وجود الكون على هيئته هذه لم يكن من تدبير إله وإنما من صنع الصدفة(١).

وواقع الأمر أن هذه النزعة وجدت قديما فهى ليست نزعة حديثة، أو معاصرة، فقد وجد هذا الاتجاه لدى تلك الطائفة التى عرفت بالدهرية(٢) وأنكرت وجود الله تعالى بحجة أن العالم لم يزل موجودا بنفسه ولا صانع له ولا مدبر ووجد هذا

---

(١) الصدفة: مصطلح يستعمله كثير من الناس على أساس غير علمى، فقد شاع استخدامها بأنها تعنى التقابل القائم بين شيئين، والصحيح أنها كلمة تعنى انعدام السبب الفاعل والسبب الغائى، وهذا يستلزم غيبة النظام، وغيابة العناية والقصد فهى تعنى الاعتباط والفوضى، وكل ما يترتب على هذا المعنى من لوزام منطقية أو واقعية. (انظر: العقيدة والفكر الإسلامى د. محمد هشام سلطان صـ٨٦ مكتبة رحاب ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م القرآن والكون د. محمد عبد الله الشرقاوى صـ٤٩ دار الجبل بيروت ١٤١١هـ-١٩٩١م ط٣).

(٢) الدهرية: نسبة إلى الدهر وهم فرقة من الزنادقة أو الملاحدة يجحدون الصانع المدبر العالم القادر، ويزعمون أن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه لا بصانع وينكرون البعث والنبوة والحساب ولا يعرفون الخير ولا الشر وإنما اللذة والمنفعة (انظر : الفصل فى الملل والأهواء والنحل. ابن حزم جـ١ صـ ٤٧-٧٨. تحقيق د. محمد إبراهيم، د. عبد الرحمن عميره ط دار الجبل بيروت ط٢ ١٩٩٦).

الاتجاه لدى بعض فلاسفة اليونان أمثال ديمقريطس الأغريقى[1] الذى زعم أن الحياة وجدت اتفاقا، دون احتياج لعلة مؤثرة فجميع ما فى الكون نتيجة للصدفة العمياء[2].

وإذا كان هذا قول القدماء فإن ما قاله المحدثون لا يختلف عنه، فقد ذهب كثـــير منهم إلى أن وجود العالم بهيئته هذه. بمحض الصدفة فها هو الفيلسوف الإنجلـــيزى براتراند رسل(٣) يقول:

"إن الكون الذى نشاهده الآن إنما وجد بمحض الصدفة"(٤).

هكذا اتفاقا تسير ظواهره وتعمل قوانينه، ويلخص رسل تاريخ البشرية كلها فـــى القول بالصدفة قائلاً:

([1])ديمقريطس الأغريقى هو فيلسوف يونانى ولد فى تراقيا عام- ٤٦٠ق.م تقريباً وتوفى عام ٣٧٠ ق.م سافر كثيراً وأخبر أنه زار مصر وقضى بها خمس سنوات وقد أنشأ مدرسة أبدير عام ٤٢٠ق.م وله مؤلفات منها فى جهنم، فى الأفلاك، فى طبيعة السماء وغيرها (انظر : موسوعة أعلام الفلاسفة. إعداد رونى إيلى ألفا وزميله جـ صـــ٤٥٥-٤٥٦ دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٤١٢/١٩٩٢).

([2])تاريخ الفلسفة اليونانية يوسف كرم صـــ٤٠ نشر مكتبة النهضة المصرية ط٤، انظر نقد المذهب التجريبى محمد محمد طاهر صـــ ١٢٤ منشورات دار ومكتبة الهلال بيروت.

([3]) رسل هو : فيلسوف رياضى ومنطقى وعالم اجتماع إنجليزي ولد عام ١٢٨٩هـــ ، ١٨٧٢م وتوفى عام ١٣٩٠هـــ، ١٩٧٠ تلقي تعليماً خاصاً وحصل على منحة لدراسة الرياضيات فى كلية ترينتى بجامعة كامبريدج وكان من الطلاب المتميزين وقد ترك مؤلفات كثيرة منها أسس الرياضيات، الدين والعلم، فلسفتى كيف تطورت، وغيرها (انظر موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب جـــ١ صـــ ٤٨٢-٤٨٤).

([4]) فلسفتى كيف تطورت لرسل. صـــ٢ ترجمة عبد الرشيد الصادق مراجعة د/ زكى نجيب مكتبة الأنجلو المصرية ط ١٩٦٠.

"ليس وراء نشأة الإنسان غاية أو تدبير إن نشأته وحياتـــه وآمالــه، ومخاوفـه وعواطفه وعقائده ليست إلا نتيجة لاجتماع جسمه عن طريق المصادفة"(١).

وهاهو الفيلسوف الألماني هيكل(٢) يقول:

إن الموجود الضروري الوحيد هو المادة، وأن الحياة ترجع إلى أصـــل واحـد، وهو المونيزا – التي تركبت اتفاقا من مركبات عضوية من الأزوت، والهيدروجين، والأوكسجين، والكربون ثم تطورت على التوالي حتى تكونـــت جميـــع الكائنـــات الحية(٣).

ومن خلال ما سبق عرضه يتضح لنا ما لهذه الشبه من مكانة في نفوس هؤلاء، فقد دانوا بها ودافعوا عنها وتشبثوا بها زاعمين أن هذا الكون لا يحتاج إلى موجـد يوجده، بل وجد بصورته هذه بالصدفة والاتفاق دون تقدير ولا تدبـــير، ولا أثـر للاختيار فيه .

وهكذا استقر رأي هؤلاء الملاحدة على الإيمان المطلق بهذه المقولة فأي حـدث في الكون إنما هو من باب المصادفة ، ونتيجة لها "وأن الكون سواء أكان له معنـى أم لم يكن، كان على أي حال سيظهر إلى حيز الوجود ويجري مجاره حتـــى لـو

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم. تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين صـــ ٥٧ ترجمة د/ الدمرداش عبد المجيد مراجعة د/ محمد جمال الفندي. دار القلم بيروت.

(٢) هيكل هو : أرنست هيكل ولد عام ١٨٤٠هـــ ومات عام ١٩١٩ فيلسوف واحدي وهو أستاذ علم الحيوان وله عدة مؤلفات منها الدين والتطور، تاريخ الخلق الطبيعي وغيرهما (انظر الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة د. يحيى هاشم صـــ ٢١٠ ط دار المعارف) .

(٣)انظر: فصل المقال في فلسفة النشوء والارتقاء . أرنست هيكل صـــ ٢٩ نقله إلى العربية حسن حسين مطبعة الشباب ١٣٤٢ - ١٩٢٤، تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم صـــ ٤٠ ط دار المعارف ط٥.

كانت الظروف الثابتة والأولية تحول دون تطور الحياة والوعى، فالحيـــاة جـــاءت اتفاقا، وهى طارئة على آلية الكون"(١) "وأجمل انتظام فى العالم أشبه بكتلة نفايـــات مجموعة صدفة"(٢).

هذه هى شبه المصادفة كما عرض لها أصحابها، وهى شبه واهية يكذبها الواقع، ويرفضها المنهج العلمى الصحيح، كما يشهد على بطلانها شهادة العقلاء.

وفيما يلى عرض لبيان فسادها من خلال الأدلة العقلية ، والعلمية والنقلية:-

الرد على الشبهه:

لقد ساق العلماء جملة من الأدلة المختلفة التى تؤكد بطلان هذه الصدفة.

(أ) الأدلة العقلية :-

١- تناقص المصادفة:

إن القول بالصدفة خرافة يرفضها أصحاب العقول الســـليمة، والفطـــر النقيـــة لاستحالة حدوث المصنوعات ذات القصد والعناية، والإبداع دون وجود محدث لها، فإن من شهد بناءً جزم بأن له بانيا. فالقول: بالصدفة باطل، لأن الصدفة لا وجـــود لها ولا يمكن لها أن تخلق شيئاً من العدم إلى الوجود ، وكل ما يمكن نسبته إليها هو حركة التلاقى بين الموجودات ، وهذه الحركة قد تحدث مرة بيـــن آلاف المـــرات فالصدفة خرافة ولا أساس لها، ولا يتمسك به إلا من أضله الله تعالى، وختم علـــى قلبه بالكفر والضلال.

---

(١) العلم فى منظوره الجديد- روبرت م. أغروس وآخر صـــ٦٦. ترجمة د. كمال خلايلى سلسلة عالم المعرفة العدد ١٣٤ جمادى الآخرة ١٤٠٩-١٩٨٩م

(٢) الفلسفة فى العصر المأساوى الأغريقى- فريدريك نيتشه صـــ ١١٠ -تعريب د/ سهيل القشن تقديم ميثال موكو -المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ط٢ ١٤٠٣هـــ-١٩٨٣م.

٢-دليل العناية والغائية:

لقد جعل العلماء من عناية الله تعالى بالكون دليلاً واضحاً على فساد القول بالصدفة، فالكون المادى يسوده النظام، ويسيطر عليه الإحكام، وليست الفوضى وتحكمه القوانين، وليست المصادفة أو التخبط .

وهذا الدليل شائع ومنتشر، بين فلاسفة الإسلام، متكلمين، وإشراقيين، ومشائين، فهم جميعا يستدلون به على وجود الله تعالى، وفى نفس الوقت يستبعدون به فكرة المصادفة والعبث فى هذا الكون وموجوداته وقد عرض له الإمام الأشعرى(١) كما استدل به إخوان الصفا(٢) وكذلك ابن رشد(٣) وغيره.

فها هو الكندى يقول " فإن فى نظم هذا العالم وترتيبه وفعل بعض لبعض، وتسخير بعض لبعض، واتفاق هيئته على الأمر الأصلح في كون كل كائن، وفساد فاسده، وثبات كل ثابت، وزوال كل زائل لأعظم أدله على أتقن تدبير، ومع كل تدبير مدبر، وعلى أحكم حكمه ومع كل حكمة حكيم"(٤)

فهذا الدليل يبطل الصدفة بما لا يدع مجالاً لأدنى شك، ولهذا نجد كثيراً من الفلاسفة المعاصرين- يستدل به ليثبت وجوده تعالى فها هو برجسون(٥) يذهب إلى

---

(١)انظر: اللمع فى الرد على أهل الزيغ . للأشعرى ص١٨-٢٠

(٢)انظر: رسائل أخوان الصفا وخلان ألوفا ط ص٣٣٣ . تقديم. طه حسين وأحمد زكى باشا- تصحيح خير الدين الزركلى-مصر المطبعة العربية ١٩٢٨ .

(٣)انظر: الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة- لابن رشد تحقيق د/ محمود قاسم ص١٤٨-١٥١ مكتبة الأنجلو المصرية.

(٤)رسائل الكندى الفلسفية. تحقيق د/محمد عبد الهادى أبو ريده صـ٢١٥ . دار الفكر العربى ١٩٥٠م .

(٥)برجسون: ولد فى باريس عام ١٨٥٩ من أبوين فرنسيين يهوديين وكان طالباً نجيباً وقد نال جوائز كثيرة وكان ذائع الصيت ترك مؤلفات كثيرة منها الضحك، المادة والذاكرة، الحلم وغيرها =

أن الكون كله من الذرة إلى المجرة ينبض كالجسد الواحد يحيا حياه واحدة يظهر فيها بوضوح، مدى الترابط والتعاون الأمر الذى يخالق فى نفوسنا ذلك الإلهام المباشر لوجوده تعالى(١).

وعلى هذا يمكن القول : إن الإنسان إذا ما صادف أسبابا مبعثرة فى الطبيعة يقف أحياناً عندها، فإذا تابع السير فيما وراءها وأمعن النظر فيها أمكن من الوصول إلى مدى العناية الإلهية والتسليم بوجوده

فكل شيء وجد بدقة محكمة لا مجال للمصادفة فيها؛ لأنها تخبط وعشواء وهذا خلاف ما عليه الواقع.

وأخيرا فإن هذا الدليل هو الذى أشار الله تعالى إليه فى أكثر من موضع منها قوله تعالى:

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾(٢).

٣- دليل النظام

وهو برهان واضح على فساد القول بالصدفة وهو يقوم على مقدمتين الأولى حسية والأخرى عقلية.

= (انظر: قصة الفلسفة ول ديورانت ص٥٥٥-٥٥٦، موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب جـ١ صـ ٢١٤-٢١٦).

(١)انظر: قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص١٩٥-١٩٦. منشورات دار الخلود لبنان ط٣ ١٣٨٩م-١٩٦٩م .

(٢)سورة الغاشية الآيات ١٧-٢٠ .

" فأما الأولى، فهى أن هناك نظاما بديعا يسود كل أرجاء الكون من الذرة إلى المجرة، وهو أمر تتكفل بإثباته المشاهدة والملاحظة... وإما الثانية،فهى أن العقل بعد ما لاحظ النظام وما يقوم علية من المحاسبة، والتقدير والهداية والقصد والتوازن.... وحكم بأن هذا يمتنع صدوره بمحض الصدفة والاتفاق، بل لا ينبع إلا من فاعل قادر عليه ذى إرادة وحكمة وقصد"[1].

والمطالع لكتب المتكلمين يجد أن هذا الدليل قد جذب انتباههم، فقد استدل به الباقلانى(٢) كما أخذ به الإمام الغزالى وها هو يقول:"فليس يخفى على من معه أدنى مسكة من عقل، إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات،وأدار نظره على عجائب خلق الله، فى الأرض والسماوات، وبدائع فطرة الحيوان والنبات، إن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغنى عن صانع يدبره، وفاعل يحكمه، ويقدره، بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره ومصرفة بمقتضى تدبيره"(٣).

فنظام العالم وترتيبه على هذا النحو يرفض فكرة المصادفة. ويجعل القائلين بها يقعون فى مأزق واضح لما هو معروف عنها أنها تعنى العشوائية وعدم الدقة والنظام.

([1])جهود الشيخ حسين الجسر الكلامية فى الإلهيات رسالة ماجستير إعداد الباحث فتحى عبد الرحمن عطية ص١٢٤- كليه أصول الدين بطنطا ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

([2])انظر: التمهيد للباقلانى صـ٤٤-والإنصاف للباقلانى صـ٣٠-٣١ تحقيق وتعليق الإمام محمد زاهد الكوثرى. مؤسسة الخانجى للطباعة ط٢ ١٩٦٣م.

([3])إحياء علوم الدين الغزالى جـ١صـ١٩٠.

ومع هذا فإذا كان هذا الدليل يستدل به على بطلان الصدفة، فأرى أنـــه يصلـــح للاستدلال به على فساد القول بقدم العلم كما يمكن الاستدلال به على فرض القـــول بالحدوث.

فهو لا يختص بفرض دون الأخر، وهذا أهم ما يميز هذا البرهان عن برهـــان الحدوث الذى يقوم على جدوث المادة(١).

وفي رأيي أن هذا الدليل يكشف لنا عن عظيم قدرة الله تعالى فى خلقه ولهذا أعطاه القرآن الكريم قدراً كبيراً من الاهتمام.

قال تعالى ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ (٢).

٤- فإن القول بالصدفة قد يصح بالنسبة للإنسان، ولكن لله تعالى فلا يوجد ما يسمي بالصدفة فما من شئ صغير ولا كبير فى هذا الكون إلى وجد بقصد وتدبـــير ولغاية وهدف وإلا لفسد الكون بما فيه فانظر:

"هل هذا الترتيب المحكم والتكوين المنظم والأسباب الموجودة للكائنات والعلـــل الحافظة لها والعوامل الدافعة لترقيتها والنواميس العاملة لتكميلها كل هذه المجموعة الضخمة من السباب والعلل والنواميس فى كون يزخر بالأحياء ويفيض بالكائنـــات

---

(١)انظر: الله خالق الكون أ-جعفر الهادى ص١٥٣ دار الاضواء بيروت ط٢ ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢)سورة ق الآيات ٦-٨.

قائمة على مجرد المصادفة والاتفاق ومجردة من روح يدبرها ويهيمن على أطوارها (١) إن الواقع المشاهد يشهد بخلاف ذلك تماماً.

(ب) أدلة العلم التجريبي على بطلان الصدفة:

لقد أثبت العلم الحديث بما لا يدع مجالاً لأدنى شك، أن هذا العالم تكون بمحض إدارة قوة عاقلة. تامة التصرف وهو مسخر تحت سلطانها. يشهد لذلك أوضاعه وأحجامه. وحركاته وطبائعه ولإثبات هذه الحقيقة نراهم ساقوا حملة أدله من أهمها ما يلي:

١- الأنظمة المعقدة الموجودة فى هذا العالم:

لقد جعل العلماء من الصورة غير العادية من التعقيد الموجود فى هذا الكون دليلاً واضحا على فساد القول بالصدفة " فالتعقيد الهائل فى ظاهرة الحياة والانسجام الهائل، ووضع كل شيء فى محله. إنما يدل دلالة واضحة على علم وإدارة وقدرة وراءها موجد أوجدها على هذا النحو"(٢).

فقد أثبتت العلوم الكيمائية أن التعقيد الهائل الموجود فى أبسط الأشياء يجعل من المستحيل جمعه فجأة بدون تدخل قوة خارجه.

إن الخلية الحية هى نظام معقد وجميل كعالم المجرات والنجوم، وقد استمرت الآلة الدقيقة للخلية الدءوب خلال أربعة مليارات من السنين، وتتحول أجزاء العظام بمثل فعل السحر إلى أجهزة خلوية، فكرية الدم البيضاء هى ورقة سبانخ الأمس،كيف تقوم الخلية بهذا العمل؟ الجواب هو أنه يوجد فى داخلها متاهة أو شبكة من الممرات وبنية معقدة وبنية هندسية متقنة تحافظان على تكوينها، وتحولات الجزيئات وتخزنان الطاقة، وإذا استطعنا أن ندخل إلى الخلية فسوف نرى الكثير من الأقسام الجزئية مؤلفة من جزئيات البروتين، وأن بعضها فى حالة نشاط محموم، بينما البعض الأخر فى حالة انتظار" (٣).

فمثل هذا لا يمكن، بل يستحيل حدوثه بالصدفة، والأولى أن نجعله دليلاً على وجود الله تعالى.

---

(١) الإسلام دين الهداية والإصلاح. تحليل دقيق لمبادئ الدين الإسلامى محمد فريد وجدى ص١٠. راجعه وصححه محمد زهرى النجار. دار الجيل بيروت ط١ ١٤١١هـ-١٩٩١م.

(٢)الله جل جلاله- سعيد حوى ص٤٣ مكتبة وهبه.

(٣)الكون. د/ كارل ساعان- ترجمة نافع أيوب - مراجعة محمد كامل عارف ص٥٢-٥٣ - سلسلة عالم المعرفة العدد ١٧٨-ربيع الأول ١٤١٤هـ-١٩٩٣م مطابع السياسة الكوتية.

أن بروتوبلازم الخلية قد بلغ في تركيبة درجة من التعقيد، حيرت جميع العلمـــاء، وتعتبر البروتينات أشد عناصره تعقيداً (١).

فهذا الكون مليء بمظاهر الروعة المعقدة التي تحتاج إلى مدبـــر لـــها ولا يمكن ردها إلى الصدفة.

٢- لتوازن المحكم الموجود في كل شيء:

فلقد أثبتت جميع الدراسات العلمية بما لا يدع مجالاً للشك أن هـــذا العـــالم يسير وفق توازن محكم لا مثيل له

" فهذه الكواكب السابحة في الفضاء على مدارات منتظمة تشـــعر بجاذبـــها المتبادل وجريها إلى غايتها، وانتهائها إلى نهايتها بأنها مقودة، بنظام دقيق ينبـــيء عن قصد حكيم، وتدبير سديد أريد به قيامها على هذا الترتيب البديع لإنتاج أعراض يعيده من معمارية الكون وتحليته بكل الإبداعات الممكنة"(٢).

فالأرض مثلا هي "أهم عالم عرفناه إذ توجد فيها أحوال لا توجد في شـــيء من هذا الكون الواسع، وهي في ضخامتها لا تساوي ذره من هذا الكون العظيـــم، ولو أن حجمها كان أقل أو أكثر مما هي عليه، الآن لاستحالت الحياة فوقـــها، فلـــو أنها كانت في حجم القمر مثلا بأن كان قطرها ربع قطرها الموجود فعـــلاً لكـــانت جاذبيتها سدس جاذبيتها الحالية، ونتيجة لذلك لا يمكن أن تمسك الماء والهواء مـــن حولها كما هو الحال في القمر....... لضعف قوة الجاذبية وانخفاض الجاذبية فـــي الأرض إلى مستوى جاذبية القمر سيترتب عليها اشتداد البرودة ليلاً حتى يتجمد مـــا فيها ، واشتداد الحرارة نهاراً حتى يحترق كل ما عليها..... ومن ثم أطلـــق أحـــد العلماء على هذه العملية لقب " عجلة التوازن العظيمة"(٣).

كل هذا يؤكد أن هذا العالم يسير وفق قوانين ثابتة وأسس لازمة لوجـــوده، ففروع العلم تثبت ذلك.

وغير خفي أن هذا يتنافى مع القول بالصدفة لما هو معروف عنها، بأنـــها فعل عشوائي لا يجري على نظام، كما أنها لا تدعو إليه؛ فالصدفة يستحيل عليها أن تؤدي إلى تكوين أحد جزئيات البروتين فكيف بعالم تحكمـــه القوانيـــن والأنظمـــة المعقدة، .

---

(١)انظر:القرآن يتحدى. أحمد عز الدين عبد الله صـــ٢٥٢-٢٥٣دار صادر بيروت ط٢ ١٤٢٢هـــ-٢٠٠١م

(٢)على أطلال المذهب المادي محمد فريد وجدي جـــ١ صـــ١٠١ .

(٣)الإسلام يتحدى وحيد خان صـــ٦٢ .

٣-مظاهر الروعة فى العالم تنفى القول بالصدفة.

فلقد أثبت العلم الحديث أن مظاهر الروعة التى تحيط بكل شيء فى هذا الكون لهى من أوضح الأدلة على فساد هذا القول، والمتأمل فى هذا الكون الدارس لما ينتشر فى جنباته من إنسان وحيوان، ومواد وأجرام استطاع أن يقف على مظاهر الروعة فيها.

فلو رفعنا أعيننا مثلاً نحو السماء "فلا بد أن يستولى علينا العجب من كثرة ما نشاهد فيها من النجوم والكواكب ، السابحة فيها، والتى تتبع نظاما دقيقا لا تحيد عنه قيد أنملة مهما مرت بها الليالى، وتعاقبت عليها الفصول، والأعوام والقرون إنها تدور فى أفلاكها بنظام يمكننا من التنبؤ بما يحدث من الكسوف والخسوف قبل وقوعه بقرون عديدة فهل يظن أحد بعد ذلك أن هذه الكواكب والنجوم قد لا تكون أكثر من تجمعات عشوائية من المادة تتخبط على غير هدى فى الفضاء" (١).

وقد عرض السير "أوثر طوسون" عن مظاهر الروعة فى العالم من حولنا جاعلاً منها دليلاً واضحاً على بطلان القوة بالصدفة وقد عرض لها على النحو التالى:-

أ-مظاهر الروعة فى وفرة القوة فى العالم.

ب- مظاهر الروعة فى تعقيد الأشياء وتشابكها.

ج-مظاهر الروعة فى دقة ونظام الطبيعة.

د-مظاهر الروعة فيما يتعلق بشخصياتنا.

هـ-الوضوح فى نظام الكون.

و-مظاهر الروعة فى الخصائص الأساسية للكائنات الحية.

ز-مظاهر الروعة فى التطور(٢).

٤-فقدان الصدفة للصدق من الناحية العملية :

ذلك؛ لأن الصدفة قد تحدث مره وتتخلف ملايين المرات، وقد تزيد أو تنقص "فقانون المصادفة يزداد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانات المتكافئة

---

(١)الله يتجلى فى عصر العلم، صـ ١٤٧-١٤٨،وانظر : الإسلام يتحدى صـ٦٣ لمعرفة المزيد من مظاهر الروعة فى هذا العالم.

(٢) انظر: العلم أسراره وخفاياه- تحرير هارلوشايلى وآخرون ترجمة د/ محمد صابر وآخرون جـ١ صـ ١٤-١٧ ط مكتبة غريب ١٩٧١م.

فكلما قل عدد الأشياء المتزاحمة ازداد حظ المصادفة من النجاح وكلما كثر عددها قل حظ المصادفة بنسبة واحد ضد اثنين" (١).

" وبناء عليه فإن فرصة خروج عشر قصاصات من الورق، كتب عليها الأعداد من واحد إلى عشرة من حافظة مغلقة بنفس الترتيب، إنما تجيء بنسبة واحد إلى عشرة بلايين من المحاولات ، وإذا كان الممكن المتزاحم هنا محصوراً في العدد عشرة فما بالنا إذا اتسعت الممكنات المتزاحمة(٢).

فقانون الصدفة قانون فاسد لصدقه نظرياً أما عملياً فهو أمر يستحيل حدوثه فخروج القصاصات مرتبة من الحافظة قد يحدث مرة، وقد لا يحدث مطلقاً.

٥- استمرار وجود العالم وتماسكه.

فالناظر في هذا العالم يجد أنه موجود على نظام معين وتوازن خاص، واستمر في وجوده وهذا خلاف ما عليه الصدفة لأنها "لو وجدت لنا أمراً فإنها لا تستطيع أن تسيره في إطار نظام معين يأخذ شكل التقنين، وإن أوجدته فإنها لا تستطيع إعطاءه حق الاستمرارية في الوجود(٣).

ومعنى هذا إن المشكلة ليست في الإيجاد بل في استمرار هذا الموجود وهذا يجعلنا نتساءل مع الأستاذ العقاد " لماذا تماسك نظام هذا الكون واستمر وجوده بعد أن وجد مصادفة واتفاقاً، ولم يسرع إليه الخلل وتتجم فيه الفوضى قبل أن ينتظم على نحو من الإنحاء، وما الذى قدره وأمضاه وجعله مفصلاً أعلى الخلل والفوضى وهما مثله ونظيره في كل احتمال"(٤).

ثم لو أن الكون خلق مصادفة كما يدعي الملاحدة وتوصلت الصدفة إلى خلق رجل مثلاً " فهل يعقل أن الصدف تكون كائناً أخر مماثلاً له تماما في الشكل الظاهري، ومبايناً له في التركيب الداخلي ، وهو المرأة بقصد عمارة الأرض بالناس وإدامة النسل فيها"(٥).

---

(١)قصة الإيمان .الشيخ نديم الجسر صـ٢٩٣ .

(٢)الإيمان والتطور العلمي . د/ محمد عبد الستار نصار صـ٣٤١- بحث بحولته كلية الشريعة والدراسات الإسلامية .جامعة قطر.

(٣)العقيدة والفكر الإسلامي د/ محمد هشام ص٧ مكتبة رحاب ط٢ ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م .

(٤)الله- كتاب نشأه العقيدة الألهية - عباس العقاد ص١٤٩ .مكتبة الأسرة مهرجان القراءة للجميع ضيف ١٩٩٨م .

(٥) قضايا فلسفية- جمال الدين بوقلي حسن ص٦٣٥ المؤسسة الوطنية للكتاب ط٤ .

إن الذين يدافعون عن الصدفة، إنما يتمسكون بأوهام وضلالات ليس لها أى أساس. " فنظام الطبيعة وترقيتها والتوافق الغريب بين العلل الغائية، والفائدة الواضحة والقصد البين لكل جزء، ولكل عضو كل هذه تكشف فى أنصع لغة عن علة عاقلة، أو صانع عاقل، إن السماوات والأرض لتجتمع فى شهادة واحدة وجوفة الطبيعة ترتل بكامنها أنشودة فى مدح خالقها"(١) .

هذه هى الأدلة التى ساقها العلماء لبيان فساد الصدفة، ومع كثرتها وتنوعها توضح ضعف هذا القول وتهافت قائليه ، لاسيما وأن الطبيعة كتاب مفتوح تشهد بفساده فضلاً عن أنهم لا يقولون به فى أقل الأشياء كالجهاز الآلى مثلاً فما بالنا بهذا الكون الفسيح.

(جـ) الأدلة النقلية على فساد القول بالصدفة.

لقد حوى القرآن الكريم كثيراً من الدلائل التى تضيف إلى الخلق والإبداع العناية والقصد فى الكون بما فيه

قال تعالى :﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾(٢).

وفيما يلى عرض للنماذج متعددة لأثار الله فى كونه لفت القرآن الكريم بها الأنظار إلى وجود الله تعالى . من هذه النماذج.

أ-إيجاد المخلوقات من العدم.

قال تعالى ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾(٣).

وقال تعالى ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾(٤).

ففى هذه النماذج بيان كاف إلى قدرة الله تعالى فهذه الحيوانات أشرف الأجسام الموجودة فى العالم السفلى بعد الإنسان لاختصاصها بالقوى الشريفة وتختلف فيما

---

(١) محاورات فى الدين الطبيعى -ديفيد هيوم ترجمة وقدم د/محمد فتحى الشنيطى صـ٦٤ ملتزم الطباعة والنشر. مكتبة القاهرة الحديثة ط١ مايو ١٩٦٥م.

(٢)سورة القمر الآية ٤٩ .

(٣)سورة النحل الآية ٨.

(٤)سورة المؤمنون الآيات ١٢-١٤ .

بينها وتؤدى عملها بانتظام وخلقها الله تعالى لمنافع كثيرة للإنسان فيها المطعوم والمشروب والملبوس فكل هذا تم مصادفة لا يعقل هذا (١) .
ثم خلق الإنسان بهذه الهيئة والكيفية ومراحل تكوينه المختلفة.فكل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة باطنة وظاهرة تشهد بوجود موجد له وهو الله تعالى(٢).

ب- إيجاد هذه المخلوقات على نظام بديع.

لقد جعل القرآن من إيجاد هذه المخلوقات على النسق التى هى عليه دليل على وجود مبدع أبدعها وهو الله تعالى.

قال تعالى : ﴿تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجا وقمراً منيرا وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا﴾ [٣].

فهذه السماء بما اشتملت عليه من الكواكب ومنازل لهذه الكواكب، بالإضافة إلى الشمس والقمر؛ فضلاً عن تعاقب الليل والنهار بصورة منظمة ملفتة للأنظار تؤكد وجود خالق لها على أسس محكمة ودقة لا مثيل لها. الأمر الذى يستوجب الإقرار بوجوده والشكر على هذه النعم العظيمة (٤).

جـ- العناية بهذه المخلوقات وتنظيم شئونها.

وذلك الأمر واضح فى آيات كثيرة منها قوله تعالى :

﴿أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون...﴾ [٥] ففى هذه الآيات يوضح الله تعالى أنه المتفضل على المخلوقات وذلك بالعناية بها والإشراف عليها ، ويتجلى ذلك

---

(١)أنظر: تفسير الرازى م ١٠ جـ١٩ صـ٢٣٩-٢٤٠.
(٢)أنظر: تفسير الكشاف جـ٣ صـ١٧٨ عند تفسيره للآيات ١٢-١٤ من سورة المؤمنون .
(٣) سورة الفرقان الآيتان ٦١ - ٦٢.
(٤) انظر: تفسير الزمخشرى .جـ ٣ صـ ٢٩٠ ، تفسير الرازى م. ١٢ . جـ٢٤ صـ ١٠٧-١٠٨.
(٥) سورة الواقعة الآيات ٦٣ – ٦٥.

بوضوح في عملية الزراعة وذلك من خلال إنباته للنبات فى الأرض وحفظه وبقائه رحمة للناس (١).

هذه بعض النماذج القرآنية التى توضح فساد القول بالمصادفة وبطلانها ، والتى تؤثر بوجود القصد والعناية فى هذا العالم بما فيه.

٢- شبهة الطبيعة:

من بين الشبه التى تمسك بها الملحدون لإنكار وجود الله تعالى شبهة الطبيعة فالكون على صورته هذه ليس من صنع إله وإنما هو من الطبيعة فهى العلة الخالقة له.

وواقع الأمر أن هذه الشبه أيضا ليست حديثة أو معاصرة وإنما هى شبه قديمة تمتد جذورها إلى الطبيعين الأوائل الذين ردوا أصل العالم للطبيعة على اختلاف بينهم هل هو الماء أو الهواء أو النار أو التراب(٢)

كما وجدت أيضا هذه المقالة لدى بعض الدهرية فقالوا إن الخالق لهذا العالم الطبائع الأربع، وهى الماء والنار والأرض والهواء فامتزجت هذه العناصر القديمة وتركب منها العالم(٣)

وعلى هذا الأساس ظهرت فلسفات إلحادية متعددة تنكر الخالق بدعوى أن الطبيعة أوجدت نفسها من غير حاجة إلى تدخل إله.

ومن هذه الفلسفات فلسفة النشوء والارتقاء التى تدين بهذا الرأى وتدافع عنه.

إن الحياة نشأت فى أول الأمر من خمسة أو ستة أصول تامة الخلق ومنها تفرع سائر الأحياء الموجودة والبائدة بفعل نواميس الطبيعة(١).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير جـ ٤ صـ ٤٦١ – ٤٦٢.

(٢)انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية- وولتر ستيس- صـ ٢٩-٣٦ ترجمة مجاهد عبد المنعم دار الثقافة للنشر والتوزيع ط٤ ١٩٨٤م، الطبيعة وما بعد الطبيعة يوسف كرم صـ ١٠-١١ دار المعارف ط٣.

(٣)انظر: التمهيد لقواعد التوحيد- للأمشى صـ٥١، أصول الدين-للبغدادى صـ٥٢-٥٣ بحر الكلام- للنسفى صـ ٨٩.

فالطبيعة "هى التى قد اصطفت من بين جماع الأفراد...طائفة معينة قد تصادف اتفاقا أن توافرت فيها الشرائط اللازمة والاستعداد الضرورى للصورة والحياة... والطبيعة هى التى اختارات وميزت هذه الطائفة وجعلت من نسلها طائفة باقية جاءت فيها هذه الصفات أقوى من غيرها " (٢)

وعلى هذا الأساس فسرت هذه الفلسفة الوجود كله برده إلى الطبيعة وحدها بدعوى أن ما يتخيل وراءها وهم لا وجود له؛ فكل شئ محصور فى الطبيعة بل إن الإنسان ثمرة القوى الطبيعية وأن طبيعته المعنوية ليست إلا مظهراً من مظاهر طبيعته المادية(٣) .

والطبيعة تعمل لا يتطلب صانعا عاقلاً بل على العكس من ذلك فكل موجود بذاته ونظام الأشياء المزعوم فى الطبيعة ليس أكثر من إسقاط لميولنا الذاتية ومن الممكن تفسير كل شئ تفسيراً كافيا بقوى الجذب والتنافر فى المادة نفسها دون افتراض أى إله على هيئة طاغية روحى قوى يتحكم فى عبيده(٤) .

هذه هى شبهة الطبيعة كما عرض لها أصحابها، وكما هو واضح نلمح فيها مدى النزعة المادية التى يتمسكون بها.

وفيما يلى عرض لبيان بطلانها متبعين فى ذلك المنهج الذى اعتمدناه وهو بطلانها بالأدلة العقلية ثم الأدلة العلمية وأخيراً الأدلة النقلية.

الرد على الشبهة:

---

(١)فصل المقال فى فلسفة النشوء والارتقاء. أرنست هيكل صـ ١٤ نقله إلى العربية حسن حسين مطبعة الشباب ١٣٤٢هـ-١٩٢٤م.

(٢)نفس المصدر ٣٠-٣١.

(٣)انظر : على أطلال المذهب المادى. محمد فريد وجدى جـ١ صـ١٧.

(٤)انظر :الله فى الفلسفة الحديثة- جيمس كولينز صـ ٢١٩ .ترجمة فؤاد كامل- دار قباء للطباعة ط٢ ١٩٩٨م.

أ-الأدلة العقلية.

لقد ساق علماء الكلام جملة من الأدلة التى تبطل هذه الشبهة ومن بين هذه الأدلة ما يلى:

١- **أن الطبيعة لا تصلح علة للعالم**:فالقول بأن الطبيعة هى العلة الفاعلة مجرد فرض لا أساس له من الصحة فهو لا يستند إلى دليل، فضلاً عن ذلك فقضية الخلق قضية عقدية، والعقائد لا تبنى على الفروض.

فالطبيعة لا تخلو أن تكون معنى معدوما أو موجودا، فإن كانت معدومة فليست بشيء ولا يصح أن ينسب إليها فعل شئ لأنه لو جاز ذلك جاز وجود الحوادث من كل معدوم وعن كل معدوم فما يقع عليه هذا الاسم فليس بذات ولا يختص ببعض الأحكام والصفات فلو كان فيه ما يحدث الأفعال أو تجب عنه لصح ذلك من كل معدوم وذلك باطل باتفاق. وإن كانت الطبيعة معنى موجوداً لم تخل تلك الطبيعة الموجبة عندهم لحدوث العالم من أن تكون قديمة أو محدثة فإن كانت قديمة وجب أن تكون الحوادث الكائنة عنها قديمة؛ لأن الطبيعة لم تزل موجودة ولا مانع من وجود الحوادث الموجبة عنها فيجب وجودها مع الطبيعة فى القدم وإن كان الطبع محدثا فلا يخلو أن يكون حادثا عن طبع أولا عن طبع فإن كان حادثا عن طبع أوجبه وجب أن تكون تلك الطبيعة كائنة حادثة عن طبيعة أخرى. إلى ما لانهاية وهذا يحيل استحالة العالم لأنه متعلق بوجود ما لا غاية له وقد ثبت استحالة خروج ما لا غاية له فى الوجود، وإن كانت الطبيعة الموجبة لحدوث العالم حادثة لا عن طبيعة أو جبتها جاز أيضا حدوث العالم لا عن طبيعة أوجبته وهذا يبطل قولهم بإثبات طبيعة حدوث العالم عنها(١)

وهذا الدليل يلزم عنه مجالات كثيرة أهمها:

أ) القول بأن المعدم يمكن أن يحدث عنه الأفعال فيما إذا قالوا بأن الطبيعة معنى معدوم.

(١)انظر: تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل- للباقلانى صـ ٥٣-٥٦ تحقيق الشيخ عماد الدين أحمد حيدر- مؤسسة الكتب الثقافية.

ب)القول بقدم العالم. ج) القول باستحالة حدوث العالم.

د) القول بجواز حدوث العالم لا عن محدث(١)

(٢) الاختلاف المشاهد فى الطبيعة.

فالناظر فى الطبيعة بدون أدنى تأمل يستطيع أن يقف على أن هذا العالم لا يمكن أن تكون أحدثته تلك الطبيعة التى نشاهد فيها التناقض والاختلاف والتغاير وغير ذلك فنحن نشاهد "أشياء تتفاسد وتتناثر فى الشتاء مثل الأشجار والحشيش، والكلأ وبعضها لا يتفاسد كالأس والصنوبر والعرعر والبقول والزرع فلو كان ذلك من طبع وجب أن لا يختلف حكم النبات والزرع فلما اختلف دل أنه من تقدير صانع قدير، وكذلك رأينا الأشجار فى مكان واحد ثمارها وألوانها وطعمها مختلف والماء والهواء والأرض وحرارة النار واحدة فلو كان ذلك من طبع. يجب أن لا يختلف حكم الثمار والألوان فلما اختلف دل على أنه من تقدير صانع قدير" (٢)

وهكذا نجد العلماء يستدلون بحركة الاختلاف الموجودة فى العالم على القول بالطبيعة فلو كانت هى العلة الموجدة له لما حدث اختلاف وتمايز بين الأشياء بعضها والبعض الآخر.

٣- القول بالطبيعة يعتمد على الصدفة .

وقد أشار البحث إلى فساد هذا القول؛ لأن هذا النظام العجيب والترتيب الدقيق الذى حارت فيه العقول فكيف ينسب إلى الصدفة أو يرد إلى الطبيعة؟

وهذا السؤال الأخير هو الذى حير الملاحدة ولم يجدوا بداً من الإقرار بوجود خالق عظيم لهذه الطبيعة التى نشاهدها.

---

(١)الباقلانى وآراؤه الكلامية. رسالة دكتوراه- إعداد د/ محمد رمضان عبد الله صـ ٣٧٩. مطبعة الأمة بغداد ١٩٨٦م.

(٢)بحر الكلام. أبى المعين النسفى صـ ٨٩ دراسة وتعليق د/ ولى الدين محمد صالح مكتبة دار الفرفور ط٢ ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

فنظام الطبيعة وترتيبها العظيم، والقصد الواضح فيها لمن أوضح الأدلة على وجود صانع عاقل أوجدها الآن.

"فجميع الأشياء الطبيعية تساق فى الكون إلى غاية وخير، وليس يكون شيء منها جزافا ولا اتفاقا إلا فى الندرة بل لها ترتيب حكمى وليس فيها شيء معطل لا فائدة منه" (١)

بل كل ما فيها يجري بحكمة مراده، ولغاية مقصودة مما ينافى كون الطبيعة علة لهذا العالم بما فيه.

ب-أدلة العلم التجريبي :

١ - حاجة الطبيعة إلى تفسير.

دلت الأبحاث العلمية الحديثة أن نسبة الخلق إلى الطبيعة قول عاجز فتعليل الحوادث بالأسباب والقوانين الطبيعية لا يكفى فى تفسير نشأة الكون واستمرار وجوده؛ فالأسباب والقوانين الطبيعية نفسها فى حاجة إلى تفسير.

يقول بعض الباحثين: "إن الطبيعة حقيقة من حقائق الكون وليست تفسيراً له ، ...والحقيقة أن ادعاء الإنسان بعد كشفه لنظام الطبيعة أنه قد كشف تفسير الكون ليس سوى خدعة لنفسه فإنه قد وضع بهذا الإدعاء حلقة من وسط السلسلة مكان الحلقة الأخيرة"(٢) .

إن أصحاب المذهب الطبيعي والذين يرفضون الإيمان بوجود قوة خالقه لهذه الطبيعة، ويدعون أنهم يتمشون مع العلم هم الذين أقروا بأن الطبيعة نفسها بحاجة إلى تفسير فأى تناقض هذا.

---

(١)النجاة-لابن سينا صـ١٣٨ نقحه وقدم له د/ ماجد فخرى-منشورات دار الآفاق الجديدة. بيروت ط١ ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

(٢)الإسلام يتحدى وحيد خان صـ ٣١-٣٢ . ترجمة ظفر الإسلام خان .المختار - الإسلامى للطباعة ط٣ ١٩٧٣م.

"إن النتيجة الطبيعية لوقوف العلم المادى عند تفسير الظواهر دون تعليلها يؤدى إلى إفساح المجال أمام العقل لتلمس علة مقبولة خارجة عن دائرة الطبيعة موضوع البحث ، وإدراك هذه العلة إنما يكون بوسائل غير التى تدرك بها المسائل المادية فى دراسة العلوم الكونية؛ لأن المجالين مختلفان فالبحث فى كيان الإنسان الداخلى لا يخضع لما تخضع له عناصر الطبيعة"(١) .

وبالتالى القول بأن الطبيعة هى العلة الخالقة قول ساقط ليس له أى أساس علمى أو عقلى يعتمد عليه، ويكفى تدليلا على فساد شهادة العلوم التجريبية ببطلانه.

٢ – انتظام القوانين الطبيعية ودقتها.

لقد استطاع العلماء من خلال الأبحاث التى قاموا بإجرائها على الطبيعة بمظاهرها المختلفة إلى الانتهاء عن نفى صفة الخلق عن الطبيعة معتمدين فى ذلك على انتظام القوانين الخاصة بها.

فالطبيعة تخضع لجملة من القوانين التى تسير عليها وفق نظام لا يختلف فهى تخضع لنظام ثابت لا يقبل الاستثناء أو الاحتمال أو التقلب مع الهوى .... كما أن هذا النظام عام بمعنى أن كل ظاهرة طبيعية تخضع لقانون محدد وأن هناك طائفة من الأسباب تقابلها طائفة من النتائج(٢) .

"إننا نعيش فى دنيا مثيرة للاهتمام فكثيرة جداً الأشياء المتنوعة ، فتسترعى انتباهنا فثمة نباتات وحيوانات وصخور والات وأشياء أخرى كثيرة وكلها تخضع لنظام

(١)الإيمان والتطور العلمى . د. محمد عبد الستار نصار صـ ٣٣٤ بحث ضمن أبحاث حونيه كلية الشريعة الإسلامية.جامعة قطر.

(٢)انظر : المنطق الحديث ومناهج البحث د. محمود قاسم صـ ٦٢. نشر الأنجلو المصرية ط٢ ١٩٥٣.

دقيق فنحن نعيش فى عالم فى غاية الدقة يخضع لجميع أسس التعليل فنظام الكــون أعظم النظم دقة"(١) .

ولا يمكن رد هذه النظم إلى الطبيعة لعجزها وحاجتها إلى تفسير ، كمـــا لا يمكــن ردها إلى المصادفة لما هو معروف عنها بأنها تخبط محض ، وعلى هذا فالطبيعــة التى نعيش فيها ونشاهدها تستلزم عقلا مدبرا يقوم على أمرها فهى لا تســتطيع أن تسير وفق قوانين ثابتة وأنظمة دقيقة من تلقاء نفسها ولذا فالعلوم الحديثة تعود مــرة أخرى لتؤكد على أن الطبيعة تقر "بوجود عقل يوجه الكون بأكمله وجميع النواميس وجميع خواص المادة إلى غاية ونحن نطلق على هذا العلم أسم الله"(٢) .

فالقوانين فى العالم الطبيعى تعبر عن هذا الميل تجاه خالقها وهو الله تعالى (٣).

٣ – عملية الخلق التى تجمع بين النطفتين.

فقد أكد كثير من العلماء المنصفين أن هذه العملية تتم على نحو معين ، وبطريقـــة خاصة لا يمكن لقوة محسوسة أن تتدخل فيها، ولا تستطيع الطبيعة أن توجدها فهى عملية فذة تدل على قدرة مطلقة وصنعة محكمة وتؤدى عملها فى ظلام لا مثيل لــه الأمر الذى ينهض دليلاً على وجود قوة خارجة تتصف بصفات خاصة.

فقد جمعت "بين الحيوان المنوى وبين البويضة التى لا تكاد تُبين، والتى تستقر فــى دهليز طويل وعريض ومظلم أشبه ما يكون بشارع عريض وفيه حبة بندق تســعى إليها جموع من النمل المتناهى فى صغر حجمه !! فكيف يتــم ذلــك؟ وهــل فــى البويضة منارة تبدد ظلمات الليل لتهتدى إليها السفن التى تشق عباب البحــر! أم أن رؤوس الحيوانات المنوية مزودة بمصابيح أمامية وخلفية كما فى السيارات أم ماذا؟!

---

(١) انظر : العلم فى حياتنا. أ. أوريون وآخرون جــ٢ صــ ٥١٤. ترجمة د. أحمد حماد حسين. مراجعة د. عبد الحليم منتصر . نشر مكتبة النهضة المصرية ط٢ ١٩٦٢ ، العلم أسراره وخفاياه جــ١ صــ ١٦ .

(٢)العلم فى متطوره الجديد . روبرت م. أغروس وآخر صــ ٦٨-٦٩.

(٣)التطور الخالق. هنرى برجسون . ترجمة د. محمود قاسم. صــ ٢٤٩ مراجعة د. نجيب بلدى. الجمهورية العربية المتحدة وزارة الثقافة والإرشاد الإدارة العامة للثقافة.

إنه الخلق الفذ والقدرة الإلهية"(١). لا الطبيعة التى تملك من أمرها شيئاً فكيف بأمر غيرها .

٤ – مبدأ الحتمية.

دلت الأبحاث الحديثة أن كل حادثة فى الكون فإنما هى ناتجة عن علة أدت إليها على سبيل الضرورة والحتم ؛ فكل سبب حتماً له مسبب نتج عنه .

ومعنى هذا "أن لكل نتيجة مقدمة ، ولكل ظاهرة سبب وهذه حقيقة ثابتة وأزلية لا يختلف فيها اثنان فأية ظاهرة كونية مادية كانت هذه الظاهرة أو معنوية لا توجد بذاتها بل لا بد من توافر شروط أو مقدمات أو أسباب حتى نرى الظاهرة أو نحس بها ، والظاهرة لكى توجد لا بد لها من حدوث سلسلة من الأسباب المترابطة بحيث يكون كل سبب منها نتيجة لسابقه أو مقدمة أو سببا للاحقة ؛إذن لا بد من بداية لهذه السلسلة السببية حتى تنتهى أخرتها بالنتيجة أو الظاهرة المتوقعة ؛ أى لا بد من وجود سبب أول حتى تتتابع بقية الأسباب"(٢)

وعلى هذا فإن كل الظواهر والعمليات التى تحدث فى الطبيعة فى أى لحظة من اللحظات مشروطة بشروط وتخضع لقوانين ثابتة مما يعنى أن الطبيعة لا تصلح أن تكون هى الخالقة فكل شئ فى الوجود يرد إلى العلة والمعلول ، وكل حدث متى توافرت شروطه وقع لا محالة(٣) .

---

(١)الإعجاز الإلهى فى خلق الإنسان د. محمد نبيل النشوانى صـ ٢٤. دار القلم دمشق ط١ ١٤٢٢هـ – 2001 م.

(٢)القرآن والسلوك الإنسانى. محمد بهائى سليم صـ ٣٤٨. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.

(٣) انظر المعجم الفلسفى. مجمع اللغة العربية صـ ٦٧. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية. ١٩٨٣م ، الموسوعة الفلسفية د/ عبد المنعم الحفنى صـ ١٦٧. مكتبة مدبولى. القاهرة ط١ ، الحثيث فى المنطق الحديث د/ محمد حسينى صـ ٢٩٧ – ٢٩٨ ط آل بسيونى للكمبيوتر ط ١٤٢٣ هـ – 2002 م.

وقصارى القول : إن هذا النظام الموجود بها يحتم وجود الله تعالى ؛ فهو الذى نسند إليه خلق الحياة والطبيعة بظواهر مختلفة وقوانينها المتعددة ، فلهذه الطبيعة نظام عام يسودها وقوانين تحكمها ونسيطر عليها.

هذه بعض الأدلة العلمية التى استدل بها العلماء على فساد هذه الشبهة. وواقع الأمر أن المتصفح للكتب العلمية يجد مجموعة أخرى من الأدلة منها التباين الموجود فى الكائنات والجمال الذى تظفر به الطبيعة(١)

جـ- الأدلة النقلية على فساد الشبهة:

تعددت الأدلة النقلية التى توضح فساد هذه الشبهة ومنها قول الله تعالى حكاية عن إبراهيم وولده إسحاق عليها السلام.

١- ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ (٢)

فهاتان الأيتان توضحان أمراً مهما ينفى فعل الطبيعة وهو أن البر يلد الفاجر والفاجر يلد البر.

يقول صاحب الكشاف عند تفسير هذه الأية: "وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيب لا يجرى أمرهما على العرق والعنصر ، فقد يلد البر الفاجر والفاجر البر، وهذا مما يهدم أمر الطبائع والعناصر، وعلى أن الظلم فى أعقابهما لم يعد بعيب ولا نقيصة وأن المرء يعاب بسوء فعله ويعاتب على ما اقترفت يداه لا على ما وجد من أصله وفرعه"(٣) .

---

(١)انظر: العلم فى حياتنا أ- أوريون واخرون . جـ٢ صـ ١٥٤ - ١٥٥ ؛ الجواب الإلهى أو الإسلام أمام العلم والفلسفة . نديم الجسر صـ 152. ١٤٨ - مطبعة مصر ط٢ ١٣٧٦ هـ- ١٩٥٧م، العلم فى منظور الجديد صـ ٦٨ - ٧٨؛ حتى نفهم الإسلام. فريد هوف . نقله إلى العربية صلاح الصاوى صـ ١٦٠ - ١٦٤ .الدار المتحدة للنشر ط ١٩٨٠م.

(٢)سورة الصافات الأيتان ١١٢- 113 .

(٣)تفسير الكشاف - للزمخشرى جـ٤ صـ ٥٩.

٢- قال تعالى: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ [١].

فهذه الآية ترد على الطبيعيين بأسلوب واضح وذلك من خلال لفت الأنظار إلى الاختلاف فى رزق المعاش فى الحياة الدنيا ؛ فهذا التباين الموجود يؤكد على أن المتولى لقسمة الرحمة وتفاوت الأرزاق بين الناس لا يصلح أن تكون الطبيعة فلا "يتولاها إلا الله بباهر قدرته وبالغ حكمته" (٢) خصوصاً وأننا نشاهد أمراً عجباً وهو غنى الأحمق وفقر صاحب العقل الراجح وهذا ليس راجعاً لقلة سعى صاحب العقل الرشيد أو لضيق أفقه . مما يدل على أن الأمر يرجع لقوة خارجة تعلم ما ينفع العباد ومالا ينفعهم.

هذه هى بعض الأدلة النقلية التى توضح فساد القول بالطبيعة لعجزها فالطبيعة عاجزة عن أن تدبر أمرها فكيف لها أن تدبر أمر غيرها هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فالطبيعة صماء عمياء ، ومعنى هذا أنها لا تصلح أن تكون علة لنفسها ومن باب أولى لا تكون علة لغيرها. إن نظامها الواضح لبرهان ساطع على أنها مصنوعة بأمر الله تعالى وما أروع قول القائل: "إن السماوات والأرض لتجتمع فى شهادة واحدة وجوف الطبيعة ترتل بكامنها أنشودة فى مدح خالقها" (٣)

٣- شبهة الشر

مشكلة الشر مشكلة قديمة جداً كما أنها من المشكلات التى تطرح نفسها على العقل الإنسانى فى كل عصر، لذا فقد عرضت لها جميع الرسالات السماوية والمذاهب الفلسفية واختلفت حولها الآراء وتعددت فيها وجهات النظر مع أنها فى واقع الأمر قضية إيمانية فى المقام الأول ، ولو نظر إليها على هذا الأساس ما حدث حولها هذا الاختلاف وما اتخذها المنكرون لوجود الله تعالى أساساً يركزون عليه.

---

(١) سورة الزخرف الآية ٧٠.

(٢) تفسير الكشاف جـ٤ صـ ٢٤٨.

(٣) محاورات فى الدين الطبيعى. هيوم . صـ ٦٤. ترجمة د/ محمد فتحى الشنبيطى ملتزم الطبع والنشر مكتبة القاهرة الحديثة. ط ١٩٥٦.

فشبهة الشر قديمة واجهت العقل الإنسانى منذ "أن عرف التفرقة بين الخير والشر، وعرف أنهما صفتان لا يتصف بهما كائن واحد" (١).

"ولا نظن أن عصراً من العصور يأتى غداً دون أن تعرض فيه هذه المشكلة على وجه من الوجوه وأن يدور فيه السؤال والجواب على نحو قديم جديد" (٢).

فهذه الشبهة قديمة وقد وجهها الملحدون إلى دليل العناية زاعمين عدم وجوده تعالى لعدم عنايته بالعالم.

فالمتأمل فى العالم يجد ألواناً كثيرة من الشرور والآلام التى تصيب الناس مما يعنى خلوه من سمات القصد والتدبير مما يدل على قيامه بنفسه دون قوة خارجة عنه.

وقد وجدت هذه الشبهة لدى الطبيعيين الذين أنكروا أن تكون أحداث الطبيعة قد حدثت عن قصد وتسير لغاية وتعمل لحكمة، وآية ذلك العاهات الموجودة، والتشويهات المبثوثة فى بعض أنواع الطبيعة فلو كانت هناك عناية لما ظهرت هذه الصورة الشريرة كالمطر الذى ينتج عنه إغراق البيوت والحقول، وغير ذلك من ألوان الشرور التى اتخذها البعض ذريعة إلى جحود الخالق والتدبير (٣).

وإذا كانت هذه النزعة وجدت قديما عند الطبيعيين فقد وجدت أيضا عند طائفة تسمى المنانية "فأنكرته ما أنكرته المعطلة من المصائب والمكاره التى تصيب الناس فكلاهما يقول: إذا كان للعالم خلاق رءوف رحيم فلم تحدث فيه هذه الأمور المكروهة؟ (٤).

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: أ. عباس العقاد صـ ٨ طبعة خاصة تصدرها دار نهضة مصر ضمن مهرجان القراءة للجميع صيف ١٩٩٩.

(٢) عقائد المفكرين فى القرن العشرين أ - العقاد صـ ٧٩ نشر دار الكتاب العربى ط٣ ١٩٧١.

(٣) انظر: الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير للجاحظ صـ ٦٠-٦١، مكتبة الكليات الأزهرية ط ١٩٨٧م ١٩٨٨، السماع الطبيعى لابن سينا الفن الأول من الطبيعيات تحقيق سعيد زايد صـ ٦٨-٦٩ الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٣م.

(٤) انظر: الدلائل والاعتبار للجاحظ صـ٦٢.

وهذا الاتجاه هو ما تمسكت به بعض الاتجاهات الفلسفية الحديثة كنظرية التحليل النفسي التي أنكرت وجود الله تعالى وعنايته بالكون لوجود الشر فيه.

فوجود الشر يستبعد فكرة إله ...... وحقيقة الشر تتنافى مع عناية الله فليس للإله علم بالكون ، والكون لا يحمل أى شبه بالإله يمكن أن يكتشفه العقل الإنساني ويستخدمه كأساس برهان عقلي على وجود الإله (١).

إن وجود الشر في العالم يستبعد فكرة إله والقدرة على العناية بالعالم وحيث إن الأمر كذلك فلا قدرة له ولا إرادة.

الرد على الشبهة

أ-الأدلة العقلية

يمكن بيان فساد هذه الشبهة بالأدلة العقلية من خلال بيان الحكم الموجود في الشرور وهي على النحو التالي:

١- إن الشر هو تمام الخير

فقد ذكر "ابن سينا" في رسالته المسماة بالرسالة العرشية حقائق التوحيد وإثبات النبوة الحكمة من وجود الشر في العالم ليتحقق الخير فيقول:

"وأن هذه الشرور الحاصلة في بعض الموجودات، وإن كان حصولها على سبيل الوجوب واللزوم، لكنها غير خالية عن حكمة تامة – بها يكون قوام العالم ولولا تلك الحكمة لما وجدت هذه الشرور لأن الخيرات هي مبادئ الشرور فعند استيفاء الخيرات أو انتهائها ربما ظهرت الشرور وربما خفيت"(٢).

---

(١) انظر: الله في الفلسفة الحديثة . جيمس كولينز . ترجمة فؤاد كامل صـ ٦٦-٦٧دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ط٢ ١٩٩٨م.

(٢) الرسالة العرشية في حقائق التوحيد وإثبات اللنبوة – لابن سينا صـ ٣٨-٣٩ تحقيق وتقديم د/إبراهيم هلال. بدون طبعة.

ومعنى هذا أن الشر هو تمام الخير الذى يتحقق بوجوده وينعدم بانعدامه فلا معنى للحب بغير الكره ، ولا معنى للتفوق بغير الفشل، وكذا لا معنى للأمانة بغير الخيانة وهكذا فالآلام والشرور التى نراها فى العالم لها قيمتها .

٢- إن وجود الشر فى العالم أمر عارض فضلاً عن كونه ليس شراً مطلقا فالمتأمل فى العالم يجد أن المقصود فيه قصداً أولياً هو الخير، بخلاف الشر فهو ليس مقصوداً بالذات ، وإن قصد بالعرض لتحقيق خير كثير مقصود لذاته يقول ابن سينا: الأمور الممكنة فى الوجود منها أمور يجوز أن يتعرى وجودها عن الشر ، والخلل والفساد أصلاً ، ومنها أمور لا يمكن أن تكون فاضلة فضيلتها إلا وتكون بحيث يعرض منها شر ما............ وذلك مثل خلق النار فإن النار لا تفضل فضيلتها ، ولا تكتمل معونتها فى تكميل الوجود ، إلا أن تكون بحيث تؤذى وتؤلم ما يتفق لها مصادمته من أجسام حيوانية .... فالشر داخل بالعرض" (١) .

فالأصل هو الخير لكنه يظهر ويتراءى لنا من خلال عروض الشر له .

٣- إن الشرور يجب إضافتها إلى الإنسان ، فما يحدث من الآلام ترجع لطبيعة الإنسان ، لا لقصور فى العناية بالكون من قبل الله تعالى يقول ابن سينا.

"إن الشرور يجب إضافتها إلى الأشخاص والأزمان والطباع وأنه متى حصل نقص فى أحاد نوع ما كان ذلك النقص، عائداً إلى ضعف فى القابل وقصور فى المستعد، وإلا فالفيض عام من غير بخل به ، ولا منع عنه" (٢).

وبناء على هذا لا يصح إنكار ألوهيته أو نفى عنايته بالكون لوجود الشر فى العالم.

ب-أدلة العلم التجريبى :

لقد ساق العلماء جملة من الأدلة العلمية ، وذلك من خلال بعض الظواهر التى نشاهدها فى العالم، وجعلوا منها أدلة علمية تؤكد على أهمية الشر فى العالم، وأن وجوده لا يعنى إنكار وجود الله تعالى ، أو عدم عنايته بالعالم.

---

(١) انظر: الإشارات والتنبيهات -لابن سينا القسم الثالث صـ ٢٩٩-٣٠٥.

(٢) الرسالة العرشية فى حقائق التوحيد - لابن سينا صـ٣٩.

١- وجود الموت

فقد أكدت الأبحاث العلمية على أهمية الموت، فلولاه لاستحالت الحياة على خلاف ما يتشدق به المنكرون لوجود الله تعالى ؛ من أن الموت شر يدل على عدم عنايته بالعالم . فالموت له أهمية من عدة نواح منها كما يقول بعض العلماء: "لو أن ذبابتين توالدتا هما وأولادهما دون موت ، فإنه بعد خمس سنوات تشكل طبقة من الذباب حول الكرة الأرضية ارتفاعها ٥سم، وهو جنس واحد من المخلوقات ؛ فكيف إذا كانت المخلوقات كلها تتوالد ولا تموت؟" (١).

من خلال هذا تتضح الحكمة من الموت ومن وجود أسبابه التى ينتج عنها هذا من ناحية ومن ناحية أخرى معلوم أن الإنسان عندما بلغ سن الشيخوخة فى هذه المرحلة "تهرم خلايا الجسم وأنسجته بشكل ظاهر، وتتصادم أجهزته ، وتضعف كفاءتها الوظيفية ، وتقصر عن الوفاء بمتطلبات المرء ، والتكيف مع البيئة وأنشطتها" (٢).

مما ينتج عنه عدم الرغبة فى الحياة، والشعور باليأس وفقدان الأمل، حتى إنه يتمنى أن يجد خلاصا له من هذا الشعور ، فالموت ليس شرا كما يظن البعض ، وإن بدا فى ظاهرة ذلك وإنما هو خير.

٢- الزلازل والبراكين والشهب الخارقة

ظاهرة من الظواهر الدالة على قدرته تعالي ووجوده ، ينظر البعض إليها على أنها ، شر ويعتقد بذلك اعتقادا جازما، لكن الأمر على خلاف ذلك ، وهذا ما أكدته الأبحاث العلمية، فقد أثبتت أن الأمر خلاف ما يظنه الناس بالنسبة لهذه الظواهر فقد يظن البعض "أن البرق ليس أكثر من وسيلة من وسائل التدمير، ولكن التفريغ الكهربى الناتج عن البرق، يؤدى إلى تكوين أكاسيد النتروجين ، التى يهبط بها المطر ، أو الثلج إلى التربة، ويستفيد منها النبات ، وتقدر كمية النيتروجين التى تحصل عليها التربة، بهذه الطريقة ، فى صورة نيترات بما يقرب من خمسة أرطال

---

(١) الله – سعيد حوى صـــ ٦٥-٦٦ نشر مكتبة وهبة.

(٢) الموسوعة النفسية الجنسية د. عبد المنعم الحفنى صـــ ٣٧٦. مكتبة مدبولى ط٣ ٢٠٠٠م.

للفدان الواحد سنويا، وهو ما يعادل ثلاثين رطلاً من نيترات الصوديوم، وهذه كمية تكفى لبدء نمو النباتات".(١)

إن العلم الحديث يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أهمية وجود الشر فى العالم بل إنه يجعل من وجوده دليلاً على وجود الله تعالى وعنايته بالكون ، إن بعض الأمور قد تحدث ويظن البعض فى حدوثها شراً ؛ إلا أن الواقع العلمى يشهد بخلاف ذلك ، فالبرق والرعد ظاهرها العذاب ، ولكن النظرة العلمية تكشف عن مدى الخير الذى ينتج عنهما ، وبالجملة إن الشرور الواقعة عندما نتأملها جيداً ، وندقق النظر فيها نعلم أنها خير، وخير كثير.

٣- الرضاعة

بعض النساء ترفض إرضاع وليدها لا سيما فى المجتمعات الملحدة، فهى ترى فيها شراً لا مثيل له.

فمن ناحية ترى أن ذلك إهداراً لآدميتها وتشبيها لها بالبقرة وأن طفلها هو الذى يقوم بحلبها ، ومن ناحية أخرى ترى أن ذلك يقضى على جمالها ورشاقتها (٢).

والواقع خلاف ذلك فقد أكدت الأبحاث العلمية على عدة حقائق تتعلق بهذا الموضوع.

أ- وجود خير للطرفين من عملية الرضاعة

هذا ما أكدته الأبحاث العلمية ، فقد أثبت العلم الحديث "أن لبن الأم يقاوم شلل الأطفال ؛ حيث يوجد فى لبن الأم مادة مضادة لعدوى شلل لا ننكر أن الأبحاث لم يتعرفوا بعد على كنه هذه المادة وتركيبها ، ولكن لديهم من الأدلة العلمية ما يؤيد هذه النتيجة العلمية المفيدة" (٣).

---

(١) - الله يتجلى فى عصر العلم . ص ٢٤ .

(٢) انظر: الموسوعة النفسية الجنسية د.عبد المنعم الحفنى صـ ٢٩٩ – ٣٠٠، الإسلام والوقاية من الأمراض د. عز الدين فراج صـ ٢٠ دار الرائد العربى بيروت ط٢ ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م.

(٣) الإسلام والوقاية من الأمراض د. عز الدين فراج صـ ٢٠-٢١.

ب- أثبتت التجارب العلمية أن الأطفال الذين يرضعون من أثداء أمهاتهم أنضج وأكثر استقراراً من غيرهم. لأن لبن الأم " أكثر كمالاً، ويوفر المناعة للطفل كما يقدم الهرمون الناقص ، ويمنع من أن يتلف المخ نتيجة قلة الإفراز الدرقي" (١).

جـ- العلاقة الإيجابية بين الطرفين

فضلاً عن هذا توفر للأم وقتها ، وجهدها ، وتحفظ لها وليدها ، لا سيما وأن نسبة الدهن فى لبن الأم أقل "فنسبة الدهن فى لبن الجاموسة والنعاج ضعف نسبته فى لبن الأمهات"(٢).

كل هذا يؤكد أن الشر الموجود فى العالم ، فى الغالب لا يكون شراً وإنما أراده الله لحكمة يعلمها وغاية قصدها.
" فأحياناً يكون عقوبة لذنب من الذنوب، وأحياناً وسيلة مناسبة لبلوغ هدف معين، أى لمنع شر أعظم ، أو للحصول على خير أعظم، كذلك تكون العقوبة سبيلاً للإصلاح والترهيب ، والشر غالبا ما يكون سببا لإظهار الخير" (٣).

٤- وجود الشر يرجع لمخالفة السنن الكونية

كثير من الشرور التى تحدث فى العالم ليست ناتجة عن قصور فى العناية، الإلهية ، وإنما ترجع فى الغالب إلى مخالفة القوانين الإلهية، والسنن الكونية ، وهذا ما شهدت به الأبحاث العلمية مثلاً.

أ- مرض الإيدز

مرض الإيدز المعروف بمرض نقص المناعة، ينشأ عن فيروس يهاجم الجهاز المناعى فى الإنسان ، ولا يستطيع أن يقاومه الجهاز مما ينتج عن ذلك عدة أمراض أخرى خطيرة تنتهى بالقضاء على حياته، وقد أكدت الأبحاث العلمية ، أن هذا المرض يظهر لمخالفة الفطرة.

---

(١) الموسوعة النفسية د. عبد المنعم الحفنى صـ ٢٩٨.

(٢) الإسلام والوقاية من الأمراض د. عز الدين فراج صـ ٢٢.

(٣) دراسات فى الفلسفة الحديثة د. محمود حمدى زقزوق صـ١٤٣.الفكر العربى ط٣ ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

ولا يخفى على عاقل أنه يرجع إلى الاختلاط ، والجنس المحرم ، كالزنا الجماعى ، واللواط ، و السحاق(١).

ب- شرب الخمر

يشاع بين شاربى الخمر أن لها فوائد عظيمة للجسم، وواقع الأمر خلاف ذلك فهى توقع الضرر بالجسم، وتؤثر عليه وينتج عنها أمراض خطيرة كمرض القلب أو الكلى وغيرهما لهذا أوصت الأبحاث العلمية بضرورة البعد عنه كوسيلة غذائية .
فقد أثبتت هذه الأبحاث أن مدمنى الخمور والكحوليات هم أكثر الناس إصابة بالأمراض المختلفة وذلك "كالزكام ، والأنفلونزا ، والالتهاب الرئوى والنزلات الصدرية" (٢).

جـ- تصلب الشرايين

من بين الأمراض الخطيرة والتى تعد شراً عظيماً هذا المرض فقد يترتب عليه موت الإنسان، ومع شريته إلا أن الأبحاث العلمية أكدت على أن سببه يرجع إلى الإفراط فى الطعام بصورة مفرطة.
فتصلب الشرايين فى البشر ينجم عن تجاوزات أو اختلالات غذائية (٣)
وهذا يخالف السنن الإلهية قال تعالى :

﴿ ... وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ (٤)

جـ-الأدلة النقلية

لقد حوى القرآن الكريم كثيرا من الأدلة التى توضح وجود الله تعالى ، وأن وجود الشر لا يعنى عدم وجوده ، ولا يمنع من عنايته بالكون.

---

(١) انظر: فى رحاب القرآن إعداد حسين حسن سلامة صـ١٧٥. الهيئة المصرية العامة للكتاب مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٩م.

(٢) نفس المصدر صـ ٧٠.

(٣) انظر: ثورة فى الطب: كيلمرى . ماكى . ترجمة د. أحمد مستجير صـ ٣٨-٤٠ مهرجان القراءة للجميع صيف ١٩٩٠.

(٤) سورة الأعراف الآية ٣١.

١- قال تعالى: **﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾** (١).

فسياق الآية يوضح أن النفس لا تميل إلى القتال وتكرهه ، وتظن فيه شراً وإنما كان الأمر كذلك. لأن فيه إخراج المال، ومفارقة الوطن، والأهل ، والتعرض بالجسد للشجاج والجراح ، وقطع الأطراف وذهاب النفس؛ فكان كراهتهم لذلك .... لكن إذا عرف الثواب هان فى جنبه ما قساه من المشقات .... فلا نعيم أفضل من الحياة الدائمة فى دار الخلد والكرامة فى مقعد صدق (٢).

٢- قال تعالى : **﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾** (٣)

فالواضح من سياق الآية أن عملية الإعابة فيها خير حيث النجاة من الملك الغاصب، بينما الأمر يبدو من تصور العقل على أنه شر.

"فإذا تمت الموازنة بين ما يبدو من القصص القرآني، وبين تصور العقل؛ أمكن القول بأن فعل الإعابة كانت له بواعث؛ منها باعث الإنجاء من الغصب، وباعث المحافظة على مال المساكين وهو منهج أخلاقى فى أعلى إمكانياته" (٤).

يقول الزمخشرى "قيل كانت لعشرة أخوه خمسة منهم زمنى، وخمسة يعملون فى البحر ...... فأردت أن أعيبها خوفا من الغصب وحفظا لمال المساكين" (٥).

" وهذه الآية تكشف لنا عن وجهين فى مسألة واحدة وأن أحدهما كان ينظر إلى الأمور من خلال تجارب الحياة ، وأمور الطبيعة ، بينما الثانى كانت تقوده أمور غيبية ، وتحكمه قوانين عالية توازن بين متطلبات الحياة، وبين قدرة الله بحيث يخضع فى النهاية لأوامر عليا صادرة عن خالق حكيم" (٦).

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٦.

(٢) انظر: تفسير القرطبى جـ١صـ ٨٤٧ عند تفسير الآية ٢١٦ من سورة البقرة.

(٣) سورة الكهف الآية ٧٩.

(٤) منهج السلف فى إثبات وجود الله د . محمد الحسينى صـ ١٥٣.

(٥) انظر: تفسير الكشاف للزمخشرى جـ٢ صـ ٧٤٠ عند تفسيره للآية ٧٩ من سورة الكهف.

(٦) منهج السلف د. محمد الحسينى الغزالى صـ ١٥٣.

٤- شبهة حصر الموجود في المحسوس .

من بين الشبه التى أثارها المنكرون لوجود الله تعالى حصر الموجود المحسوس فقط وما عداه فلا وجود له. لأنه ضرب من اللهو والعبث على حد زعمهم.

فالعقل الإنساني لا يمكن أن يتصور "وجود شئ ليس بجسم ولا مادة ولا صورة جسم ولا مادة معقولة فى صورة معقولة ، ولا له قسمة فى الكم ولا فى الكيف فعله منه وليس متصلاً به" [١]

وواقع الأمر أن هذه النزعة قديمة قدم الفلسفة نفسها وتشكلت معها منذ البدايـات الأولى لها. فالإيمان بالمحسوس مذهب فى الفلسفة العلمية أقيم فـى سـبيلها ومـن أجلها. ويمكن تتبع أثار هذا المذهب مع الفلاسفة الذين نادوا بالحواس سبيلاً للمعرفة الحقة منذ السوفسطائيين الذين قصروا المعرفة على الحواس وأنكـروا أى معرفـة أخرى تقع خارج نطاق الحس [٢] ثم انتقلت هذه النزعة إلى البيئة العربية ووجـدت لدى الدهرية الذين آمنوا بالمحسوس فقط وقالوا: "لا عالم سوى ما هو فيـه مـن مطعم شهى ، ومنظر بهى ، ولا عالم وراء هذا المحسوس" [٣] كما وجـدت هـذه النزعة لدى السمينة والبراهمة وقالوا: "لا طريق لمعرفة الأشياء إلا بالحس" [٤]

---

(١)الرسالة الحميدية فى حقيقة الديانة الإسلامية وحقيقة الشريعة المحمدية. للشيخ حسين الجســر صــ ٢١٩ ط٣ ١٩٨٥م.

(٢)انظر: قصة الحضارة . ول ديورانت م٤ جـ ٧ صـ ٢١١-٢١٧ ترجمة محمـد بـدران. الهيئة المصرية العامة للكتاب . مهرجان القراءة للجميع صيف ٢٠٠١ ، موسوعة الفلسـفة د/ عبد الرحمن بدوى جـ١ صـ ٥٨٦-٥٨٨، نشأة الفكر الفلسفى عند اليونان د/ سامى النشار صـ ٢٣٣ - 234 منشأة المعارف الإسكندرية.

(٣)الملل والنحل – للشهر ستانى جـ٢ صـ ٣٠٥.

(٤) التمهيد للامشى صـ ٤٣.

والمتأمل فى هذه التيارات يجد أنها اعتمدت على أن المادة وحدها هى الجوهر الحقيقى الذى يفسر به جميع ظواهر الحياة ، وجميع أحوال النفس ؛ كما أنها ترفض وجود الله تعالى لكونه ليس مادياً.

وعلى هذا الأساس ظهرت فلسفات مادية الحادية فظهرت البراجماتية[1] والوضعية المنطقية [2] وغيرهما من أصحاب النزعات المادية الذين دانوا بهذه العقيدة فها هو وليم جيمس [3] يقول:

لقد ارتضيت فيما يتعلق بالمعرفة المذهب التجريبى ، وآمنت بنظرية عملية وهى أنه يجب علينا أن نسير فى تجاربنا ، ونمضى فى تفكيرنا حول هذه التجارب ؛ لأن أفكارنا وآراءنا لا تتطور وتتدرج نحو الكمال إلا بهذا السبيل ، فكل معرفة تأتى من غير هذا الطريق خطأ عظيم ، وعندى أن تاريخ الفلسفة يشهد بذلك[4]

---

(1)البراجماتية: هى تلك الفلسفة التى تقوم على اعتبار الفكرة لا وجود لها إلا بمقدار ما تحققه من منفعة عملية فى الواقع لذا فلفظ براجماتى لا يعنى إلا قاعدة إرجاع كل تفكير وكل الاعتبارات التأملية إلى نتائجها للمعنى النهائى والاختبار على ضوء التجربة لأن الطريقة البراجماتية فى مجملها محاولة لتفسير كل فكرة بتتبع واقتفاء أثر نتائجها العملية.
(انظر: قاموس جون ديوى للتربية صـ ٤٥-٤٦ . جمع رالف .ن. وين ترجمة وتقديم د/محمد على العريان. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٤م ، البراجماتية – وليم جيمس صـ ٩٣-٩٤. ترجمة د/ محمد العريان د/ زكى نجيب محمود – نشر دار النهضة العربية ١٩٦٥).

(2)الوضعية المنطقية اتجاه فلسفى معاصر يقوم على أساس التجربة ، وينظر إليها على أنها المصدر الوحيد للمعرفة ، وليس للعقل من عمل إلا مجرد تنسيق معطياتها وتنظيمها ثم تحولت هذه الفلسفة إلى دراسة تحليلية للغة العلم لتحقيق وحدة مشتركة بين فروع العلم على اختلاف أنواعها وتعددها. (انظر: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية. أحمد زكى بدوى صـ ٢٢١. مكتبة لبنان بيروت ، دراسات فى الفلسفة المعاصرة د/ زكريا إبراهيم جـ١ صـ ٢٦٧ - 268 نشر مكتبة مصر للطباعة).

(3)فيلسوف أمريكى عاش ما بين ١٨٤٢ –١٩١٠ كان أبوه هنرى جيمس قسيسا بروتستانيا ويعد جيمس الأب الروحى للبراجماتية [انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة. يوسف كرم ص ٤١٦-٤١٧.

(4)انظر: العقل والدين . وليم جيمس صـ ١٦ - 17 ترجمة د/ محمود حب الله دار إحياء الكتب العربية ١٩٤٩.

وما ذكرته البراجماتية وتمسكت به لا يختلف عما عليه الوضعية المنطقية وأنصارها ويتجلى ذلك بوضوح عندما زعمت هذه الفلسفة أن المعرفة بشيء ما لا يتم إلا من خلال إدراكه إدراكا مباشراً.

فها هو رسل يقول:

"من الواضح أن الإحساسات هي مصدر معرفتنا بالعالم بما في ذلك أبداننا، وقد يبدو من الطبيعي أن الإحساس في ذاته معرفة ....ومما لا ينكر بطبيعة الحال أننا نحصل المعرفة عن طريق الإحساس"[1].

وعلى هذا الأساس اعتمدت الوضعية المنطقية الحس مصدر للمعرفة ورفضت ما عداه فرفضت القضايا الميتافيزيقية لكونها خارجة عن نطاق الحس. فهي عبارات جوفاء خالية من المعنى. هذه هي شبهة حصر الإيمان في المحسوس فقط كما عرض لها أصحابها.

وفيما يلي بيان لبطلانها متبعين في ذلك المنهج الذي طبق على الشبه السابقة.

الرد على الشبهة:-

أ- الأدلة العقلية.

لقد ساق العلماء جملة من الأدلة العقلية التي تثبت وجود عالم أخر غير العالم المنظور ومن بينها ما يلي:-

١-الدليل الفطري:

إن الدارس لأحوال الأمم والشعوب منذ خلق الله الخلق إلى يومنا هذا يستطيع أن يقف على وجود قاسم مشترك بينها وهو الإيمان بقوة يتوجهون إليها لا تدركها حواسهم مدفوعين بذلك بدافع لا شعوري وهو الفطرة.

---

(١)فلسفتي كيف تطورت . رسل صـ ١٦٤.

فقضية الإيمان بخالق للإنسان والكون والحياة قضية راسخة فى الفطرة الإنسانية عميقة الجذور عمق الشعور بالذات البشرية ؛ يلجأ إليها الإنسان عند افتقاره إلى الملجأ والملاذ ، وكما يشعر المرء بعمق غرائزه الأبوية وحب البقاء وحب التملك فى كيانه ويشعر بالقلق والاضطراب فى حياته إن لم يشبعها بالطريقة السليمة فكذلك شعوره بالاضطراب والقلق إن لم تشبع غريزة التدين فيه بإشباع الأشواق الروحية وتوجيهها الوجهة السليمة للمعبود الحق وهو الله تعالى[1] .

٢ –الدليل الأخلاقى.

ومؤداه أن العقل السليم يقر بوجود الله كفكرة أخلاقية ترسخ فى النفوس الخير والصدق والرحمة وغير ذلك من الأخلاق والقيم النبيلة ، وهذا البرهان من أوضح البراهين على وجود الله تعالى.

"إننا نجد فى قرارة نفوسنا شعورا قويا لا سبيل إلى إنكاره ، يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ، ويؤنبنا ويعذبنا عند ارتكاب الذنوب والآثام فمن أين أتانا هذا الشعور ؟......... إنه ليس أتيا من الإحساس والتجربة ، لأن الحواس لا تنقل لنا إلا صور الأشياء ، وليس فى الأشياء شئ يسمى تأنيبا وتعذيبا للضمير ، وليس أتيا من العقل النظرى ؛ لأن العقل إنما ينحصر عمله فى الإدراك الحسي وتحويله إلى إدراك عقلى"[2] .

إن هذه القوة التى يطلق عليها اسم الضمير يؤمن بها الناس ولا يستطيعون إنكارها يعرفونها بآثارها وتشهد على وجود خلاف المحسوس.

٣– تعدد طرق المعرفة.

---

(١)انظر : مباحث فى التفسير الموضوعى. د/ مصطفى مسلم صـ ١٥ دار القلم . دمشق ١٤١٠هـ – 1989 م.

(٢)قصة الإيمان . للشيخ نديم الجسر صـ ١٦٩ 170 –دار الخلود بيروت لبنان ط٣ ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩م. ،انظر: الفلسفة الحديثة عرض ونقد د/ أحمد رمضان صـ ٣٣٥ - 336. مكتبة الإيمان بالمنصورة.

فقد ذكر العلماء أن للمعرفة طرقا أخرى غير الحواس وهى:-

الحواس السليمة. العقول النقية . الأخبار الصادقة [1] وبهذا يكون الاعتماد على الحواس دون ما عداه منهج قاصر ؛ لأن الوقوف على حقائق الأمور يكون عن الحواس وغيرها ، بل قد يتوصل إلى المعرفة عن طريق الميتافيزيقا أكثر من التجربة.

٤ - وأخيراً فإن الاعتقاد بوجود عالم غير محسوس أمر ضرورى لا بد منه وذلك لعدة أمور:-

أ- أنها فوق طور العقل.

ب- أنها مرحلة ضرورية مكملة للعلوم الجزئية.

جـ- أن مهمتها الكبرى أن تكون واسطة بين الحياة العقلية والحياة العملية ، بين الواقع المتحقق بالفعل، وما يؤمل الإنسان أن يحققه بين العقل والعاطفة وفوق هذا فهى توفيق بين مختلف الآراء والمذاهب[2] .

هذه هى بعض الأدلة العقلية التى تؤكد على فساد هذه الشبهة وبطلان القول بها.

ب- أدلة العلم التجريبي على فساد الشبهة:

١-إن هذه الدعوة تتصادم مع العلم.

إن القول بأن الإيمان ينحصر في المحسوس دعوى فاسدة يكذبها الواقع وتتنافى مع المنهج العلمى الذى يتمسكون به حيث إن عدم الإدراك لا ينافى عدم الوجود ، وعدم تصوره لا يعنى إنكاره ، فكثير من الأشياء لا يعرفها العقل ومع هذا لا يمكن إنكارها.

---

(١)التمهيد . للامشى صـ - ٤١-٤٢.

(٢)انظر: المدخل إلى الفلسفة أزفلدكوليه صـ ٢٩٠ ترجمة أبو العلا عفيفي . مطبعة لجنة التأليف والنشر ط٢ ١٩٤٢.

فهى "أشياء موجودة فى نفس الأمر لقيام الدليل على وجودها[1] "

"فالبكتريا كائنات حية صغيرة جداً فهى لا ترى بالعين المجردة ، وإنما ترى بالمجهر والفيروسات مخلوقات أصغر من البكتريا بكثير فهى لا ترى بالمجهر العادى ، وإنما ترى بالمجهر الإلكترونى ، وهذه الكائنات لها دور مهم فى حياة البشر ، وفى حياة الحيوان والنبات والإنسان لم يكن يراها ولا يشعر بوجودها قبل اختراع المجاهر على اختلاف أنواعها فهل لم يكن لهذه الكائنات وجود قبل اختراع هذه الآلات لمجرد أن الإنسان لم يكن يراها" [2].

وبناءً على هذا فإن حصر الموجود فى المحسوس فقط مجرد فرض افترضه الملاحدون ؛ إلا أنه غير مبنى على البراهين العلمية لكونه يتعارض مع ما أثبتته العلوم ، فضلاً عن تعارضه مع الواقع المشاهد.

٢ – التنويم المغناطيسى.

دلت الأبحاث العلمية الحديثة على أن الموجود لا ينحصر فى المحسوس فقط ؛ كما أن المعرفة غير قاصرة على الحواس وحدها وذلك قياساً على عملية التنويم المغناطيسى تلك العملية التى "تعرض لنا أمثلة كثيرة لا نصادفها فى ظاهرة الشعور على البعد لإثبات الاتصال بوسيلة غير وسيلة الذبذبات واستخدام الأجسام الصنوبرية لأن النائم يتلقى عن منومه صوراً لا يتأتى تعليلها بالإشعاع أو ما شابهه مثل التيارات المادية ، وكثيراً ما تكون الوسائل المغناطيسية قائمة على تخيل لا وجود له فى عالم الحس ، ولكنه ينتقل إلى ذهن النائم لأن المنوم لقنه أو أمره بتلقينه وتصديقه ، وهو يرى ما فى خيال المنوم ، ولا يرى ما فى خيال غيره" [3].

---

(١)الرسالة الحميدية . للشيخ حسين الجسر صـ ٢٢١.

(٢)الله سبحانه وتعالى. صلاح الدين عبد المجيد صـ ٣٦. مطبعة الجمهور الموصل ط٢ / ١٩٨٢م.

(٣)الفكر المادى الحديث د. محمود عثمان صـ ٥١٠.

إن عملية التنويم المغناطيسى صارت اليوم حقيقة ثابتة لا يمكن إنكارها ، وهـذه العملية صارت إبداعا من حيث أن المنوم يصل إلى وسيلة علاجية سـهلة بطـرق أخرى غير الحواس.

فالتنويم المغناطيسى معلومة أولية للملاحظة العملية وفى استطاعة من وهبـوا هذه القوة أن يستشفوا أفكار الأشخاص الأخريـن السـرية دون أن يسـتخدموا أعضاءهم الجسدية وتتم هذه العملية من خلال تعطيل حواس الشـخص الخـاضع للمنوم عدا حاسة السمع [1] .

وعلى هذا يجب علينا الإيمان بوجود أشياء لا تدركها الحواس ، كذا الإيمان بحـواس أخرى لم تثبت حتى الآن.

٣-وجود قوى أخرى داخل الإنسان يدرك بها.

من بين الأدلة العملية التى استدل بها العلماء على وجود ما وراء الحس هى تلك القوى الكامنة فى الإنسان والتى من الممكن أن يحصل من ورائها علـوم كثـيرة ومعارف متعددة فعلى سبيل المثال يرى العلماء:

"أن العقل وحده لا يستطيع إيجاد العلم ، ولكنه عامل لا مفر منه فـى الابتـداع والعلم بدوره يقوى العقل فقد جلب للإنسانية موقفا عقليا جديدا علاوة على الوصول إلى الحقيقة بواسطة الملاحظة والتجريب والتفكير المنطقى فالحقيقة المستمدة مـن العلم تختلف تماما عن تلك المستمدة من الإيمان فالأخيرة أكـثر عمقـا ولا يمكـن التشكيك فيها بالمجادلات .... إن الاكتشافات الكبيرة ليست نتاج العقل فقط فـإن العباقرة يملكون إلى جانب قوتهم على الملاحظة والفهم صفات أخرى مثل البصيرة والخيال المبتدع" [2] . فيقفون على حقائق الأشياء والعلاقات بين بعضها والبعـض الآخر . وهكذا فإن معرفة الإنسان للعالم اللامحسوس قد يصل إليها الإنسان عـن

---

[1] انظر: الإنسان ذلك المجهول. الكيس كاريل . ١٤٧. تعريب . شفيق أسـعد فريـد مكتبـة- المعارف- بيروت ط٣ ١٩٨٤ ، عجائب التنويم صـ ٤-٥.

[2] الإنسان ذلك المجهول . الكسيس كاريل صـ ١٤٥.

طرق أخرى غير حواسه لا سيما ، وأنها موجودة فيها ويستطيع إدراكها بالتأمل الدقيق والإيمان الصحيح.

٤- حركة الجاذبية.

فلقد أثبتت البحوث الفيزيائية والدراسات الفلكية التي استمرت طويلاً لأحوال الأجرام السماوية أن ظواهر الكون كله بدأ من أصغر ذرة وصولاً إلى أكبر نجم تتتابع في نظام معقد ومحكم وجميع ما فيه في حركة تجاذب مستمرة ، وهذه القوة تؤثر في جميع الكرات السماوية لا شك في ذلك، كما أنها "توجد بالحقيقة في جميع المادة ، وفي أصغر أجزاء المادة ، وهكذا فإن الجاذبية هي النابضة الكبيرة الذي يحرك جميع الطبيعة" [1].

وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على وجود قوة مهيمنة على هذا العالم أوحت إليه بهذا النظام وعلى هذه الهيئة. فالكون كله بما فيه يخضع لقانون الجاذبية .

٥- وأخيراً فإن حصر الموجودات في المحسوسات فقط خطأ علمي فادح لأنه يترتب عليه جعل الوجود كله أشياء مفردة قائمة بذاتها يشار إليها بهذا .

جـ- الأدلة النقلية.

لقد ذكر الله تعالى في الكتاب الكريم آيات متعددة توضح عدم حصر الموجود في المحسوس من بينها قوله تعالى:

١- ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [2]

فالقرآن لم يبين لنا حقيقة الروح؛ لأن هذا سر من الأسرار التي اختصها الله بعلمه وتولى معرفتها.

---

(١)الرسائل الفلسفية. فولتير صـ ٨٨. ترجمة عادل زعيتر . دار المعارف ١٩٩٥م.

(٢)سورة الإسراء الآية ٨٥.

فالقرآن لم يبين لنا حقيقة الروح؛ لأن هذا سر من الأسرار التـــي اختصـــها الله بعلمه وتولى معرفتها.

٢- قال تعالى: ﴿ أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ [١] .

فهذه الآية توضح أن هذا الكون الذى أمكننا الله إدراكه بما شاء لنا مـــن إدراك ليس هو الكون الوحيد الذى خلقه الله تعالى بل إن قدرة الخالق العظيم لا حدود لـــها ، وهو سبحانه قادر على خلق غيره من الأكوان[٢] .

هذه هى بعض الأدلة النقلية التى توضح وجود غير المحسوس ، وبها يتبيـــن أن عدم المشاهدة للشيء لا تنفى وجوده أو على الأقل إمكانية وجوده خصوصاً إذا كان هذا الأمر قد أخبر عنه الصادق المعصوم صلى الله عليه وسلم وقد يستدل على هذا الشيء بآثاره أو بطرق أخرى من طرق المعرفة.

---

(١) سورة يس الآية ٨١.

(٢) انظر : القرآن والسلوك الإنسانى محمد بهائى سليم صـــ ٣٥١ ، إلزام القرآن للماديين والملبين . د/ سيد أحمد المسير صـــ ٣٦-٣٧.

ثمار الإيمان بالله تعالى

إن عقيدة الإيمان بالله تعالى هي محور العقيدة الإسلامية التي لها من الأهمية الكبرى والمكانة العظمى في حياة الإنسان ما لها ، وهـذا ما يتضح بجلاء من الوقوف علـى بعـض ثمـار عقيـدة الإيمـان بالله (تعالى) .

فالإنسان إذا ما آمن بالله تعالى استطاع أن يجني ثمار هذا الإيمان، **والتي منها ما يلي :**

١- تلبية نداء الفطرة الملح ، إذ الإنسان مفطور على الإيمان ، كمـا قال النبي (ﷺ) : ﴿ ما من مولود إلا يولد على الفطـرة ﴾، فحينمـا يؤمن الإنسان بالله تعالى يكون قد لبى نداء الفطرة ، وذلك لأن شعور الإنسان بأن له إلها خالقا أمر فطري ، وتطلعه إلي معرفته والاتصال به ومناجاته والالتجاء إليه حاجة نفسية ، فإذا لم تلب هذه الحاجة سعى هو إلي تلبيتها ، وكثيرا ما يخطئ الطريـق إلـي ذلـك ، فالعقيـدة الإسلامية لبت داعي الفطرة ، ودلت الإنسان على خالقه وصـانعه ، الذي بيده ملكوت كل شيء ، فأخرجته بذلك من الانحراف والتخبط ، وما أحوج الإنسان إلي ذلك [1] .

وبذلك حفظت العقيدة الإسلامية الإنسان من أن يضل فـي تلبيتـه لنداء فطرته وحاجته النفسية فيعبد ما لا يسـتحق أن يعبـد ، وأمدتـه

---

(١) راجع : دراسة في علم العقيدة الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة . الشيخ أحمد علي الملا صـ٣٨٦ .

بالنبع الصافي حتى لا يخطئ طريقه فينحرف ويتخبط ، وإنما أوقفته على الطريق المستقيم في التوجه لله رب العالمين .

٢- إن الإيمان بالله تعالى حرر البشرية من عبودية الأغيار ، وجعلهم عبادا لله تعالى .

وذلك لأن الإيمان بالله تعالى ليس كلمة ينطق بها اللسان ، ولا هو مجرد تصور فلسفي لعلاقة الإنسان بالخالق .... وإنما هو ثورة تحريرية تعتق الإنسان بكل طاقاته من العبودية لكل الأغيار ، في ذات اللحظة التي يُخلص فيها إفراد الله (ﷻ) بخالص العبودية وكاملها. إنه التحقيق الكامل لانتماء هذا الإنسان إلي الله .... وهو الانتماء الذي يعصم الإنسان من كل ألوان الضعف التي تدفع به إلى هاوية الاغتراب [1] .

٣- إن الإيمان بالله تعالى يحقق للمجتمع الإنساني مبدأ المساواة ، هذا المبدأ الذي يكفل للأمة وحدتها ، فإن الإيمان بالله تعالى على الوجه الصحيح يجعل الناس سواسية أمام الله حكاما ومحكومين ، لأنهم جميعا مخلوقون لله رب العالمين .

٤- إن الإيمان بالله تعالى يؤثر في سلوك المؤمن تأثيرا مباشرا ، لأن الإيمان قول وعمل ، فمتى وقر الإيمان في قلب المسلم واستحضره في مناحي حياته استقام سلوكه وحسن خلقه .

فالإيمان بالله يبعث على العمل بمقتضيات تلك العقيدة والالتزام بمبادئها الخلقية والسلوكية .

---

(١) راجع : معالم المنهج الإسلامي . د/ محمد عمارة صـ٢٢ ، ٢٣ دار الرشاد ط الثالثة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م .

قال تعالى :﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾[1] .

فالإنسان إذا آمن بالله قام بطاعته ملتزما آمره مجتنبا نهيه ، لأن الذي يؤمن بالله على الوجه الصحيح لا بد أن يقع في قلبه تعظيم الله على الإطلاق فإذا أحب الله حبا مطلقا لا يساويه أي حب ، وإذا عظم الله تعظيما مطلقا لا يساويه أي تعظيم ؛ فإنه بذلك يقوم بأوامر الله وينتهي عما نهى الله عنه [2] .

٥- إن الإيمان بالله تعالى يحقق لصاحبه الأمن والأمان ، فهو الملاذ الوحيد له ، يلوذ به وقت الشدة ويهرع إليه تعالى وقت الضيق ، يسأله وقت الحاجة ، يشكره وقت النعمة ، يرضى بقضائه ويصبر على بلائه ، لأن الإيمان بالله تعالى يجعل المسلم يرد كل شيء إلى الله ، ومن ثم فلا ييأس ولا يجزع وقت الشدة والضيق ، وإنما يلجأ إليه يطلب عونه وفرجه وكرمه .

ومن هنا فإنك ترى أن الأمراض العصبية والنفسية تقل بشكل كبير لدى المؤمنين بالله تعالى بل تنعدم لدى الملتزمين بمتطلبات هذا الإيمان .

وليس هذا فحسب ، بل إن الإيمان بالله تعالى هو العلاج الوحيد لهؤلاء المرضى النفسيين .

---

(١) سورة المؤمنون . الآيات (١- ٥) .
(٢) شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين . د/ محمد بن صالح العثيمين جـ٢ صـ٣٩٨ تحقيق أ/ عبد الله بن محمد بن أحمد . دار الوطن ط الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م

فقد ذكر كتاب (الله يتجلى في عصر الإسلام) أن من الأسباب الرئيسية للأمراض النفسية والعصبية الشعور بالإثم أو الخطيئة ، والحقد ، والخوف ، والقلق ، والكبت ، والتردد ، والشك ، والغيرة ، والسأم .

ومما يؤسف له أن كثيرا ممن يشتغلون بالعلاج النفسي قد ينجحوا في تقصي أسباب الاضطراب النفسي الذي يُصيب المرضى ، ولكنهم يفشلون في معالجة هذه الاضطرابات ؛ لأنهم لا يلجأون إلى بث الإيمان بالله في نفوس هؤلاء المرضى [١] .

فقد قال الله تعالى :﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٢] .

٦- إن الإيمان بالله تعالى يحقق السعادة للفرد والمجتمع في العاجل والآجل ، فإن الإيمان بالله تعالى يشكل المنطلق الأساسي لحضارة الأمة ولنظامها الاجتماعي ، وبمقدار ما تكون عقيدة الأمة صحيحة يكون تقدمها وإنسانيتها وسعادة المجتمع البشري بها .

قال الله تعالى : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ [٣].

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم صـ١٣٩ .
(٢) سورة التغابن . جزء لية (١١) .
(٣) سورة طه . الأيات (١٢٣ ـ ١٢٦) .

وقال :﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾[1] .

وهكذا ترى عقيدة الإيمان بالله تعالى تعود بالنفع والخير والصلاح على الفرد والمجتمع حتى يسعد في دنياه وأخراه .

(١) سورة الزخرف . آية (٣٦) .

الصفات الإلهية التي يجب الإيمان بها

تمهيد :

أخذ البحث في موضوع الصفات الإلهية عند علماء العقيدة مكانة هامة في مجال علم العقيدة ، وذلك بتخصيص الكثير من المباحث لدراسة كل الجوانب المتعلقة بالصفات الإلهية دراسة دقيقة .

ومن هنا يمكن القول بأن هذه النقطة قد أخذت مكانا أكثر بكثير مما ينبغي ، بل إنها كانت في أحيان كثيرة عديمة الجدوى ؛ لأنها مباحث عقيمة ، تكاد تطفئ نور العقيدة في القلوب ، وذلك لأن بعض هذه الدراسات التي قامت حولها قد انحرفت عن مسارها الشرعي الصحيح ، فقد أدت بالأمة الإسلامية إلي الاختلاف والتفرق لا الائتلاف والتجمع علي الحق ، وهو الهدف المفترض في مثل هذه الدراسات .

فقد أقحمت بعض هذه الدراسات نفسها فيما هو خارج عن نطاق حدودها ومجال بحثها ، ولذلك ما جنت من وراء انحرافها إلا حصادا مريرا ، مزق الأمة وشتتها إلي فرق متباعدة ، كل واحدة منها أخذت وجهة مختلفة عن الأخرى ، فظهرت تقسيمات متنوعة للصفات ، وظهر البحث كذلك في علاقة الذات بالصفات ، وهل صفاته تعالى هي عين ذاته أم غيرها ؟ وهل هي قديمة قدم الذات أم حادثة ؟ وهل هي قائمة بالذات أم بغير الذات ؟ إلي غير ذلك من هذه المسائل التي

لم تستفد منها الأمة بقدر ما خسرت .

ولذلك كان لعلماء العقيدة تجاه الصفات الإلهية ولاسيما صفات المعاني والصفات الخبرية مواقف مختلفة :

فمنهم من أنكرها كصفات مستقلة وردها إلي الذات خوفا من تشبيه الله تعالى بالبشر كالمعتزلة ، فهم وإن كانوا يقولون بثبوتها ، إلا أنهم يثبتونها على أنها أحوال ، وليست موجودة ، أي على أساس أنها نفس الذات [١] .

ومنهم من أثبتها مطلقا وآمن بظاهر ما ورد فيها من نصوص دون تشبيه أو تكييف أو تأويل وهم السلف الصالح [٢] .

ومنهم من آمن ببعضها وفوض العلم إلي الله في بعضها الآخر وهم الأشاعرة الذين آمنوا بصفات المعاني ، وفوضوا العلم إلي الله في الصفات الخبرية .

ولذا سيكون عرضنا لهذه الصفات عرضا إجماليا دون الدخول في التفصيلات التي أوردها علماء العقيدة في كتبهم .

وقد قسم علماء العقيدة الصفات إلي صفات نفسية، وصفات سلبية وصفات معاني ، وصفات معنوية ، وصفات أفعال ، وصفات خبرية .

وإليك بيان هذه الصفات بصورة موجزة :

١- **الصفات النفسية :** وهي صفة الوجود :

---

(١) راجع : المحيط بالتكليف صـ١٠٤ ، ١١١ .

(٢) راجع : الصفات الإلهية في الكتاب والسنة بين الإثبات والتنزية . د/ محمد أمان بن على الجامي صـ٥٧ وما بعدها حتى صـ٦١ دار الحرمين للطباعة . نشر دار التقوى . توزيع المكتبة الأثرية .

فهذه الصفة بدونها لا نستطيع أن نتصور ذاتــه تعـالى ووجـود اللهتعالى نفس ذاته دون معنى زائد عليها .

وهي صفة واجبة لله تعالى ، ويستحيل عليه ضدها وهو العــدم . والأدلة على ثبوت هذه الصفة هي أدلـة وجـوده تعـالى إذ وجـوده تعالى نفس ذاته كما ذكرنا .

٢- **الصفات السلبية**: وهي تلك الصفات التي تسلب عن الله تعـالى كل نقص لا يليق به (ﷻ) أي إن مفهومها سلب شيء لا يليـق بـه وذلك مثل القدم فهو سلب أولية الوجود ، والبقاء هـو سـلب آخريـة الوجود (أي سلب انتهاء الوجود ، والوحدانية هي سلب وجـود إلـه آخر مع الله تعالى مماثل له في ذاته وصـفاته وأفعالـه ، والمخالفـة للحوادث هي سلب مماثلة الله تعالى لشيء من مخلوقاته .

٣- **صفات المعاني**: وهي كل صفه دل بها الوصف على معنى زائد على الذات الإلهية كالعالم والقادر والمريد والمتكلم وغيرها .

وهذه الصفات تقتضي قيام معنى زائد على الذات الإلهية وهو مـا ذهب إليه الأشاعرة ، فقالوا إنه عالم أي له علم قائم به تعالى وقالوا : إنه قادر أي له قدرة قائمة به تعالى وهكذا ....

وقد اشتق بعض علماء العقيدة من صفات المعاني صفاتا أخـرى وأطلقوا عليها الصفات المعنوية ، فأخذوا من صفة القدرة صفة أخرى وهي كونه قادرا ، ومن صفة العلم صفة أخرى وهي كونـه عالمـا ، وكذا بقية صفات المعاني .

٤- **صفات أفعال :** وهي الصفات التي تنسب أفعالا خاصة إلـي الله تعالى مشتقة من أفعاله كالخلق والرزق والإحياء والإماتة وغيرها فقد اشتق منها صفات الخالق والرازق والمحي والمميت ، وغير ذلك.

وهذه الصفات تفيد صدور شيء عن الذات دون أن تضيف إليهـا معنى زائد عليها قائما بها .

وهذه الصفات قد أنكرها البعض من علماء العقيدة كصفات مستقلة وردوها إلي صفة القدرة ورأوا أنها عبارة عن تعلقات لهـذه الصـفة وليست صفات مستقلة وهم الأشاعرة .

٥- **صفات خبرية :** وهي الصفات التي نسبت إلي الله تعالى ما يـوهم المشابهة بينه وبين خلقه مثل الوجه ، والقدم ، والاستواء ، والضـحك والحب ، وغير ذلك من الصفات التي أخبر بها القرآن الكريم وأخبرت بها السنة النبوية المطهرة .

وقد اختلف علماء العقيدة بشأن إثبات هذه الصفات ، فإثباتها على الإطلاق يوهم المشابهة للحوادث ، ونفيها على الإطلاق إنكـار لمـا أخبر الله تعالى به عن نفسه ، ولما أخبر به رسوله (ﷺ) .

وأقرب الآراء في هذه الصفات هو :

١- إثباتها مع صرف المعنى المتبادر منها عن ظاهره ، وتفويض علم المراد منها إلي الله تعالى .

٢- إثباتها مع صرف المعنى المتبادر منها عن ظاهره ، وتأويله إلي معنى آخر غير المتبادر ، لكن بشرط أن يحتملـه اللفـظ وترجحـه مقاييس اللغة العربية .

والأخذ بأي هذين الرأيين صواب ، فقد اتفق علماء العقيدة على أن المعنى المتبادر من هذه النصوص الشرعية التي ذكرت بعض الصفات الخبرية غير مراد .

غير أن السلف رأوا الإيمان بها كما وردت وتفويض علم حقيقتها إلي الله تعالى ، فهذه الصفات ثابتة له تعالى لكن ليست كصفات البشر ؛ وذلك لأن المشاركة في الأسماء لا تقضي المشاركة في الذات .

ورأى الخلف – نظرا لظهور المبتدعة الذين تمسكوا بظاهرها فوقعوا في التشبيه والتجسيم – أنه يلزم تعيين المعنى المراد ، وذلك بتأويلها وصرفها عن ظاهرها إلي معنى آخر يحتمله اللفظ .

وفيما يلي نتحدث عن الصفات السلبية وصفات المعاني :

أولا – الصفات السلبية :

وهي خمس صفات : القدم ، والبقاء ، والوحدانية ، والمخالفة للحوادث ، والقيام بالنفس .

١ – صفة القدم :

والقدم معناه عدم أولية الوجود ، فهو تعالى أزلي لا بداية لوجوده لم يسبقه عدم .

والقدم صفة واجبة لله تعالى ويستحيل عليه ضده وهي الحدوث.

والدليل على ثبوته قوله تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾[1] .

---

(١) سورة الحديد . جزء آية (٣) .

فالله تعالى لو كان حادثا لاحتاج إلي محـدث ، ومحدثـه – مـع فرضه حادثا – محتاج إلي محدث ، وهكذا فيلزم إمـا الـدور وإمـا التسلسل ، وكل من الدور والتسلسل محال ، فما أدى إلي واحد منهمـا وهو حدوث الله تعالى يكون محالا ، وإذا استحال حدوثـه وجـب أن يكون قديما وهو المطلوب .

٢ – صفة البقاء :

والبقاء معناه عدم آخرية الوجود ، أو هو : امتناع لحـوق العـدم بذاته (ﷻ) .

والبقاء صفة واجبة لله تعالى ويستحيل عليه ضـده وهـو الفنـاء والزوال .

والدليل على ثبوته قوله تعالى : ﴿ هُوَ الْـأَوَّلُ وَالْـآخِرُ وَالظَّـاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (٢) .

وإذا كان الله تعالى قد ثبت له وجوب القدم واستحال عليه الحدوث حتى لا يحتاج إلي من يوجده ، وهذا معناه أنه لا يتصور وجود مؤثر فيه بالإيجاد ، فكما لا يتصور وجود مؤثر فيه بالإيجاد لا يتصور مؤثر فيه بالعدم .

فمن ثبت له القدم استحال عليه العدم .

---

(١) سورة الحديد ،جزء آية (٣) .
(٢) سورة الرحمن ،آية (٢٧) .

٣- صفة الوحدانية :

والوحدانية معناها سلب تصور التعدد في ذاته وصفاته وأفعاله (ﷻ) فهو منزه عن المماثلة في الذات والصفات والأفعال .

والوحدانية في الإسلام تأتي بمعان ثلاثة متضامنة لا تتصور الوحدانية إلا من خلالهما وهي :

وحدانية الألوهية ، وحدانية الربوبية ، وحدانية الذات والصفات والأفعال .

فأما وحدانية الألوهية : فإنها تتحقق بالإيمان بأن الله تعالى هو وحده المستحق للعبادة ، فلا معبود بحق سواه ، وهذا هو الفاصل بين التوحيد والشرك والكفر والإيمان .

وهذا التوحيد في الألوهية هو الهدف الأسمى من جميع الرسالات السماوية ، ولذا جاءت به جميع الأنبياء .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾(٣) .

---

(١) سورة النحل جزء آية (٣٦) .
(٢) سورة الزخرف . آية (٤٥) .
(٣) سورة الممتحنة . جزاء آية (٤) .

ولذا أمر الله تعالى خاتم المرسلين أن يعلن هذا التوحيد في مواجهة الكافرين ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[١] .

ولقد تحدث القرآن الكريم عن وحدانية الألوهية حديثا واسعا ، لعظم العناية والاهتمام به ودلل عليها في آيات كثيرة ، منها قوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [٢] .

فإن الفطرة والبديهة يقرران أن وجود ملكين في مدينة واحدة يفسدها ما داما يعملان ، إلا أن يعمل أحدهما ويبقى الآخر بدون عمل وهذا وإن جاز في حق الملوك ، فإنه لا يجوز في حق الآلهة ، فإن العاجز أو المتعطل لا يصلح أن يوصف بالألوهية [٣] وإذن ما دامت السماوات والأرض بالمشاهدة على أحسن ما يكون النظام خالية من الاختلال والفساد ، فإنه ليس هناك آلهة إلا الله تعالى وحده لا شريك له .

وقال تعالى أيضا : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾[٤] .

وقال تعالى أيضا : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[٥] .

---

(١) سورة الكافرون كاملة .
(٢) سورة الأنبياء جزء آية (٢٢) .
(٣) راجع : الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد صـ٤ ، ١٠ .
(٤) سورة الإسراء . آية (٤٢) .
(٥) سورة المؤمنون . لآية (٩١) .

وأما عن توحيد الربوبية : فهو توحيد الخالق ، فإنه لا خالق ولا مدبر سوى الله تعالى .

وفي القرآن من الدلالة بها وعليها ، فقد استدل القـرآن بوحدانيـة الربوبية على وحدانية الألوهية ، لأنه لما كان تعالى هو وحده الخالق فهو إذن وحده المستحق للعبادة .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِـنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْـدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (1) .

وأما عن توحيد الذات والصفات والأفعال .

فإن الله تعالى واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، فلا توجـد ذات تماثل ذاته ولا صفات تماثل صفاته ، ولا فعل يماثل فعله .

فالله تعالى منزه عن أن يشبه أحدا من خلقـه أو يشـبهه شـيء مـن المخلوقات .

قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (2) .

وقال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (3) .

---

(1) سورة البقرة . الآيات (21 – 22) .
(2) سورة الإخلاص كاملة .
(3) سورة الشورى . جزء آية

وهكذا ترى أن الوحدانية من صفات الله تعالى تسلب عنه الشريك والند والضد والمماثلة له في ذاته أو في صفاته ، أو في أفعاله[1] .

٤- صفة القيام بالنفس :

والقيام بالنفس معناه عدم الاحتياج إلي الغير ، فهو مستغن سبحانه عن كل ما سواه وليس محتاجا إلي ذات يقوم بها ، أو إلي مكان يحل فيه ، أو إلي فاعل يخصه بالوجود بدل العدم ، أو يخصصه ببعض الصفات دون بعض فيجب لله القيام بالنفس ويستحيل عليه ضده وهو قيامه بغيره بمعنى احتياجه إلي مكان يقوم فيه ، أو محل يحل فيه أو مخصص يخصصه أو موجد يوجده .

الدليل على ثبوت هذه الصفة لله تعالى : ﴿ الله الصمد ﴾، أي الذي لا يحتاج إلي شيء ويحتاج إليه كل شيء .

فإنه تعالى لو احتاج لغيره على وجه من الوجوه لكان ممكناً، والله تعالى واجب الوجود مستغن عن كل ما سواه ويحتاج إليه كل ما عداه.

٥- صفة المخالفة للحوادث :

والمخالفة للحوادث معناها عدم مماثلته (جل شأنه) لشيء من الحوادث وعدم مشابهة شيء منها له تعالى في شيء من ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله .

والدليل على ثبوت هذه الصفة له تعالى قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[2] ، فإدخال (كاف التشبيه) على لفظ (المثل) مبالغة في

---

(١) راجع : المنهج الإسلامي في العقائد والأخلاق . لساتذة قسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين بالقاهرة صـ٦٤ ، ٦٩ ط الأولى ١٩٧٧ م

(٢) سورة الشورى . جزء آية (١١) .

نفي الشبيه والمثل لله تعالى ، فلو شابه الله تعالى شيئا من الموجودات الحادثة في أي خاصة من خواصها لكان مثلها ؛ لأن الشيء الذي يشابه شيئا آخر في خاصة من خواصه يكون مثله البتة ، ولو كان الإله مثلها لجاز عليه ما جاز عليها من الحدوث والفناء لأن ما جاز على أحد المثلين جاز على الآخر . وقد قام الدليل على وجوب قدمه تعالى وبقائه واستحالة حدوثه وفنائه ؛ فوجب أن يكون مخالفا لها واستحال عليه مماثلتها .

وبطريقة أخرى يمكن القول :

لو لم يكن الله مخالفا للحوادث لكان مماثلا لها ، ولو كان مماثلا لها لكان حادثا مثلها ، وكونه حادثا باطل ؛ لما ثبت له تعالى من وجوب الوجود . وإذا بطل كونه حادثا بطل ما أدى إليه من مماثلته للحوادث وثبت مخالفته إياها .

ثانيا - صفات المعاني :

وهي سبع صفات رئيسية وهي : العلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر والكلام .

١ - صفة العلم :

وهي صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ينكشف له بها جميع الأشياء من الواجبات والجائزات والمستحيلات ، فيعلم سبحانه كل شيء منها على ما هو عليه أو ما سيكون عليه من الوجوب أو الجواز أو الاستحالة . ويستحيل عليه ضده وهو الجهل .

وقد اشتمل القرآن الكريم على العديد من الآيات التي تثبت صفة العلم ، ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [2] .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [3] .

الدليل العقلي على ثبوت هذه الصفة له تعالى :

أن الله قد أوجد هذا العالم بما احتوى عليه من العجائب والغرائب مع نهاية الإتقان وغاية الإحكام بما تحتار في دقيق صنعه العقول وفي إتقانه الفهوم .

ومن المستحيل عند العقل السليم أن الذي أوجد هذا العالم بهذا الإحكام والإتقان ودقيق الصنعة وعجيب الوضع يكون جاهلا غير عالم . فثبت بهذا أن الله تعالى إله العالم الذي أوجده بهذا الإتقان يجب له العلم ويستحيل عليه ضده وهو الجهل . وهذا هو المطلوب .

وعلمه تعالى شامل للواجبات والجائزات والمستحيلات .

---

(١) سورة لقمان . آية (٣٤) .
(٢) سورة سبأ . جزء آية (٢) .
(٣) سورة المجادلة . آية (٧) .

٢ – **صفة القدرة :**

وهي صفة قديمة قائمة بذاته تعالى يوجد بها الحوادث ويعدمها على وفق إرادته (ﷻ) .

ومعنى ذلك أنه تعالى قادر مختار في إيجاد الممكنات ، أو تركها على ما كانت عليه من العدم ، أو إعدامها بعد إيجادها ؛ لأن ذلك هو الكمال اللائق بالألوهية ، فليس شيء من الفعل أو الترك لازما لذاته .

وقد اشتمل القرآن الكريم على العديد من الآيات التي تثبت صفة القدرة لله تعالى ومنها :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [١] .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٢] .

وغير ذلك من الآيات التي تثبت صفة القدرة لله تعالى .

الدليل العقلي على ثبوت هذه الصفة :

إن الذي أوجد العالم بما احتوى عليه من الأنواع ذات العظمة والغرابة التي تحتار فيها العقول ، وتغرق في بحار عجائبها الفهوم يستحيل أن يكون عاجزا ، لأنه لو اتصف بالعجز لما وجدت الكائنات بهذا الترتيب العجيب والتنسيق البديع ، لكن عدم وجود هذه الكائنات باطل بالمشاهدة ، فبطل ما أدى إليه من اتصافه بالعجز وثبت اتصافه بالقدرة . وهذه الصفة تتعلق بجميع الممكنات إيجادا وإعداما ، وتعلقها بها صلوحي قديم وتنجيزي حادث .

---

(١) سورة البقرة . جزء آية (٢٠) .
(٢) سورة الحج . آية (٦) .

٣- صفة الإرادة :

وهي صفة قديمة قائمة بذاته تعالى يخصص بها الجائزات ببعض ما يجوز عليها من الوجود والعدم بقطع النظر عن أي مؤثر خارجي .

قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (١) .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ (٢) .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾(٣).

والدليل العقلي على ثبوت هذه الصفة :

أنه ثبت بالأدلة القاطعة حدوث العالم وأن الله تعالى هو محدثه وخالقه ، فلابد أن يكون تعالى فريدا ومتصفا بالإرادة ؛ لأنه لا يمكن أن يترجح وجود العالم على عدمه إلا بالإرادة إذ هي التي تخصص وترجح الوجود على العدم .

وهذه الصفة تتعلق بالممكنات دون الواجبات والمستحيلات ، وتعلقها بالممكنات تعلق صلوحي قديم وتنجيري حادث .

٤ ، ٥ - صفتي السمع والبصر :

والسمع صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ليست بصماخ وأذن تنكشف بها مسموعاته تعالى .

وهي تتعلق بالمسموعات أو الموجودات فتدرك إدراكا تاما .

والبصر صفة قديمة قائمة بذات الله تعالى ليست بمقلة ولا حدقة تنكشف له بها مبصراته .

---

(١) سورة البقرة . جزء آية (٢٥٣) .
(٢) سورة هود . جزء آية (١٠٧) .
(٣) سورة يس . آية (٨٢) .

وهي تتعلق بالمبصرات أو الموجودات فتدرك إدراكا تاما.

والدليل عليهما من القرآن الكريم

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[1] .

فإنه تعالى لو لم يتصف بهاتين الصفتين لاتصف بضدهما ، والضد نقص ، والنقص في حقه تعالى محال.

وأيضا فإن السمع والبصر من الكمالات في المتصف بها من الحيوانات والإنسان ، وإذا كان هذا كمالا في حق المخلوق ، فالخالق أولى منه بهذا الكمال ، فالإله المعبود يجب أن يكون سميعا بصيرا .

٦- صفة الكلام:

وهي صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ليست بحرف ولا صوت ، تدل على الواجبات والمستحيلات ما كان منها وما يكون وما لم يكن ، يفهم بها سبحانه ما يريد إفهامه لأحد عباده .

قال تعالى : ﴿ وكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾[2] .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾[3] .

فإنه تعالى لو لم يتصف بالكلام لاتصف بضده والضد نقص والنقص في حقه تعالى محال .

والكلام الذي تحدثنا عنه هو الكلام النفسي الذي يقوم بالنفس وتدل

---

(١) سورة الشورى .جزء آية (١١) .
(٢) سورة النساء .جزء آية (١٦٤) .
(٣) سورة التوبة .جزء آية (٦) .

عليه العبارة أو الإشارة ، بخلاف الكلام الحسي الذي يدل على الكلام النفسي من خلال العبارة أو الإشارة .

قال الأخطل :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما * جعل اللسان على الفؤاد دليلا .**

وقد رأي الأشاعرة إثباته ، ورأت المعتزلة إنكاره ، لأنهم لا يعدون الكلام إلا ما كان مركبا من أصوات وحروف .

ولذلك فالكلام النفسي عند الأشاعرة قديم ، وعند المعتزلة حادث ؛ لأن الأصوات والحروف حادثه .

والأشاعرة لا ينكرون الكلام الحسي إلا أنهم يثبتون وراءه معنى قائما بالنفس هو صفة قديمة لله تعالى يدل عليه بالعبارة كما يدل عليه بالكتابة والإشارة ، ومن هنا كان كلامه تعالى مسموعا بآذاننا ومقروءا بألسنتنا مكتوبا في مصاحفنا .

ومعنى ذلك أن المسموع والمقروء والمكتوب هو الكلام الحسي الدال على الكلام النفسي ، وليس هو الكلام النفسي بذاته .

صفة الحياة : وهي صفة قديمة قائمة بذاته تعالى تصحح عقلا اتصافه بصفاته الجليلة من نحو القدرة والإرادة والعلم وغيرها .

قال تعالى :﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾[1] .

قال(تعالى): ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [2] .

---

(١) سورة البقرة ـ جزء آية (٢٥٥) .
(٢) سورة غافر ـ جزء آية (٦٥) .

فإنه تعالى لو كان ميتا لما صح اتصافه بصفاته التي قـام الـدليل على وجوب اتصافه بها من الصفات المتقدمة ، لكن صح اتصافه بها وكل من كان كذلك وجبت له الحياة [1] .

وبعد هذه الوقفة العاجلة مع الصفات السلبية وصفات المعاني نود أن نقف على بعض ثمار الإيمان بالصفات الإلهية ، وهو ما نوضـحه من خلال المبحث الثاني .

---

(١) راجع : دراسة هذه الصفات في أصول العقيدة الإسلامية والأخلاق . لجنة من أساتذة قسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين بالقاهرة صـ٤٨ ـ ٥٩ مكتبة الأزهر ط الأولى ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٥م .

ثمار الإيمان بالصفات الإلهية

مما لا شك فيه أن الله تعالى خالق كل شيء ، خالق الكون ومدبره ، خالق الإنسان ومعلمه ، خالق الجماد والنبات ومسخره ، فهذه المعاني وأمثالها واضحة في أسمائه الحسنى ، وصفاته العلى .

وإذا كان الأمر كذلك فلابد من ظهور آثار أسمائه وصفاته في هذا الكون ، في الحياة ، في النفس البشرية ، لكن الوقوف على هذه الآثار يتوقف على توفيق الله تعالى وهدايته ، ولن يدرك الإنسان هذه الآثار إلا بأمرين – بعد توفيق الله تعالى له وهما .

الأمر الأول : أن يعلم الإنسان أنه مخلوقا لحكمة ، انطلاقا من قوله تعالى :﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ (١) .

الأمر الثاني : أن يتخلق الإنسان بأخلاق الله تعالى .

فإذا ما حقق الإنسان هذين الأمرين أدرك لا محالة آثار الصفات الإلهية في الواقع والحياة .

فأما الأمر الأول : فإن على الإنسان أن يعلم ما هي الحكمة التي خلق الله تعالى من أجلها هذا الكون ، فقد خلق الكون من أجل الإنسان وخلق الإنسان من أجله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

---

(١) سورة المؤمنون : آية ١١٥ – ١١٦ .

وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] ، فالله تعالى لم يخلق الخلق عبثا ليتركهم سدى ، بدون أمر أو نهي أو تعليم أو توجيه ، بل خلقهم فدبر أمرهم من السماء إلي الأرض فأرسل إليهم رسلا مبشرين ومنذرين ، يعرفونهم بربهم وحقوقه عليهم ، وهي أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، فإذا وصل العبد إلي مرتبة العبودية ، فقد أدرك أثر صفاته وأسمائه تعالى في نفسه وفي الكون من حوله ، يحدثنا في ذلك ابن القيم (ت ٧٥١ هـ - ١١٣٥٠ م) حيث يقول رحمه الله تعالى : (والأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية والأمر اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين ؛ فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها ، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع ، والعطاء والمنع ، والخلق والرزق ، والإحياء والإماتة ، يثمر له عبودية التوكل عليه باطنا ، ولوازم التوكل وثمرته ظاهرا . وعلمه بسمعه تعالى وبصره ، وعلمه أنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وانه يعلم السر وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضى الله وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه فيثمر له ذلك الحياة باطنا ويثمر له الحياة اجتناب المحرمات والقبائح .

---

(١) سورة الذاريات . آية (٥٦) .

ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته ، توجب له سعة الرجاء وتثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه .

وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه ، تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة ، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعا من العبودية الظاهرة هي موجباتها .

وكذلك علمه بكماله وجماله العلى يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية ، فرجعت العبودية كلها إلي مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها ارتباط الخلق بها ، فخلقه سبحانه وأمره هو موجب أسمائه وصفاته في العالم وآثارها ومقتضاها)[1] .

وحينما تتحقق درجة العبودية للإنسان فإن عليه أن يحافظ عليها ويؤدي حقوقها ، فإذا ما وقع العبد في ذنب فإن عليه أن يبادر بالرجوع إلي الله ؛ لأنه تعالى غافر الذنب ، وقابل التوب ، عفو غفور شديد الفرح بتوبة عبده ، ولاشك أن الإنسان حينما يعود إلي ربه يكون قد حقق عبوديته له ، من خلال إدراكه لآثار أسمائه وصفاته تعالى ؛ لأنه كما سمى نفسه بذلك غفار ، تواب ، غفور ، حليم ، لطيف .

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة . ابن القيم صـ٤٢٤ ـ ٤٢٥ صححه وعلق عليه الأستاذ محمود حسن ربيع ، نشر مكتبة حميدو الإسكندرية ، ط الثالثة ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

يقول ابن القيم : (إذا عرف هذا ، فمن أسمائه سبحانه [الغفار ، التواب ، العفو] فلا بد لهذه الأسماء من متعلقات ، ولابد من جناية تغفر ، وتوبة تقبل ، وجرائم يعفى عنها)[1] .

ثم يقول بعد ذلك : (فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات في العالم ، وفي الأمر ، تبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد وتقديرها ، وهو من كمال الأسماء والصفات والأفعال ، وغاياتها أيضا مقتضى حمده ومجده ، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته [. . .] فكل اسم من أسمائه له تعبد مختص به [. . .] وأكمل الناس عبودية هو المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر . فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر [. . .] وهذه طريقة الكمل من السائرين إلي الله)[2] ، وهي طريقة رقي العبودية من درجة إلي درجة أرقى وأعلى ، فالإنسان حينما يؤمن بصفة القدرة والعلم والسمع والبصر وغيرها من الصفات ، ويضعها نصب عينيه في كل أقواله وأفعاله ، وخطرات قلبه ، فإنه لا شك يصل بتوفيق الله له إلي أرقى درجات العبودية لله ؛ وذلك لأن إدراك العبد لهذه المعاني يورثه الحياء من الله والخجل عندما تحدثه نفسه الأمارة بالسوء بنوع من المخالفة . كما يورثه في الوقت ذاته الرغبة في التوبة والإنابة والرجوع إلي الله ، فلا ييأس من رحمة الله .

---

(١) مدارج السالكين ، بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين . ابن القيم صـ٣١٥ ، دار التراث العربي ، ط الأولى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

(٢) المرجع السابق صـ ٣١٥ ، ٣١٦ .

هذه هي بعض آثار إيمانه بهذه الصفات ، وهذه الآثار جميعها تنقله إلي العبودية (المحبة) فيحب الله حق المحبة ، ويؤثر محبته على محبة كل محبوب ، فيقدم طاعته على كل طاعة ويتفاني في عبادته ، ويجد فيها الراحة كلها (أرحنا بها يا بلال)[1] وهذه هي أرقى درجات العبودية .

وما هي إلا أثر من آثار الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه الحسنى ، فإذا وصل إليها العبد تيقن من حكمة إيجاد الله ﷻ وإيجاد هذا الكون كله لخدمته ، وتسخيره إياه في مصلحته وراحته .

وبذلك يتضح لنا جليا ما للصفات الإلهية من آثار في النفس البشرية .

أما أثرها في الواقع والحياة فيتضح من خلال تخلق الإنسان بأخلاق الله تعالى ، وهو ما سنعرفه من خلال الأمر الثاني .

الأمر الثاني : أن يتخلق الإنسان بأخلاق الله تعالى .

يذكر الجرجاني في كتابه (التعريفات) تعريفا للفلسفة **يقول فيه بأنها هي** : (التشبه بالإله بحسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الأبدية ، كما أمر الصادق (ﷺ) في قوله : (تخلقوا بأخلاق الله) أي تشبهوا به في الإحاطة بالمعلومات والتجرد عن الجسمانيات)[2] .

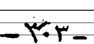


ويعلق المحقق فضيلة الدكتور / عبد الرحمن عميرة في هامش صفحة النص على هذا الحديث الذي ذكره الجرجاني بقوله : لم نعثر

---

(١) الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه صـ٣٧٩ .

(٢) التعريفات صـ٢١٦ تحقيق وتعليق الدكتور / عبد الرحمن عميرة . عالم الكتب بيروت لبنان ، ط الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م .



على هذا الحديث على كثرة البحث والتنقيب في كتب الأحاديث ، ولعله يكون من أقوال الصوفيه [1] .

وقد أوضح الجرجاني معنى التشبه بالله تعالى في حدود الطاقة البشرية ، وذلك انطلاقا من القاعدة التي تقول بأن المشاركة في الأسماء لا تقتضي المشاركة في الذات فكثير من صفات الله قد تشترك مع صفات خلقه في اللفظ وفي المعنى العام المطلق قبل أن تضاف صفات الله إلي الله ، وتضاف صفات المخلوق إلي المخلوق وبمجرد الإضافة تختص صفات الخالق بالخالق ، وصفات المخلوق بالمخلوق ، فصفات الله كما يليق بعظمته وجلاله ، وصفات المخلوق كما يليق بحدوثه وضعفه ومخلوقيته[2] .

وهذا ما عناه الإمام الغزالي بقوله : (أنه يثبت للعبد من هذه الصفات أمور تناسبها على الجملة ، وتشاركها في الاسم ؛ ولكن لا تماثلها مماثلة تامة)[3] .

ومن هنا فإن قياس صفات الخالق على صفات المخلوق قياس فاسد ؛ وذلك لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يحذو حذوه [4] .

ومن هنا فإنه يجب وضع ما تقدم في الاعتبار حينما نقول بأن

---

(١) نفس المرجع السابق ، هامش نفس الصفحة وقد قمت بالبحث في كتب الحديث عن هذا الحديث فانتهيت إلي ما انتهى إليه فضيلة المحقق من قبلي ، وإذا كان الأمر كذلك فيكفينا في هذا الأمر أن نعتمد على حديث سيدنا عثمان رضي الله عنه الذي سبق ذكره ، ففيه الكفاية لما هو غرضنا .

(٢) الصفات الإلهية في الكتب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه صـ٢٠٨ ، ٢٠٩

(٣) المقصد الاسنى الإمام الغزالي صـ١٤٥.

(٤) الصفات الإلهية ، صـ٢١٨ .

الإنسان عليه أن يتخلق بأخلاق الله تعالى ، حتى تظهر آثار الصفات الإلهية في الواقع الإنساني والحياة عموما .

وبالإجمال : أن هذا الكون المشاهد الذي تراه أمامك الآن بما فيه من ظواهر شتى ما هو إلا أثر من آثار صفاته تعالى ، فما كان له أن يوجد بدون قدرة إلهية وإرادة وحكمة وعلم وخبرة اتصفت بها الذات الإلهية التي أبدعت على هذه الدقة المتناهية .

ولا ينبغي أن تقف المسألة عند هذا الحد ، بل يجب أن تتعداه ، بمعنى أنه لا يكفي إدراك أثر الصفات الإلهية في الواقع من خلال النظر في هذا الكون ، والإيمان بها فقط ، وإنما يجب أن تترجم هذه الآثار لهذه الصفات إلي واقع عملي يلمسه المسلم ، ويعيش في كنفه ذلك أن الله تعالى يحب موجب أسمائه وصفاته ، فهو عليم يحب كل عليم ، جواد يحب كل جواد ، وتر يحب الوتر ، جميل يحب الجمال ، عفو يحب العفو وأهله ، بر يحب الأبرار ، شكور يحب الشاكرين ، صبور يحب الصابرين ، حليم يحب أهل الحلم [1] .

ومن هنا فإنه ينبغي علي المسلم أن يتصف بهذه الصفات مع أهله وذويه ، وجيرانه وأقاربه ، والناس أجمعين ، فتتحول هذه الصفات إلي سلوك عملي يتعامل به المسلم مع المسلم وغيره أن الإنسان والحيوان ، والنبات مع الكون كله ، فيرحم الضعفاء ويرفق بالحيوان ويصلح في الأرض ولا يفسد ، انطلاقا من تأثير الصفات الإلهية في نفسه ، فترجم ذلك الأثر إلي سلوك إيماني وحضاري ليشمل الكون كله .

(١) مدارج السالكين الأول صـ٣١٦ .

